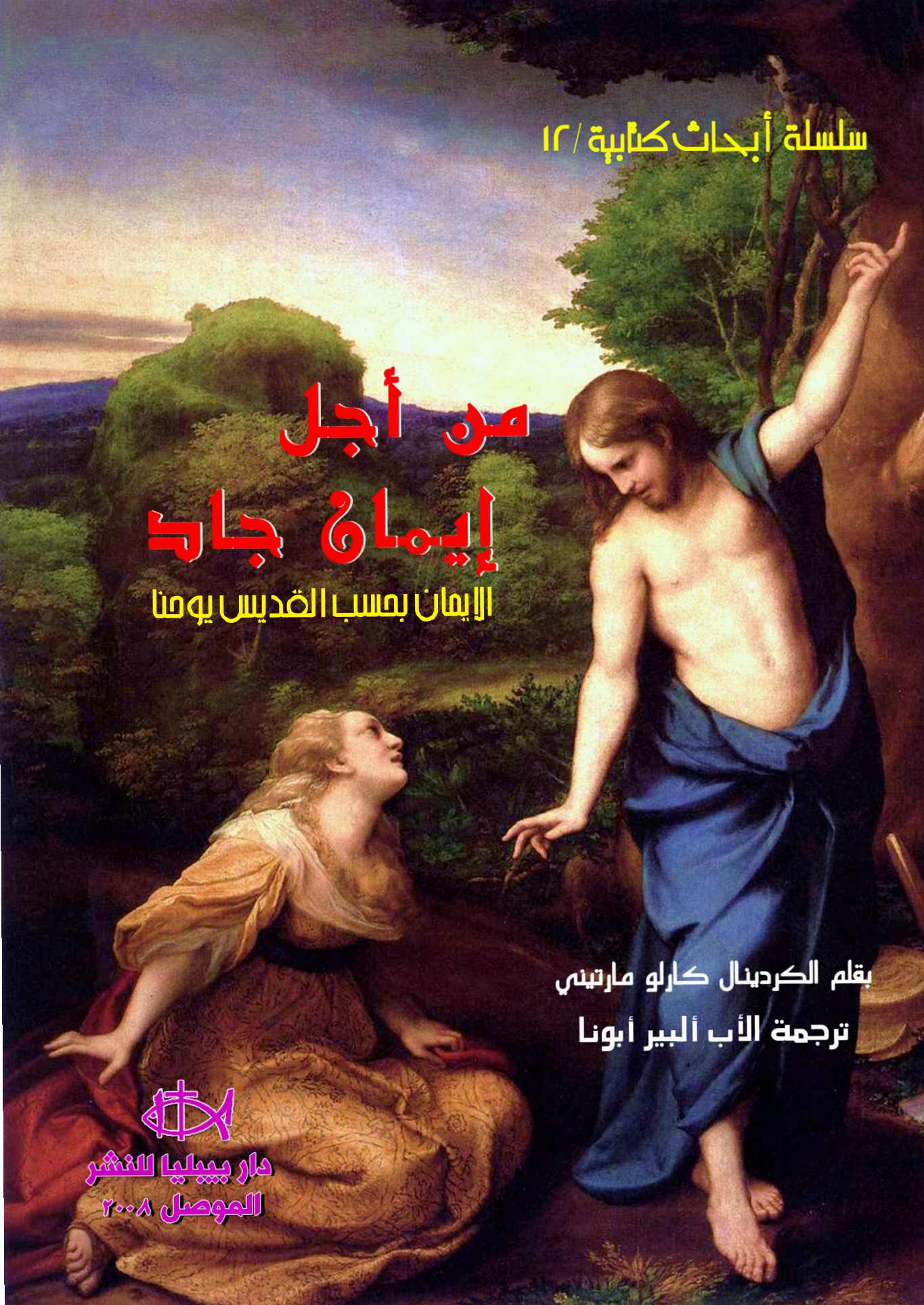

سلسلة أبحاث كتابية / ١٢

من أجل إيمان جاد

الايمان بحسب القديس يوحنا

بقلم الكردينال كارلو مارتيني

ترجمة الأب ألبير أبونا

دار بيبليا للنشر

الموصل ٢٠٠٨

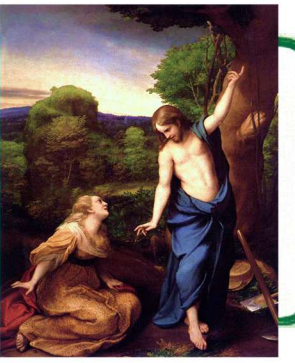

لا تلمسني! بريبشة انطونيو اليكري (١٤٩٨-١٥٣٤)
متحف البرادو- مدريد

كان على المسيح القائم ان يصحّح رغبة المجدلية في التملك
ويحملها على البحث عن طريقة جديدة لرؤيته واللقاء به...

من
أجل
ايمان
جاد

عنوان الكتاب بالايطالية:

Carlo M. Martini
Il caso serio della fede

العنوان بحسب الترجمة الفرنسية:

Carlo M. Martini
Le sérieux de la foi
(Croire selon Saint Jean)
Traduit de l'italien
Par Gabriel Ispérian
Editions Saint-Augustin, 2004

الكردينال كارلو ماريا مارتيني

من أجل ايمان جاد

الإيمان بحسب القديس يوحنا

ترجمة

الأب ألبير أبونا

منشورات
مركز الدراسات الكتابية
الموصل-العراق
٢٠٠٨

في تقديمه رسوم فرانشيسكا كيرييه (N. Ed. Mame 1988) -وقد جسّدت أبرز مشاهد انجيل يوحنا- كتب بيير ايمانوئيل بان الفن الديني لا يمكنه الا ان يكون "صورياً"، كونه يحكي حدثاً أبدياً فريداً، مما يحمل الفنان على أن يغرف من عمق ايمانه ...

وهكذا، عبر لوحات جمعت بين البعدين الروحي والفني، أجادت فرانشيسكا في اضفاء لغة الفن الرمزية على لغة الانجيل اللاهوتية؛ واخترنا منها ما يصوّر المحطات الكبرى التي توقف عندها متأملاً الكردينال كارلو م. مارتيني.

كلمة الناشر

ببالغ الفرح تلقت دار بيبليا للنشر هذا الكتاب الثمين للكردينال كارلو ماريّا مارتيني الذي نقله الى العربية، عن الترجمة الفرنسية (٢٠٠٤)، الأب البير أبونا صاحب المؤلفات والترجمات العديدة، وقد أبى إلا أن يتحف قراء العربية به.

"من أجل ايمان جاد / الايمان بحسب القديس يوحنا" كان أصلاً رياضة روحية للكهنة تحولت الى "قراءة ربية" في انجيل يوحنا، قراءة قرن فيها الكردينال الإيطالي الشهير كارلو مارتيني قدرته العلمية الرصينة في التفسير بموهبته الراعوية الفريدة في حمل السامع، ومن ثم القارئ، على الغوص في غمار النصوص —والنصوص اليوحنانية تشد الى الواقع بقدر ما تحلّق في اجواء اللاهوت!

لقد شاءه مؤلّفه "تأملات" في الانجيل الرابع، بدءاً بمقدمته اللاهوتية العميقة، بوجهيها الشعري والنثري، في مجد "الكلمة" الذي كان منذ البدء، والذي، في ملء الزمن، صار "بشراً سكن بيننا"، وصولاً الى مجد القائم من بين الاموات، مروراً بمشاهد مختارة من انجيل يوحنا. فاذا برّز الكتاب وجه يسوع الناصري في عمق انسانيته، الا انه كشف بالتالي عن كونه كلمة الله المتجسد الذي، وهو في حضن الآب، أرانا وجه إله كله حب وقرب وحميمية.

الا ان الهدف العميق الذي توخاه مارتيني، هو انه دعانا الى ايمان جاد يستند على خبرة ايمان الانجيلي وجماعته —ومن هنا كان عنوانه الفرعي "الإيمان بحسب القديس يوحنا"- ايمان يجعلنا نأخذ كلمات يسوع على محمل الجد، لنحيا منها ونتغذى بها ونشهد لها...

أليس جوهر انجيل يوحنا برمته يكمن في ان نؤمن ونحب؟! فالى ايمان جاد من وزن ايمان الجماعة اليوحنانية يدعونا الانجيلي الرابع... والى مثل هذا الايمان يدلّنا مارتيني عبر تأملاته في هذا الانجيل.

والكتاب الذي نزفه، مع بدء العام الجديد —ويحمل الرقم ١٢ في سلسلة "أبحاث كتابية"- هو دعوة الى الكهنة والمؤمنين للتحلي بايمان جاد، في عالم ينتظر منهم مزيداً من الجدية في عيشه والشهادة له.

وفي الختام يطيب لمركز الدراسات الكتابية أن يرفع إلى الآنسة سحر سالم لبّو أعمق الشكر والامتنان لجهودها الحثيثة في نقل مسوّدة الكتاب المخطوطة إلى الحاسوب وتنسيقه واخراجه بهذا الشكر الرائع.

الموصل في ١٩ كانون الاول ٢٠٠٧

دار بيبليا للنشر

مقدمة المترجم

هذا كتاب آخر انتجه يراع الكردينال العظيم كارلو ماريا مارتيني، وبه يرمي إلى ادخال المؤمنين إلى روحانية الإنجيل الرابع، ليطلّعوا على الكنوز النفيسة التي يتضمنها هذا الإنجيل الذي جاء تعبيراً عميقاً عن العلاقة الحميمة التي كانت بين كاتب الإنجيل الرابع –ومن المعتقد أنه يوحنا الرسول الحبيب- وبين الرب يسوع الذي كشف له عن أوجه عديدة من سرّه الإلهي، وساعده لكي يعبّر عنه بألفاظ تنقلنا إلى عالم الله...

وبالرغم مما أصاب نظري من الوهن في هذه الفترة الأخيرة، أبيت إلا أن أنقل إلى العربية هذا السفر النفيس الذي لا شك أنه سيساعد الكهنة -إذ وضع الكتاب على شكل رياضة روحية للكهنة والمؤمنين؛ ويوفّر للجميع وسيلة جيدة ليحيوا هذه الروحانية السامية التي يكتشفونها في الإنجيل الرابع، فتتبيّن لهم للارصانة إيمانهم لله الذي يرتكز على المسيح المخلص وعلى المحبة اللامتناهية التي حملها لكل واحد منّا، والتي أظهرها بجلاء في حياته وأعماله، وفي أقواله وأعاجيبه... فلن يبقى هذا الإيمان من بعد مجرّد إقرار بحقائق ثابتة، بل يصبح ذاك النور المنعش الذي يتسرب في حياتنا ويتغلغل في جميع مطاويها، ليُنير كل شيء فينا، بل ليجعلنا للانوراً لله كما أراد الرب، النور الذي يضيء في ظلمات هذا العالم، وينشر الفرح والسلام والرجاء والتفاؤل في كل مكان.

لعلّ هذه الترجمة تجد موقعها بين المنشورات البيبلية التي يقوم بإصدارها مركز الدراسات الكتابية في كنيسة مار توما في الموصل، تحت إشراف الأب بيوس عفاص؛ فيملأ هذا الكتاب فراغاً علمياً وروحياً يشعر به قرّاؤنا الكرام. ولا يسعني هنا إلا أن أقدّم خالص شكري الأخوي للأب بيوس عفاص والعاملين معه في خدمة الكلمة على ما يقدّمونه للمؤمنين من خلال منشورات الكتاب المقدس. وأتمنى لهم نشاطاً متواصلاً وفائدة للجميع.

بغداد ٢٦ تشرين الثاني ٢٠٠٦

عيد يسوع الملك

الأب ألبير أبونا

مقدمة المؤلف

لقد اعتدنا على اعتبار الرياضة الروحية بمثابة سلسلة مواعظ أو بمثابة خدمة الكلمة... إنها في الواقع خدمة الروح القدس، كما يحدّدها أحد الاختصاصيين الكبار، الأب اليسوعي فرنشيسكو روسي دي غَسبريس، لأنها تدعونا لكي نصلي مع نص كتابي، وتترك الروح يقودنا إلى لقاء جديد مع الرب يسوع ويصوغنا حسب قلبه. ان هذا لحدث شخصي ومسيرة لا يستطيع أن يحققها أحد عوضاً عن آخر.

وبعد تفكير طويل، قررتُ ان اقترح عليكم "قراءة ربية" للإنجيل الرابع، وكنتُ قد اتخذته سنة ١٩٧٤ موضوعاً لاحدى الرياضات. ومنذ ذلك الوقت، لم أتجرأ على مجابهته بكامله، لأنه صعب، وهو يستحوذ علينا ويجرفنا ويقطع أنفاسنا. ولكني شعرتُ بنداء داخلي يدعوني إلى أن أعود فأقرأه من جديد بشكل تأملات. انه في الوقت ذاته إنجيل ضخم، وسنرى أنه يتضمن أربعة أقسام: "المقدمة" (من الفصل ١-٢: ١١)؛ والكتاب الذي يُدعى كتاب "الآيات" (من ٢: ١٢ إلى ١٢ كله)، وكتاب "الكشف" (الفصول ١٢-١٧)، وكتاب "المجد" (الفصول ١٨-٢١).

ولتقدُّم حياتنا الروحية، قد يكون من المفيد أن نشير في إنجيل يوحنا إلى أربع مراحل من خبرة يسوع، لكي ندخل إلى دينامية الخلاص المأساوية؛ ومن خلال مسيرة مطهِّرة، نذهب إلى الحب الحقيقي المجرَّد.

في بادئ الأمر –انطلاقاً من يوحنا ١: ١٩ حتى ٤: ٥٤– نرى يسوع يعي ذاته ورسالته، بفضل يوحنا المعمذان الذي يبدو وكأنه يزجّه في رسالته؛ كما بفضل لقاءاته بالتلاميذ الأوائل، وبنيقوديمس، وبالعائلة الصغيرة في قانا الجليل، وبالسامرية. بالإضافة إلى ذلك، نراه يختبر سلطته النبوية حينما يطرد الباعة من الهيكل، ويكتشف قدرته على صنع الأعاجيب حينما يشفي خادم قائد المئة. إنها الوجهة الكنائسية والاجتماعية، وهي تشبه بالضبط الوجهة التي فيها يعي الكاهن ذاته ورسالته.

ويبدأ الزمن الثاني بشفاء المقعد (يوحنا ٥: ١+) وتنتهي بالفصل الحادي عشر. ويجد يسوع أنه يقوم بدوره في الحياة حينما يكمل خدمته. انه يحتك مع مقاومة تنتظم أكثر فأكثر وتظهر عدوانيتها. وهو يعي أن حياته تتعرض لخطر جسيم فيما يتعلق بحقيقة الله وبرفض الناس لهذه الحقيقة. ونلقى الرفض الأول لهذا الكشف في يوحنا ٥: ١–٤٧، والثاني في يوحنا ٦: ١–٧٠ (كثير من التلاميذ تركوه)، والثالث في يوحنا ٧: ١–١٠، ٢١، والرابع في يوحنا ١٠: ٢٢–١١: ٥٤. وخلال عيد التجديد، اتخذ قرار بقتله: "فعزموا منذ ذلك اليوم على قتله" (١١: ٥٣)، بينما كان عيد الفصح وشيكاً. انها وجهة النضج الوجودي واللاهوتي الذي يدعونا للتحقق الرصين من استقبالنا كلمة الله، وإلى القيام بحياتنا في الخدمة بحسب حقيقة الله.

أما الزمن الثالث (١١: ٥٥–١٧: ٢٦)، فهو ذو بُعد أخروي. ذلك أن يسوع يرى بكل وضوح قرب موته، ويتهيأ لمجابهته بقلب حرّ، خلال الفصح الأخير، والذي فيه تمت الخيانة. أما نحن، فاننا مدعوون لكي نستودع حريتنا بين يدي الله، بثقة ومحبة.

أخيراً، يُعلن يسوع مجدَ الله: ويفعل ذلك، وبشكل تام، عبر قبوله الاهانة وقيامته (١٨: ١–٢١، ٢٥). انها لحظة ثالوثية ومسكونية، لأن يسوع يكشف فيها عن ذاته كونه وحي الآب الكامل، الذي يمدّ عمله على الكون كله. "تمَّ كل شيء" (١٩: ٣٠)؛ "السلام معكم" (٢٠: ١٩). وسنتوصل إلى أن نُطَمئن قلبنا حينما نستسلم إلى تصميم الله في حياتنا وموتنا، وفي الكنيسة وفي العالم.

واقترح عليكم أن تقرأوا هذا النص قراءة كاملة ومتواصلة حتى وإن كانت سريعة: نحن نعرفه، لا سيما من خلال المقاطع التي تعرضها علينا الليتورجيا، ولكننا نادراً ما نجد الوقت لكي نتذوق عذوبة وحدته الخارقة وبساطته وطابعه القاطع وفاعليته.

لكي تأتي الرياضة بثمار

اني أذكّر ببعض مواقف شخصية ستساعدنا لكي نصغي إلى الكلمة ونجيب إلى صوت الرب بنعمة الروح.

ومن المهم جداً أولاً أن نخلق مناخاً من الصمت والهدوء والاختلاء.

ولنعلم أيضاً أن نفرض على ذاتنا ضوابط لأوقات الصلاة.

ويتعلق الأمر بأن نتدبر المسافة التي سنخصصها بصلاة عقلية، صامتة، مكثّفة. وهذا أمر أساسي للرياضة حيث تخاطبنا كلمة الله وتنزل إلى أعماق قلبنا. لا شك أن الروح يستطيع الدخول فينا حينما يشاء، ولكنه يدخل بنوع خاص متى يجد أبواب قلبنا وعقلنا مفتوحة له على مصاريعها.

وتقتضي الصلاة أيضاً العناية التي نبذلها في موقف الجسد: موقف الاحترام والتوزان الباطني.

ما الهدف من الرياضة؟

حينما نبدأ بالرياضة، يترتب علينا أن نتساءَل: ماذا أريد أن أجني من هذه أيام الصمت والصلاة والتأمل؟ ويعود هذا السؤال كل سنة، لأن كل رياضة تختلف عن غيرها من الرياضات السابقة –فكل منّا يدخل إلى الرياضة بخبرة خاصة، وبقصة، ورغبات، ومتاعب. فكيف نرجو الخروج منها؟ وماذا أتمنى أن أحصل منها؟

❁ إن الهدف الأول، لا بل الهدف الأساسي، أوضحه لنا القديس اغناطيوس دي لويولا في "تمارينه الروحية": ان أضع النظام، في حياتي الخاصة، موجّهاً اياها حسب إرادة الله، وذلك بفضل خيارات مهمة وحاسمة. وبهذا المعنى، لا تُجرى "التمارين" إلا مرة واحدة في الحياة.

ومع ذلك نشعر بحاجة إلى التأكيد على اختيارنا، وان نَضع شيئاً من النظام في مسيرتنا. ونلاحظ، خلال السنين، ان الأمر لا يتوقف على أننا اتخذنا قراراً فحسب، بل أن نحيا هذا القرار، وفق ما يمنحنا الرب أن نراه وأن نريده، مع نقائصنا، ومواهبنا، واتعابنا واخفاقاتنا. عليَّ، إذن، أن أتصالح مع ما يريد الله مني أن أكون في الواقع. فالقيام برياضة يعني بالضبط أن نتصالح مع إرادة الله التي أكتشفها شيئاً فشيئاً في حياتي (في صحتي الجسدية،

في مصائبي، وفي أفراحي وشدائدي، في المنظورات الجديدة التي تلوح لي)؛ كما أني أتعرّف أيضاً إلى هذه الإرادة بمناسبة تغييرات مهمة: رسالة جديدة أضطلع بها، الساعة الصعبة التي يتوجب فيها أن أستقيل وأتخلى عن مهمّة بسبب العمر.

أين يترتب عليَّ أن أضع النظام؟

❁ الهدف الأول من الرياضة هو البحث عن إرادة الله وقبولها، والمصالحة مع ذاتي، ومع بيئتي، ومع جميع الذين التقيهم.

❁ والهدف الثاني، المرتبط بالسابق، هو أن أمارس، بمزيد من الكثافة، إيماني ومحبتي ورجائي، لا سيما في نطاق الصلاة والتأمل. وهذا يعوّض عن تعثّر الحديث مع الرب يسوع، وهو أمر يَسِمُ غالباً، للأسف، حياتنا اليومية، وذلك بسبب الالتزامات العديدة والأحداث غير المتوقعة. فالرياضة تمنحنا النعمة لنستطيع السهر طويلاً، والمكوث في الصلاة، عبر الإصغاء إلى الكلمة. حتى وإن لم يكن الدافع بالضرورة تَلَقّي إيحاءات عظيمة، أو تعزيات خاصة في القلب أو العقل، إذ من المهم جداً أن نعرف البقاء، بنوع مجاني محض، أمام الله الذي هو مصدر التعزية للحياة.

❁ الهدف الثالث هو أن ندع المجال لمعضلة مكبوتة في داخلنا كي تظهر للعيان. على أن تكون معضلة مهمة تؤثر فينا عاطفياً أو انفعالياً وتسبب لنا الاضطرابات، كالكراهية... إذ اننا، في غمرة الأيام والأسابيع والشهور والسنين، لم نشأ أن نواجه ذلك، فنرى الأمر بوضوح.

فالرياضة هي بالضبط الوقت المؤاتي لكي تظهر بجلاء هذه المعضلات المكبوتة، وذلك بفضل نور كلمة الله ونارها، بفضل العليقة المشتعلة.

نحن نعيش في عالم تتمازَج فيه الظلال والأنوار. وكثيراً ما تطغى الظلال على الأنوار. فما أكثر الأسئلة التي تُطرح في شأن مستقبل الكنيسة. ولكننا نعرف أن الجواب الوحيد الصحيح والجذري، لا يكون مؤقتاً ولا جزئياً. فان الدواء الواقي (الترياق) الوحيد يكمن في "مشاهدة الرب".

ونريد أن نتبع النهج الذي اقترحه البابا (يوحنا بولس الثاني) في رسالته العامة "اطلالة الألف الجديد": "اننا نتساءل بتفاؤل واثق، ومن دون أن نقلل من قيمة المعضلات. لا يسحرنا ولا شك المنظور الساذج الذي قد يتبادر إلى ذهننا، من وجود صيغة سحرية ازاء

تحديات عصرنا الكبيرة. كلا، ليس بوسع أية صيغة أن تخلصنا، وانما هو شخص، مع اليقين الذي يلهمنا إياه حين يقول: أنا معكم!

فلا يتوقف الأمر على اختراع "منهاج جديد". فالمنهاج موجود: انه منهاج كل زمان، وهو مستمَدّ من الإنجيل ومن التقليد الحي. انه يتمحور، في نهاية الأمر، على المسيح نفسه الذي يجب أن نعرفه ونحبه ونقتدي به، "لكي نحيا فيه حياة الثالوث، ولكي نغيّر معه التاريخ حتى اكتماله في أورشليم السماوية" (رقم ٢٩). هذا هو المنهاج الذي نريد أن نحاول اتباعه في هذه الصفحات.

وفي صدد الشهادة التي يجب أداؤها ليسوع، يؤكد البابا: "كم تكون فقيرة تلك الشهادة إذا لم نبدأ نحن أنفسنا أولاً بالتأمل في وجهه". ومن ثمة كان هذا الإلزام الأساسي: "لتبقَ نظرتنا، أكثر من أي وقت آخر، شاخصة إلى وجه الرب" (الرقم ١٦). ثم يضيف البابا: "لا بدَّ من أن التأمل في وجه المسيح سيُعيدنا إلى ما يقوله عنه الكتاب المقدس، هو الذي من بدئه حتى نهايته يعلن سرّه". (الرقم ١٧)، فالإصغاء المتجدد دوماً إلى كلمة الحياة، والتأمل المستمر في وجهه، بوسعهما وحدهما أن يتيحا للكنيسة من جديد لتدرك من هو الاله الحي والحقيقي، والذي هو الإنسان أيضاً.

فنحن ننوي التأمل في إنجيل يوحنا الذي يدعونا للتأمل في الكلمة المتجسد، هذا الإنجيل الذي، خلافاً للأناجيل الإزائية، يروي لنا الكثير من أعمال يسوع وخطاباته في هيكل أورشليم، أعني في القلب الثقافي والمدني والفني والديني للمدينة المقدسة.

أعطنا، يا رب، أن نتأملك مثل ذاك الذي يقدّم للمدينة كلمات الرجاء والنعمة والغفران والرحمة؛ لكن أيضاً كلمات الدينونة، والشجب القاسية، والمجبولة دوماً بحب الله العظيم للعالم.

لنستودع صلاتنا إلى شفاعة العذراء مريم التي هي أجمل مثل للإصغاء الساجد والمتأمل، وأروع مثل لذاكرة تتأمل أحداث حياة الكلمة المتجسد. لقد كانت ولا شك بجانب يوحنا حين أخذ يكتب المحاولة الأولى لنص إنجيله، وأدركت السر العميق الكامن في إنجيل يوحنا الذي –على حد تعبير أوريجانس– لا يمكن أن يفهمه إلا ذاك الذي وضع رأسه على قلب المسيح. وهكذا ستساعدنا العذراء لكي نفهم ما ينطوي عليه من غنى، ونسير بهدوء ومثابرة وشجاعة وصبر، في الإصغاء إلى يوحنا، حتى لو اضطرنا إلى معاناة بعض الصعوبات.

يوحنا الانجيلي

كيف نتأمل الإنجيل

أربعة مفاتيح للقراءة

في بادئ الأمر، لنلقِ نظرة عامة على الإنجيل الرابع، ونتساءَل ما هي مفاتيح القراءة الأكثر صلاحية للدنو من الكنز الروحي المختفي في نص إنجيل يوحنا. ها أنا أعرض أربعة مفاتيح، وكل منها من شأنه أن يدفعنا إلى إعطاء عنوان مختلف لهـــذه الصفحات: إنجيل الاكتمال، وإنجيل المِلء، وإنجيل الإيمان أو الإيمان الجاد، وإنجيل الفرح.

إنجيل الاكتمال

إن مفتاح القراءة هذا يقودنا إلى تأمل (مشاهدة) الإنجيل الرابع بصفته إنجيل الاكتمال. خلال الصوم الخمسيني لسنة ١٩٨٠، وعبر لقاءات مع الكهنة، تأملت في موضوع: "الأناجيل الأربعة ومسيرة التلميذ". وكنتُ أدعـــو إلى قراءتهـــا حســـب الترتيب التالي: نص مرقس، بمثابة إنجيل الموعوظ والتنشئة المسيحية الأولى، أو البحث الأول عن سر يسوع ابن الله؛ وبكلمة بصفته الإنجيل الذي يهيئ مرحلة العماذ. ومن ثم إنجيل متى، بمثابة إنجيل "معلم" الإيمان المسيحي، إذ يقدم المادة التي تمكّن من معرفة الكنيسة واكتشاف خبرتها الواقعية، وتمنح إدراكاً عن كيفية عيش يسوع في جماعـــة يترتب على المؤمن الاندماج فيها، بفضل القواعد الإنجيلية التي عبرت عنها الخطابات الكبرى الخمسة التي وردت في مطلعه؛ وبعبارة أخرى، إنه إنجيل المعمَّذ. أما مؤلّـــف

لوقا (الإنجيل وأعمال الرسل)، فهو بالأحرى نص المبشر والمرسَل، أعني ذاك الذي يرغب في نقل كلام يسوع إلى الآخرين، بفضل انفتاحه على العالم وعلى التاريخ والحضارات والديانات غير المسيحية. أخيراً تأتي المرحلة الأخيرة، وهي مرحلة النضج المسيحي. ان نص يوحنا هو إنجيل الاكتمال، وهو إنجيل الكاهن وكل من استطاع أن يوجزه في حياته، إذا ما أصبح قادراً أن يهتم بالآخرين. وقد يكون هذا ما دفعني داخلياً على اختيار الإنجيل الرابع لهذه الرياضة؛ ذلك اني أشعر بنوع من الحاجة إلى إعادة كل شيء إلى الأساس، إلى بضع ثوابت، قليلة، ولكنها أساسية، لكي أواجه ذاتي معها فأحقق وحدة في المسيرة المسيحية وفي الخدمة التي عليَّ أن أوديها للكنيسة، واعرضها من ثم على الآخرين. ان نص إنجيل يوحنا هو حقاً إنجيل الزواج بصفته سراً يمنح الزوجين أن يضطلعا بمسؤوليات جديدة في الكنيسة وفي المجتمع، وأن يجعلا من عائلتهما كنيسة منزلية صغيرة. ويمكننا القول ان الإنجيل الرابع يغذّي درجة النضج في الإيمان ويتيح التحقق منها. ولا يبلغ المرء هذا النضج إلا نادراً قبل الأربعين، وعديدون هم الذين لا يبلغونه إلا على عتبة الموت، حينما يستسلمون استسلاماً كلياً إلى سر الله. لكن مسيرة كل انسان هي مختلفة. لنفكر مثلاً في القديس لويس دي غتزاغا الذي بلغ سريعاً جداً إلى ملء النضج المسيحي، كما يحصل عليه كثيرون من البسطاء على درب صليبهم.

ومن ثم، أتوقف عند لفظة "**الاكتمال**" التي نلقاها في إنجيل القديس يوحنا، وقد حُدّد بنوع لا يقبل الشك بصفته إنجيل المجد.

بغد أن عهد يسوع بأمه إلى التلميذ الذي كان يحبه، وعهد بهذا التلميذ إلى مريم (يوحنا ١٩: ٢٦-٢٧)، عالماً أن كل شيء قد انتهى، فلكي يتم الكتاب، قال يسوع: "**أنا عطشان**" (آية ٢٨). ويصدي الإنجيلي لهذه الكلمة حين يضيف: "فلما تناول يسوع الخل، قال: "**تمَّ كل شيء**"، ثم حنى رأسه وأسلم الروح" (آية ٣٠).

من الجدير بالذكر أن نشير إلى هذا التشديد على موضوع الاكتمال: إذ كان يعلم، منذئذ، أن كل شيء قد انتهى، قال، لكي يتم الكتاب... وبعد أن شرب الخل، قال مرة أخرى ان كل شيء قد تمّ. فنرى ان الإنجيل الرابع يشير بشدة

إلى اكتمال كل الأشياء في الموت الذي تقبّله يسوع بمحبة، هو الذي أرسله الآب، بمحبة، إلى العالم.

إلى هذا الفعل –باليونانية (تيتلستاي) أي انتهى واكتمل؛ و(تيليوتي)، أي لكي يتم– تُضاف لفظة أخرى هي بمثابة مفتاح: "تيلوس" بمعنى النهاية. ونلقى هذه اللفظة في بدء كتاب الكشف: "قبل عيد الفصح، كان يسوع يعلم بأن قد أتت ساعة انتقاله من هذا العالم إلى أبيه، وكان قد أحبَّ خاصته الذين في العالم، فبلغ به الحب لهم إلى أقصى **حدوده** (أي حتى **النهاية**: يوحنا ١٣: ١). وهكذا أصبح لدينا الجذر نفسه كما في فعل "تمَّ، اكتمل" الوارد في الفصل التاسع عشر.

في وسعنا، إذن، أن نتأمل (نشاهد) الإنجيل الرابع بصفته إنجيل الاكتمال، وهو عنوان يذكّرنا برسالة الابن في ملئها، وفق تصميم الآب. لا شك ان الازائيين يشهدون هم أيضاً لشوق يسوع إلى القيام بمهمته كاملة. وللحال أفكّر في لوقا ١٢: ٥٠، بعد ان قال يسوع انه جاءَ ليلقي ناراً على الأرض، أكّدَ: "عليَّ أن أقبل معموذية، وما أشدَّ ضيقي حتى تتم". إلا أن نفاد الصبر المقرون بالغصة، بحسب إنجيل يوحنا، لدى يسوع الذي يتوق إلى أن يجيب بالتمام إلى تصميم الآب، يبرز بنوع خاص، ويقوم بدور المفتاح لقراءة إنجيله كله.

وهنا يُطرح سؤال: لماذا هذا الالحاح كله؟ انه الحاح يرد في مقاطع أخرى عديدة من الإنجيل الرابع. ولا أذكر هنا سوى بعض منها: يوحنا ٤: ٣٤؛ ٥: ٣٦؛ ١٧: ٢٣-٢٤. وجميع هذه الآيات تعبّر عن مدى انتباه الكلمة المتجسد إلى تحقيق تصميم الآب تحقيقاً تاماً. انظر على سبيل المثال ما جاءَ في يوحنا ٤: ٣٤: "طعامي أن أعمل بمشيئة من أرسلني وان أُتمَّ عمله".

على هذا السؤال، سنجيب حين نتأمل في مقدمة إنجيل يوحنا. وربما نفعل ذلك، يمكننا في الأقل أن نقول: إذا ألحَّ يوحنا إلى هذا الحد على هذا الوجه، فذلك لأنه ينطلق من أعمق جذور الكائن الإلهي، من سر الثالوث، لكي يتسنى لنا أن نكتشف اكتمال هذا السر في صليب يسوع وفي قيامته. فان تكميل العمل يعني الكشف عن الآب والروح. وبعبارة أخرى، يدعونا الإنجيل الرابع إلى التأمل في

مخطّط الخلاص، بكليته، حيث يكشف الله عن ذاته، بمفارقة المصلوب المنبعث. وحين يشير يوحنا إلى جذور هذا التصميم ونتائجه الأخيرة، فهو إنما يحثّنا على ان نتساءَل عن دعوتنا: كيف نجعل حياتنا مكتملة؟ من أي جذور ننطلق وإلى أين نشخّص نظرتنا؟

إنجيل المِلء

المفتاح الثاني للقراءة، قريب من السابق، ولكن يجب تمييزه عنه. انه يتيح لنا أن نحدّد نص يوحنا بصفته إنجيل المِلء.

إن اللفظة اليونانية هي (بلِيرو): وهي تسلّط الأضواء على جوانب أخرى من مسيرة التلميذ. وبينما تشير لفظة "تيلوس" إلى الزمان، تعيدنا لفظة (بليرو) إلى الكمية، إلى مِلء ينصبّ بالتالي بغزارة على البشرية.

في هذا الصدد، أعيد قراءة بضع آيات في آلام يسوع، حيث نرى أن الكتاب المقدس قد تحقق في ملئه.

مات يسوع بعد أن قال "لقد تم كل شيء"؛ ثم طُعن جنبه بحربة، فيما ساقاه لم تُكسرا! "هذا كله صار لكي يتم –في اليونانية بليروتي- الكتاب": أعني لكي تتحقق صحة الكتاب كاملة: "لن يُكسَرَ فيه عظم". وهناك مقطع آخر من الكتاب المقدس يقول أيضاً: "سينظرون إلى الذي طعنوا" (١٩: ٣٧). ذلك ان تحقيق تصميم الله –الذي تعبّر عنه لفظة (تيلوس)- يمكن أن يُعتَبر أيضاً مثل مِلء (بليرو) يتدفق طبقاً للكتاب المقدس، بفضل مبادرة حب يسوع الأقصى: الموت الذي منه تتفجّر الحياة.

في الفصل ١٩: ٢٤، حيث يتكلم يوحنا عن ثياب يسوع الّتي يتقاسمها الجنود، يعلّق الإنجيلي على ذلك ويقول: "هكذا تمت الآية: اقتسموا ثيابي، وعلى لباسي اقترعوا".

وهكذا في الفصل ١٨: ٩ حين توجه يسوع إلى الحرس قائلاً: "إذا كنتم تطلبوني أنا، فدَعوا هؤلاء يذهبون". وهكذا كان ينبغي أن تتم الكلمة الّتي قالها

يسوع: "ان الذين وهبتهم لي، لم أدَعْ أحداً منهم يهلك". فكلمات الكتاب وكلمات يسوع يجب ان تتحقق في ملئها.

إن هذا كله قريب جداً مما قيل عن الاكتمال، ولكننا نلاحظ اختلافاً إذا ما ذهبنا إلى ما وراء اكتمالات الكتاب المقدس، بحثاً عن معانٍ أخرى لموضوع المِلء. ينتقل بي الفكر إلى آيتين من المقدمة تبدوان أساسيتين لفهم يوحنا جيداً. يذكر الإنجيلي ويعلن ما تلقيناه من المِلء الوضّاء للكلمة، الابن المتجسد: "والكلمة صار بشراً، وسكن بيننا، فرأينا مجده، مجداً من لدن الآب لابن وحيد، ملؤه النعمة والحق" (١: ١٤). وفي الآية ١٦: "ومن ملئه نلنا بأجمعنا...". هكذا تُقدَّم لنا صورة الكلمة ومجده، "الممتلئ نعمة وحقاً". وهكذا منذ البدء، يظهر يسوع في مِلئه، ويميل الإنجيل الرابع كله إلى إظهار هذا الملء حتى النهاية، على الصليب.

يحب يوحنا ولا شك موضوع الملء الكمّي للقدح المملوء حتى الطفح، إذ يتيح له أن يشرح عمل يسوع بصورة متكاملة.

إنجيل الإيمان الجاد

عندما فكرت طويلاً في هذا النص، راودني مفتاح آخر للقراءة: مفتاح يتيح لنا أن ندخل إلى ما يمكن أن ندعوه إنجيل الإيمان الجاد؛ أي الإنجيل الذي بوسعه أن يجعلنا نتخّذ موقفاً واضحاً تجاه الكلمة المتجسد. يكفينا أن نتذكر يوحنا ٢٠: ٣٠-٣١: "وأتى يسوع أمام التلاميذ بآيات أخرى كثيرة لم تُكتب في هذا الكتاب، وإنما كُتبت هذه لتؤمنوا بأن يسوع هو المسيح ابن الله، ولتكون لكم إذا آمنتم الحياة باسمه".

إن يوحنا يعيدنا إلى إيمان كامل، متحقق، وليس إلى إيمان جنيني أو ناشئ. انه يفكر في إيمان ثابت، وموطَّد، ومتطلب، كالذي تكلم عنه يسوع إذ وجه كلامه إلى توما الذي لم يتمالك من أن يصرخ: "ربي وإلهي"، مضيفاً: "لأنك رأيتني آمنت، طوبى للذين يؤمنون ولم يروا" (٢٠: ٢٨-٢٩). انه إيمان بالغ يعرف أن يستغني عن آيات ملموسة، ويضع المؤمن بين يدي الله لا غير، وبصورة عمياء.

في مجمع كفرناحوم، يسأل الجمع يسوع ويقول له: "ماذا نعمل لنقوم بأعمال الله؟" فيلقى هذا الجواب: "عمل الله أن تؤمنوا بمن أرسل" (٦: ٢٨-٢٩). انه جواب يتعلق بالمسيحي البالغ حقاً. أما المسيحي الذي ما يزال في بدء مسيرته الإيمانية، فيناسبه الجواب المعطى للشاب الغني: "إذا أردت دخول الحياة، فاحفظ الوصايا" (متى ١٩: ١٧).

يترك إنجيل يوحنا جانباً كل شيء آخر، لكي يركز على نقطتين أساسيتين: الإيمان والحب. وهذا التركيز نموذجي للجماعة المسيحية التي في حضنها كُتب هذا النص. إنها جماعة قليلة العدد وهامشية بالنسبة إلى الثقافة السائدة في ذلك العصر، تلك الثقافة الوثنية التي كانت فريسة للشك والتهكم، وفي كل شيء. فهذه الجماعة الصغيرة والهامشية تشعر انها مدفوعة إلى البحث عن الأساسي: ماذا يعني أن نؤمن وأن نحب؟

ونحن أيضاً، إلى حدّ ما، ملتزمون بالتفكير حول جدّية الإيمان والمحبة؛ تفكير يعكف عليه بعمق أولئك الذين يكرسون ذواتهم لحياة نسكية ورهبانية وزهدية. لنفكر كيف أن تيريز الطفل يسوع استشفّت الإيمان والمحبة وعاشتهما، بما فيهما من الأساسي، وكيف أدركت الترعة العصرية وعلاقتها بالمسيحية. لقد عرفت ما في محنة الإيمان من جانب مأسوي، محنة من يُراهن وجوده على الإيمان، ومن يخصص حياته من أجل الإنجيل.

أنْ يوجَز كل شيء في الايمان والمحبة، فتلك ميزة الإنجيل الرابع الذي، بنوع عام، لا يذكر أية وصية أخرى، ولا أية فضيلة أخرى، بل يؤكد بقوة، في كتاب الآيات، على ضرورة الإيمان؛ وفي كتاب الوحي وانطلاقاً منه، على ضرورة المحبة.

إن هذا الانتباه الموجّه إلى الإيمان يؤثر فيَّ تأثيراً خاصاً. وحينما أمعن النظر في هذا الأمر، أتساءَل كيف يتكلم يوحنا غالباً عن فعل الإيمان، وليس عن الإيمان، خلافاً للقديس بولس والنصوص الأخرى من العهد الجديد. لماذا يا ترى يستخدم فعل "آمنَ" ولا يستخدم أبداً عبارة "الإيمان" (بيستيس)؟ لا شك أن السبب هو الآتي: بما أن الأمر يتوقف، لديه، على عنصر رصين وخطير، أكثر مما على تنظير

حول الإيمان، فهو يفضّل اقتراح سبل لفعل الإيمان، مع الأنوار والأتعاب والمساعي التي ترافقه. فما هي السبل والمراحل وسلّم التقدم لفعل إيمان حقيقي، بالغ وكامل؟ سنكتشف ذلك في مشهد نيقوديمس، وفي اللقاء مع السامرية. في يوحنا ٤: ٤٨، حيث ذكرت آية يسوع الثانية في قانا، يتقدم قائد مئة ويلتمس من يسوع أن يذهب إلى داره ليشفي ابنه، أو خادمه؛ وكان الجواب حيوياً، إذ قال يسوع: "إذا لم تروا الآيات والأعاجيب لا تؤمنون". وليس هذا بالضرورة توبيخاً؛ إذ يمكن تفسير هذا الكلام بهذا السؤال: هل لك الثقة؟ هل أنت قادر أن تؤمن بدون اللجوء إلى آيات وإلى براهين ملموسة، بحيث تثق بي وبكلامي؟ ما أكثر الناس الذين يذهبون إلى البحث الحثيث عن آيات: لنفكر في كثرة الحج إلى أماكن الظهورات والرؤى الخ... فمن يبحث عن آيات، إنما هو في بدء الإيمان. ولقد صنع يسوع نفسه أعاجيب، عارفاً أن الناس يريدون أن يروا ويلمسوا ويشعروا.

لكن الإنجيل الرابع يدعونا إلى الذهاب إلى ابعد. انه يقدم لنا الإيمان الجاد، في عريه وبساطته. وأود أن نحتفظ، في تأملاتنا، بهذا المفتاح للقراءة، مع مفاتيح الاكتمال والملِء.

إنجيل الفرح

يقودنا المفتاح الرابع للقراءة إلى التأمل في النص بصفته إنجيل **الفرح** الذي هو ثمرة النضج المسيحي.

في "كتاب الكشف"، نجد آيتين تحملان معاني كبيرة:

يوحنا ١٥: ١١ أولاً: يسوع، بعد الخطاب الذي تلا العشاء الأخير، يختتم صورة الكرمة والأغصان بكلمة مدهشة: "قلتُ لكم هذه الأشياء ليكون بكم فرحي، فيكون فرحكم تاماً". لنلاحظ ما يربط هذا النص بنص آخر ليوحنا (٢٠: ٣١): "إنما كُتبت هذه لتؤمنوا بأن يسوع هو المسيح ابن الله، ولتكون لكم إذا آمنتم الحياة باسمه".

وفي الخطاب ذاته، نجد آية ذات معنى حاسم: "حتى الآن لم تسألوا شيئاً باسمي. اسألوا تنالوا، فيكون فرحكم تاماً" (١٦: ٢٤). ان الفرح التام، لا بل أوج

الفرح هو، بدون أي شك، أحد أهداف الإنجيل الرابع، وميزة الجماعة المسيحية.

وأذكّر أيضاً بمقطعين، نجدهما في الرسائل المنسوبة إلى يوحنا.

مع أن عدداً كبيراً من مفسّري الكتاب المقدس يظنون أن هذه الرسائل ليست لمؤلف الإنجيل نفسه، إلاّ انهم يعترفون بأنها تساعد للدخول إلى معرفة فضلى للنص اليوحناوي.

١ يوحنا ١: ٤ "اننا نكتب إليكم بذلك ليكون فرحنا تاماً".

وهناك تذكير آخر بملء الفرح نجده في ٢ يو ١: ١٢: "عندي أشياء كثيرة أكتب بها إليكم، فما أردتُ أن أجعلها ورقاً وحِبراً، لكني أرجو أن آتيكم فأشافهكم، ليكون فرحنا تاماً".

إن الفرح هو بمثابة ملءَ يسوع الذي يحقق الكتب المقدسة، ويحقق تصميم الآب، هو الذي يصبح ملئاً فينا، عاملاً في عمق ضمير المسيحي ذي الإيمان البالغ.

أسئلة للتأمل في الصلاة

المفاتيح الأربعة للقراءة التي تساعدنا لكي ندنو من إنجيل القديس يوحنا، تلهمنا أربعة أسئلة.

١. ماذا ينقص نضجي المسيحي لكي يتحقق؟

لا أستطيع إطالة الحديث عن الميزات الخاصة بالنضج. ولكني أرغب في إطلاعكم، بطريقة أكثر بساطة، على حدس أو نوع من الاستنارة الباطنية التي حظيت بها خلال شهر أيار سنة ٢٠٠١، في كنيسة القديس بطرس، خلال الاحتفال الافخارستي المشترك لجميع أساقفة إيطاليا. كنت أتأمل الأبعاد المتناسقة والتناغم الخارق لأقواس البازيليكا وقببها، وتساءلت: بماذا يمكننا أن نشبّه نضجَ المسيحي، وهو مسيرة إيمان في ملئها؟ وبدا لي ان بوسع هذا النضج —بين ميزات أخرى– أن يُشبَّه بتوازن يتحقق بفضل تكامل متناغم بين أربع بيئات من الوجود المسيحي تنمو فينا، ولكن بحسب مقياس مختلف، وبدرجة متفاوتة من الاندماج.

الوسط الانتروبولوجي (الانساني) أي مفهوم حقيقي للإنسان وطريقة في العيش؛ توازن بين الجسد والروح، بين الأهواء والانفعالات والعقلانية. انه توازن يتعلق بالشخص كله: بجسده، وروحه، وثقافته، وعلاقاته.

الوسط اللاهوتي والكريستولوجي الذي يؤكد على أولوية الله ونعمة المسيح المخلص، وهو مرتبط بالوسط السابق. وفي الواقع، بوسع انتروبولوجية سليمة أن تؤوّل ما يعيشه الانسان في المستوى الانفعالي على أرضية أولوية الله والمسيح والنعمة. وان حركة "الجيل الجديد" *(New Age)* ذاتها تبحث عن انتروبولوجية مناسبة؛ ولكن حين تدع انتروبولوجيا حقيقية المكان لأولوية الثالوث ويسوع والنعمة، فتكون حينذاك من قبيل نضج ليس انسانياً فحسب، بل مسيحياً.

وفي سبيل تحديد النضج المسيحي بمزيد من الملء، وحتى النهاية، كما يقول يوحنا، لاحظت ضرورة وجود وسط ثالث: **الوسط الإنجيلي**، هو وسط الحب الجنوني. ولا يكفي التوازن بين الحقائق الإلهية والبشرية؛ فثمة ضرورة لشكل من عدم التوازن، هو الخروج عن الذات. لقد حدد يسوع الوسط الإنجيلي بعبارات قوية وحاسمة: ألاّ يحب الإنسان ذاته، أن يغفر سبعين مرة سبع مرات، أن يبيع كل ما له. ويمكننا أن نقول أنه وسط يسود فيه الإفراط، حيث يشعر المرء انه مدفوع إلى اتباع يسوع باتجاه الإفراط، وإلى حب الله، باتجاه سر الثالوث، الذي هو نار مشتعلة ومحرقة، وعطاء ذات مطلق. وهكذا ينفتح النضج المسيحي على نوع من الحدس التماثلي مع سر الاقانيم الإلهية الثلاثة.

الا ان هذه الأوساط الثلاثة يجب أن تُعاش وتتحد وتندمج في **وسط كنسي**. فنحن لا نحيا حياة منعزلة، وفي المبهم، بل داخل شبكة من العلاقات التاريخية تربطنا بالكنيسة المنظورة، بتقليدها وسلطتها، بقانون إيمانها وشرائعها.

وهذا كله يُدعى "اكتمالاً": حين نستشف اننا، بموهبة من الله، اكتسبنا نضجاً، بفضل التوازن الحي بين هذه الأوساط الأربعة. وهذا يتطلب جهداً وتطهيراً، وينشئ التعب والشدَّة والآلام... الا ان الرب نفسه هو العامل فينا. وأودّ أن أوضح أمراً: كل من هذه الأوساط، إذا تُرك وحده، قد يقود إلى مواقف

قصوى؛ ولكن إذا عشناها برمتها، فإنها تقودنا إلى هذا الملء، وإلى هذا الاكتمال الذي يكلمنا عنه إنجيل يوحنا.

ولكن ماذا من لفظة (تيلوس)، ومن انشدادي إلى النهاية؟

تلك دعوة إلى التساؤل، وإلى الصلاة، وإلى الالتماس من الرب أن يكشف لنا في أية نقطة من النهاية نحن في مسيرتنا؛ أو الأفضل ان نسأله أن يسجّلنا في هذه المسيرة نحو الملِء، بحيث يتم فينا تصميم الله كاملاً، ويتم الكتاب المقدس في كل منّا، نحن المدعوين لنضج على شبه يسوع، أعني أن نتيح للكتب المقدسة كي تخطّ طريقها في حياتنا.

٢. يلهمنا المفتاح الثاني للقراءة هذا السؤال: ماذا ينقصني للبلوغ إلى الملء؟

لقد رأينا أن ثمة فارقاً دقيقاً واختلافاً طفيفاً بين الاكتمال والملء. فالاكتمال يطرح علينا السؤال حول نضجنا المسيحي؛ أما الملء، فيطرح أسئلة بشأن عاطفتنا التي يمكن التعبير عنها بالحب المجاني؛ وبشأن عقلنا الذي يعبَّر عنه بمعرفة تتعدى النظرة البسيطة أو الاستنتاج؛ كما بشأن أفعالنا حين نعمل الخير لأنه الخير، بالرغم مما يمكننا الشعور به أو ملاحظته. إننا بازاء ملء القلب والعقل والأيدي.

هل نحيا الحب المجاني؟

هل نحن قادرون أن نحكم حكماً موضوعياً، وأن نكون أحراراً تجاه آراء الصحف، والنجوم، ومغالطات الفلسفات الباطلة؟ وهل نبحث دوماً عما يقنعنا بعمق؟ ذلك أن التقدم نحو الملء ليس أمراً سهلاً. فكثيرون لا يبلغون إليه، لأنهم يفضلون العواطف والمفاهيم التي تعلموها بنوع سطحي وعاجل، من دون هضم.

هل نعمل الخير لأنه خير، بغضّ النظر عن ذوقنا وراحتنا ولذّتنا.

٣. المفتاح الثالث للقراءة يدعونا إلى أن نطرح على ذاتنا هذا السؤال الواضح جداً: ما هو فعل إيماني؟

لا شك ان بوسع الإيمان أن ينمو مع سنوات الخدمة الكهنوتية. وكذا الشأن مع الملل، والشعور بالخيبة حينما نكون قد كررنا الأشياء نفسها دون الحصول على

ثمرة: هذا كله بوسعه أن يُنشئ فينا فكرة تحملنا على التساؤل: لو كان الله موجوداً، فقد تخلّى عنا. وهذه تجربة خطرة جداً، وهي محنة الإيمان التي يتعرض لها الكاهن، كي يصبح إيمانه كاملاً، فيتسنى له من ثم، بفضل هذا التطهير الباطني، أن يتبع الطريق الذي يعرضه له الإنجيل الرابع.

٤. ليس السؤال الرابع أقلَّ نفاذاً، ولكنه أسهل للفهم. كيف أعيش مِلءَ الفرح الذي وَعدَ به يسوع (راجع يوحنا ١٥: ١١ ؛ ١٦: ٢٤)؟ كيف أشعر في داخلي بملء الفرح، وما هي أشكال الملل والضباب والسحب التي تعتّم عليه في عمق قلبنا، هذا الفرح الذي وُضع فينا عند عماذنا وقبولنا الأسرار وتلقينا المحبة التي كنا موضوعها. ماذا يمنع هذا الفرح العميق من أن يَرنَّ في حياتي؟ وكيف يمكن أن يعبَّر عن هذا الفرح بالرغم من الظلمات والمحن؟ قد لا نلاحظ هذا الفرح الذي هو ملء يسوع، ويترتب علينا من ثم أن نكتشفه من جديد ونوقظه —إذا جاز التعبير– من النوم الذي يكتنفنا أحياناً، إذ ان هذا الفرح نعمة.

وسيكون من الخطأ إذا ما أحجمنا عن طرح هذه الأسئلة على ذواتنا، خشية أن نكتشف تقاعسنا وابتعادنا عن السير في خطى يسوع. وبقدر ما نشعر اننا بعيدون عن المثل الأعلى لهذا النضج الذي يلمح إليه إنجيل يوحنا، بقدر ذلك يحثنا الرب على الدخول في هذه اللعبة الصعبة التي هي المغامرة المسيحية. فنحن بالحقيقة تحفة رائعة أبدعها الله، وليست حتماً تحفة المهارة البشرية، بل تحفة الرحمة والغفران والحب الإلهي. وهنا هو يسوع الذي، بصورة خاصة، من أعلى الصليب، يكمل عمله؛ وليس من العبث أنه حينما شرب الخل —وهي المرارة القصوى التي نقدّمها له– صرخ "لقد تمَّ كل شيء!": لك، ولأجل خلاصك، عملت كل ما استطعت عمله. فإذا قبلت باليد التي أمدّها لك من أعلى الصليب، كان لك الخلاص!

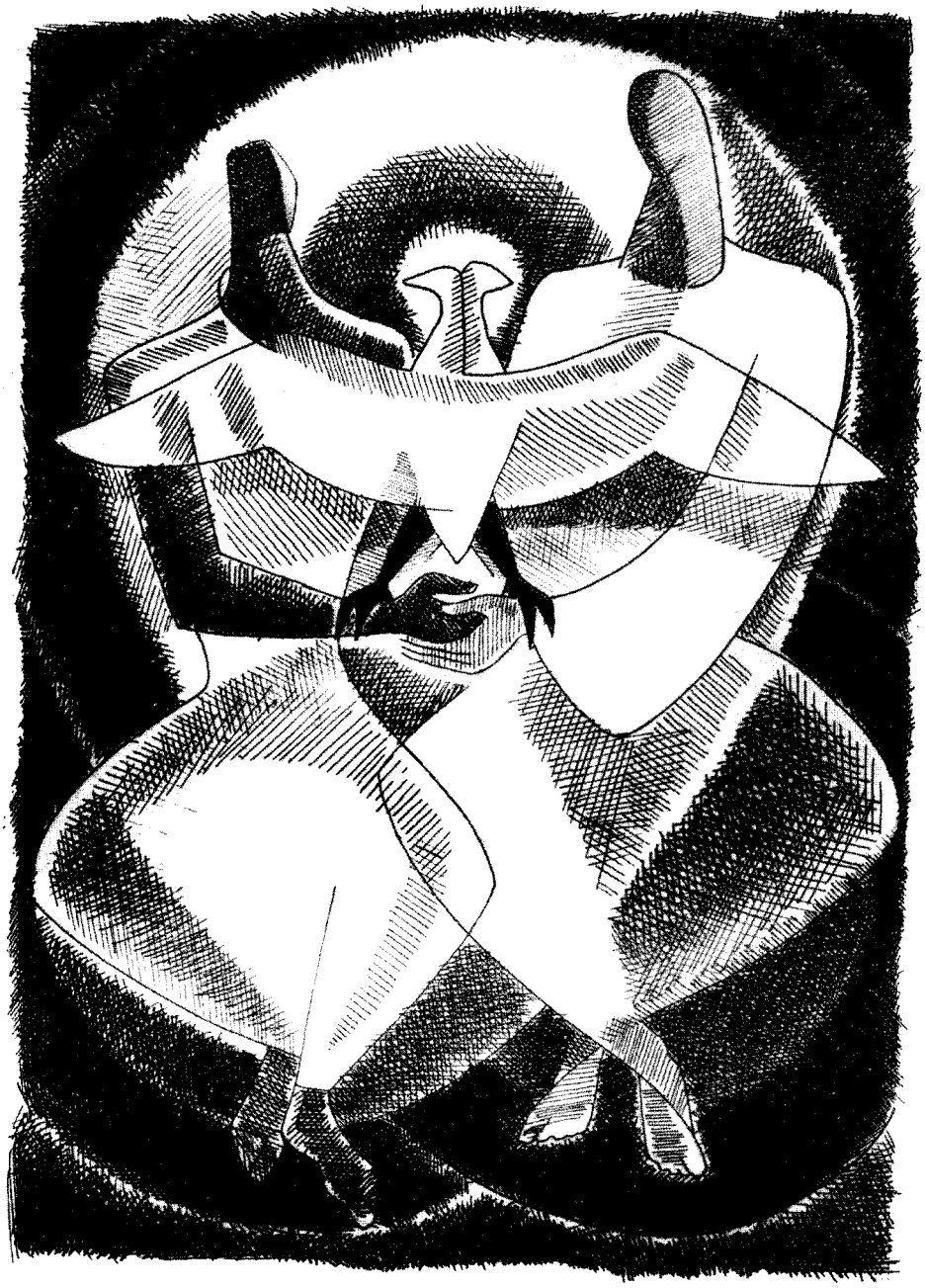

" والكلمة كان لدى الله والكلمة هو الله "

المقدمة الشعرية

(يوحنا ١: ١-١٨)

نبدأ بالتطرق إلى الآيات الثمانية عشرة الأولى من إنجيل يوحنا، وإن كان بودنا أن ننطلق من صفحات أكثر واقعية. ولكن المقدمة هي من أصعب المقاطع في الإنجيل الرابع برمته، ولن ينتهي المرء قط من دراستها وتأملها والتمعن بها.

لما كانت هذه المقدمة تُقرأ -في الطقس اللاتيني- في نهاية كل افخارستيا، كنت أشعر كل مرة، بشيء من الانبهار والارتباك، إذ لم أكن أتوصل إلى استيعاب، لا وحدة تلك الأقوال السرية التي كنتُ أتلفظ بها، ولا غناها. والليتورجيا الأمبروسية (نسبة إلى القديس امبروسيوس المعتمدة في ميلانو) تعرض لنا هذه المقدمة في قداس منتصف الليل في عيد الميلاد، وإذ كنتُ أرى الجمع محتشداً في الكاتدرائية، كنتُ غالباً ما أتساءَل كيف يسعهم أن يفهموا كلاماً سرياً مثل هذا؟

إن معرفتنا هذه المقدمة عن ظهر القلب لا تعفينا عن إعادة قراءتها، فهي تتركنا مصعوقين أمامها، مثل نبوخذ نصر حينما رأى علامات مكتوبة على الجدار أو أحلاماً... عن هذا النص يمكن أن تُقال أشياء كثيرة. ولقد كتبت آلاف الصفحات، وفق منظور لاهوتي أو لغوي.

في الواقع، تشتمل المقدمة الحقيقية لإنجيل يوحنا على الفصل الأول برمته. ولكني فضلتُ أن أقسمه إلى قسمين: المقدمة التي نطلق عليها صفة **الشعرية**،

والمقدمة **النثرية** (الروائية) التي تدعونا إلى قراءة ما بعد الآية ١٨. فالسر نفسه يُقدَّم لنا، أولاً بلغة متسامية ولغزية، ومن ثم بصيغة روائية.

سنتناول هذه المقدمة في منظور رياضة، وننظر إليها بمثابة مبدأ وأساس، ليس للإنجيل الرابع فحسب، بل لرياضتنا أيضاً، لأننا نجد فيها مبادئ طروحاتنا التالية وقاعدتها، ولو أنها تعبّر مسبقاً عن كل شيء بصورة موجزة. فهي تعبّر عنه ضمنياً وعبر تلميحات. أما باقي الإنجيل فلن يتوقف من التوسع في هذا المبدأ والأساس.

ونحتاج إلى صلاة أكثر حرارة لكي نتأمل هذه المقدمة الشعرية بصفتها مبدأً وأساساً للتأمل في يسوع. وها نحن نوجّه صلاتنا إلى العذراء مريم ونقول: "يا مريم، أنت التي كنت حاضرة لدى كتابة هذه المقدمة بقلم ابنك يوحنا، لا تجعلينا نخشى التأمل فيها، بل ساعدينا أن نغوص في الإيمان ببساطة الأبناء، وأن ندع نفسنا تتأرجح على وقع الكلمات، بدون أن ندّعي بأننا نفهم حالاً كل شيء، وان نتوق فوق كل شيء إلى محبة ذاك الذي يكشف عن ذاته من خلال كلمات الإنجيلي".

لمن المهم أن نضع أنفسنا في هذا الموقف، لسببين: فيوحنا، من جهة، بسيط إلى أقصى حدود البساطة —في نصه أكثر من ١٠٠٠ لفظة فريدة من أصل أكثر من ١٥٠٠ كلمة يتألف منها الكتاب—؛ وهو من جهة أخرى متسامٍ بنوع خاص. فان طريقة تعبيره البسيطة جداً تتيح لهذا الإنجيل أن يكون نافعاً حتى في مجال التعليم المسيحي: فعدد كبير من المقاطع الروائية والغنية بالمعاني، تناسب كثيراً الصغار والبالغين معاً.

وبحسب نهجنا الاعتيادي، سنعالج هذا النص بممارسة **"القراءة الربية"** وذلك بثلاث مراحل: **قراءة الصفحة** التي ستكشف عن التركيبة والمواضيع الأساسية؛ ثم يأتي **التأمل** الذي سيحملنا على التساؤل حول بعض ثروات النص وما فيه من رسالة؛ ثم يأتي الدخول إلى **مشاهدة** الرب يسوع الذي يكشف عن ذاته في كلمات الإنجيل هذه.

١. قراءة يوحنا ١: ١-١٨

التركيبة

في ما يمسّ تركيبة المقدمة الشعرية، نلاحظ اختلافات كبيرة بين مفسري الكتاب المقدس الذي درسوا الإنجيل الرابع. فكل منهم يقترح تقسيماً مختلفاً، وليس من السهل أن نعرف أيًّا منها هو الأفضل. قد يكون من المفيد أن نتذكر أن كلمة "نص" (باللاتينية *textus*) تعني النسيج، واللحمة التي لا يمكننا تجزئتها أوتمزيقها، على مثال قميص يسوع! مع ذلك، حاولت تجزئته إلى أربعة أقسام، دون أن أنسى أبداً أن جميع الآيات مرتبطة معاً.

القسم الأول: الآيات ١ إلى ٥ : ما كان وما جرى في البدء.

القسم الثاني: الآيات ٦-٨ : أول ذكر لشهادة يوحنا المعمذان ورسالته.

القسم الثالث: الآيات ٩-١٣ : استقبال الكلمة بأشكال مختلفة ومتناقضة.

القسم الرابع: الآيات ١٤-١٨ : الكشف عن الكلمة في ملئها.

لنقرأ كلاً من هذه الأقسام

١. "في البَدءِ كانَ الكَلِمَة
والكَلِمَةُ كانَ لَدى الله
والكَلِمَةُ هوَ الله.
كانَ في البَدءِ لَدى الله.
به كانَ كُلُّ شَيء
وبدونه ما كانَ شَيءٌ مِمَّا كان.
فيه كانَت الحَياة
والحَياةُ نورُ النَّاس
والنُّورُ يَشرقُ في الظُّلُمات
ولَم تُدرِكْهُ الظُّلُمات". (الآيات ١-٥).

هذه الآيات الخمس الأولى يمكن تقسيمها إلى زمنين: ما كان في البدء، أي الكلمة؛ ومن ثم الخَلق.

وحينما نتأمل ما كان في البدء، نشعر وكأننا أمام جبل عالٍ جداً، تتعدى قمته السحب؛ فنحن لا نرى قمته، إلا في سر الثالوث. ولكن سيُقال لنا ان هذا الجبل يأتي بيننا، لا بل يقترب منّا بتواضع وحنان عذب!

ولفظة "**لوغوس**" اليونانية *logos* (الكلمة) التي تترجمها أقدم النقول اللاتينية بـ *Verbum* لا تعود سوى مرة واحدة في الإنجيل الرابع: في الآية ١٤ من المقدمة، ثم مرة أخرى في رسالة يوحنا الأولى (١: ١ "كلمة الحياة")، وأخيراً في سفر الرؤيا: "واسمه كلمة الله" (١٩: ١٣). فلماذا لم يختر الإنجيلي لفظة أكثر تداولاً، مثل "صوفيا" *Sophia*: "في البدء كانت الحكمة؟ ان لفظة "لوغوس" صعبة، لأنها متعددة المعاني. فهي تشير إلى كل ما يعبّر عنه بالصوت (كلمة، قول، خطاب، وكذلك: سبب، علّة، حساب الصرفيات). وهي تعني في سياق فلسفي: العلة القصوى لجميع الأشياء. فكيف لم يلتجئ يوحنا إلى اللفظة اليونانية "ريما" *rema* التي تشير بنوع أوضح إلى قول إلهي؟

إن هذه الأسئلة كلها تشهد لعدم يقيننا وللمعضلات التي تطرحها علينا المقدمة الشعرية. فإذا أصبح بحثنا سجوداً متواضعاً ومحبًّا، فاننا قد نفهم بنوع أفضل معنى سرّ يتجاوزنا، وهو نوعاً ما سرّ لا يوصَف.

٢. لنأت الآن إلى ذكر الشاهد:

"ظَهَرَ رَجُلٌ مُرسَلٌ من لَدُن الله اسْمُه يوحَنَّا
جاءَ شاهداً لِيَشهَدَ لِلنُّور
فَيُؤمِنَ عن شَهادته جَميعُ النَّاس.
لم يَكُنْ هو النُّور
بل جاءَ لِيَشهَدَ لِلنُّور". (الآيات ٦-٨).

هنا تظهر لفظة **الشهادة** التي ستتردد غالباً لدى يوحنا، وستتعلق خاصة بيسوع. ولدينا آية توجز آيات أخرى عديدة: فيسوع يقول لنيقوديمس: "الحق الحق

أقول لك: اننا نتكلم بما نعلم، ونشهد بما رأينا، ولكنكم لا تقبلون شهادتنا" (٣: ١١).

في المقدمة، تظهر هذه اللفظة للمرة الأولى منسوبة إلى يوحنا المعمذان ورأينا أن إنجيل يوحنا لا يستعمل كلمة "الإيمان" (بيستيس)، كما انه لا يستخدم عبارتي "الإنجيل" أو "التبشير" اللتين تترددان لدى لوقا وبولس. ولكنه يلحُّ على الشهادة التي يجب أداؤها لسر الله.

٣. الزمن الثالث يتعلق بالاستقبال:

"كان النُّورُ الحَقّ
الَّذي يُنيرُ كُلَّ إنْسان
آتياً إلى العالَم.
كانَ في العالَم
وبه كانَ العالَم،
والعالَمُ لَم يَعرِفْهُ.
جاءَ إلى بَيته
فما قَبلَه أَهْلُ بَيته.
أَمَّا الَّذينَ قَبلوه
وهُمُ الَّذينَ يُؤمنونَ باسمه
فقَد مَكَّنَهم أَنْ يَصيروا أَبْناءَ الله
فهُمُ الَّذينَ لا من دَمٍ
ولا من رَغبَة لَحْمٍ
ولا من رَغبَة رَجُل،
بل مِنَ اللهِ وُلِدوا". (الآيات ٩-١٣).

ويأتي فعل "آمن"، وهو نموذجي للمسيرة التي يطلبها يوحنا من التلميذ. ولكن يُشار بصورة خاصة إلى عدم الاستقبال الذي يكاد يكون كلياً. لنلاحظ كيف يتدرج الكلام بطريقة مفارقة: الكلمة، وهو النور الذي ينير كل إنسان، لا يُستقبَل ولا يُقبَل. ولدينا هنا، بصورة مستبقة، الإنجيل كله. فلا يُلقى اللوم أولاً

على الخطيئة، بل على كون يسوع يُرفض، وهو يقبل هذا المصير؛ وأكثر من ذلك: كونه مرفوضاً، يدخل ضمن مخطط الخلاص!

ان عدم الاستقبال أمر واضح: فالعالم لا يعرفه. جاءَ إلى بيته، وأهل بيته لم يقبلوه.

هناك بعض الناس فقط استقبلوا الكلمة. فالكلمة يأتي إلى العالم لكي يكشف أن الآب يحب ويقدّم غفرانه حتى في صميم الرفض، وما وراء كل شيء؛ فهو لم يأت، إذن، لكي يشجب شرَّ العالم.

فالكلمة لا يختبر كونه نوراً ضئيلاً في محيط من الظلمات، أو كون الناس يتجاهلونه بشكل عام حسب، بل يختبر أيضاً كونه غريباً بين ذويه (أهل بيته)- وهنا تشير عبارة "أهل بيته" أولاً إلى إسرائيل، وتاريخه، وإلى عائلة يسوع وجميع الذين كانوا مرتبطين به. وهذه الخبرة التي لا يفتأ يسوعُ التاريخ يعيشها في الإنجيل الرابع، هي، في نظر يوحنا، أهم جداً من خطأ أولئك الذين يرفضونه.

خلال "**التأمل**"، سنتساءَل أيضاً هل ان النور الحق الآتي إلى العالم والذي ينير كل إنسان، يتمثل بتجسّد الكلمة أو هل انه يسبقه. انه سؤال مهم للحوار مع الديانات الأخرى.

٤. أخيراً، تأتي الآيات ١٤-١٨ لتقدّم لنا الوحي في ملئه:

"والكَلِمَةُ صارَ بَشَراً
فسَكَنَ بَينَنا
فرأَينا مَجدَه
مَجداً من لَدُن الآب لابنٍ وَحيد
ملؤُه النِّعمَةُ والحَقّ". (الآية ١٤).

لنتذكر ان موضوع الملء حاضر حتى في آخر لحظة من آلام يسوع. وفي وسط هذا الملء تعود شهادة المعمذان، ولكنها ههنا أكثر مشخّصة: ونسمع كلماته ذاتها: "شهد له يوحنا فهتَفَ: "هذا الذي قلتُ فيه: ان الآتي بعدي قد تقدَّمني، لأنه

كان قبلي" (الآية ١٥). ولدينا هنا استباق لشهادة المعمذان التي ستُعرض من ثم على الفور، بصيغة روائية، في الآيات ١٩-٣٤.

من المحتمل أن يوحنا، في الآيات ١٦-١٨، هو الذي يستأنف الكلام، وكأنه بذلك يعطي شرحاً ختامياً للمقدمة الشعرية التي تطري الملءَ وفيضه: "فمن ملئه نلنا بأجمعنا نعمة على نعمة. لأن الشريعة أعطيت عن يد موسى، وأما النعمة والحق، فقد أتيا عن يد يسوع المسيح. ان الله ما رآه أحد قط. الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو الذي أخبرَ عنه".

الكلمات المفاتيح

قد يكون من المفيد أن نستعيد بعض الكلمات – المفاتيح.

١. الكلمة / المفتاح الأولى هي دون شك الآية ١٤: "والكلمة صار بشراً". ان الحقيقة الإلهية، الأزلية، اللامنظورة، المنيعة، غير المدركة، الفائقة الوصف، التي تتعدى كل مفهوم بشري وكل برهان بشري، هي **ههنا**، انها بشر. فاللوغوس انحبس في كتلة لحم، وجعل نفسه منظوراً، وضرب خيمته في ما بيننا.

وخلال الفصول التالية، سيكتفي يوحنا باستخلاص النتائج من هذا التأكيد المركزي الدافع. فمن يتوخى الله، عليه أن يبحث عن الكلمة المتجسد، وفيه، يتأمل (يشاهد) الآب، سر الأقانيم الثلاثة.

٢. الكلمة / المفتاح الثانية هي **الملء**. الكلمة المتجسد "ملؤه النعمة والحق"، بالتناقض مع الشريعة. هناك من يترجم "المحبة والأمانة" عوضاً عن "النعمة والحق"؛ وهناك آخرون يرون ثمة فكرة "الارتباط"، أي "الحب الأمين". وبوسعنا أيضاً أن نترجم العبارة بـ "الحنان والأمانة". ومهما يكن، فنحن بازاء تعبير غني بالتأويلات ويفتح الباب لتوسّعات يمكن لعلم اللاهوت ان يقوم بها.

ان موضوع المِلء هذا يعود في الآية ١٦: "فمن ملئه نلنا بأجمعنا، وقد نلنا نعمة على نعمة" أي مقياساً فائضاً من النعمة.

٣. ان العلاقة بين "**النور/الحياة**" مهمة أيضاً. ونجد هذه العلاقة في الآية ٤: "فيه كانت الحياة، والحياة نور الناس". وسنعود إلى هذا الموضوع خلال "**التأمل**"، ولكننا نستطيع، من الآن، أن نشير إلى أن موضوعي الحياة والنور، يتردد استعمالهما في إنجيل يوحنا: انهما يشكلان نوعاً من التمهيد.

٤. وهناك كلمتان – مفتاحان أيضاً: القبول والرفض. والآيات ٥ و١٠ و١١ هي سلبية: "النور يشرق في الظلمات، ولم تدركه الظلمات"، "كان في العالم (...) والعالم لم يعرفه"، "جاءَ إلى بيته، فما قبله أهل بيته".

إلا أن المقدمة الشعرية غنية بمعطيات إيجابية؛ انها حاضرة بنوع خاص في الآيات: "به كان كل شيء" (آ ٣)، "فيه كانت الحياة" (آ ٤)، وكان الكلمة النور الحقيقي الذي بمجيئه إلى العالم، "ينير كل إنسان" (آ ٩)، "أما الذين قبلوه، هم الذين يؤمنون باسمه..." (آ ١٢).

كل التاريخ الذي يشهد له يوحنا سيكون موزوناً بـ "نعَم" و"لا" اللتين تطبعان من الآن السطور الأولى من الإنجيل الرابع. وسيكون هذا التاريخ موزوناً بسلسلة من الأزمات لاجتياز من "لا" إلى "نعم"، من الظلمات إلى النور. وهكذا نجدنا بازاء رؤية للتاريخ ذات طابع مأساوي إلى حد كبير.

تلاقيات كتابية

في سبيل تعميق هذه "**القراءة**"، لنتساءَل هل توجد في الكتاب المقدس صفحات قريبة من مقدمة إنجيل يوحنا؟

في الواقع، ثمة صفحات متشابهة قليلة جداً. ففي وسعنا أن نقول ان هذه المقدمة وحيدة وفريدة في الكتاب المقدس كله.

١. الا اننا نقرأ في العهد القديم ثلاثة مقاطع تُسمعنا مسبَقاً شيئاً مماثلاً. وينتقل بي الفكر إلى سفر الأمثال (٨: ٢٢-٣١) حيث تظهر الحكمة الخلاّقة بصفتها تلك الحكمة التي تقف دوماً بجانب الله. ثم أفكر في سفر ابن سيراخ (ف ٢٤) الذي يطري الحكمة، الا ان فيه اختلافين بالنسبة إلى مقدمة يوحنا:

فلا ذكر للوغوس، للكلمة، بل للحكمة. وأكثر من ذلك، فان هذه الحكمة تبدو مخلوقة، ولو انها توطّد النظام وتشترك، إلى حد ما، في الخلق.

أشعيا ٥٥: ١-١١، من شأنه أن يستوقفنا: لأنه يستعمل لفظة **لوغوس، الكلمة**. ففيه تُسلَّط الأضواء على القوة التي بها تمنح ذاتها للجميع: "آه، أنتم العطاش جميعاً، تعالوا إلى المياه، تعالوا يا مَن لا فضة لهم وكلوا... تعالوا واشتروا بغير ثمن...". ثم تأتي الدعوة إلى الارتواء، وهنا نلقى لفظة "الكلمة": "كما ينزل المطر والثلج، ولا يرجعان ثانية إلى السماء، بل يرويان الأرض ويجعلانها تجود فتُنبت نبتاً وتعطي زرعاً للزارع وخبزاً للآكل، كذلك تكون كلمتي، تلك التي تخرج من فمي، لا ترجع فارغة إليَّ، بل تعمل ما شئتُ أن تعمله، وتنجح في ما أرسلتها له".

٢. لا نجد، حتى في العهد الجديد، مقطعاً يتّسم بسعة نظر شأن مقدمة إنجيل يوحنا؛ ولكننا نلقى بعض عناصر جديرة بالاهتمام.

عند القديس لوقا، تبدو الرغبة في رواية البدايات واضحة منذ البدء (١: ٢)، وإن كان بدء حياة يسوع قد حُدّد موقعه في التاريخ، وليس هو بدء الكلمة الذي يسبق التاريخ.

وبين النصوص التي يمكننا أن نسمع فيها معطيات المقدمة، نستطيع أن نسرد الفصل الأول من الرسالة إلى أهل أفسس، والرسالة إلى أهل قولسي، والآيات الأولى من الرسالة إلى العبرانيين حيث تُقدّم مغامرة المسيح في التاريخ، وهي تمدّ جذورها في الأزلية وترتبط بتصميم الله.

فصفحة يوحنا هذه ليست، إذن، معزولة، وإن كانت، على مستوى المطلق، أروَع وأسمى صفحة بين الصفحات التي تتكلم بالذات عن حدث النعمة والخلاص.

٢. نداءات توجّهها المقدمة الشعرية

للتأمل الشخصي، أودّ أن أعرض خمسة توجيهات أو خمسة نداءات:

١. خلال "**القراءة**" تساءلتُ لماذا يبدأ يوحنا إنجيله بلفظة "لوغوس-الكلمة"؟ في وسعي أن أتكهن أنه يفعل ذلك، لأن يسوع هو "**ذاك الذي يتكلم عن الآب**"، ويطلعنا على ما يريد الآب أن يقوله، وكل ذلك بالمستوى الأكبر من العمق. في هذا الصدد، وجدتُ في كتاب للأب كارل راهنر هذه الملاحظة الثاقبة: "يسوع هو نبي، أعني أنه يحمل كلمة من الله موجَّهة إلى وضع تاريخي واقعي، بحيث يصبح القرار ممكناً. لكن كل نبي يعتبر ان كلمته قد يتجاوزها وضع جديد". ذلك هو الواقع: فان ارميا يتبعه حزقيال، وحزقيال يتبعه هذا وذاك من الأنبياء الصغار. "أما يسوع، فيعتبر كلمتَه نهائية ولا يمكن تجاوزها. انه كلمة الله الأخيرة، وذلك لا يعني قط ان الله يريد، بمزاجية، أن يكفّ عن الكلام، بل لأنه لم يبقَ ثمة ما يُقال: في يسوع، وبشكل قاطع، عبّر الله بالكامل عن ذاته بكليته". وأودّ أن أضيف: يسوع عبّر عن الآب –وهذا واضح ضمناً في مقدمة الإنجيل- لا سيما حينما عرَّض نفسه، وباستسلام تام، لموت عنيف، وهو البراءة الكاملة والمجرّدة كلياً عن السلاح، وقد كشف مِن ثم، بالقيامة، ان الله كان فيه ومعه.

هذه هي كلمة الله التي نحن مدعوون إلى تلقيها في نار العليقة المشتعلة. ويواصل راهنر كلامه: "فيسوع، إذن، أولاً وقبل كل شيء، كلمة، بحيث يمكن ويجب أن يُبشَّر به، انطلاقاً من حقيقته الإنسانية بحد ذاتها، وليس بالضرورة بحسب منظور ثالوثي". (سيراً على منوال القديس أوغسطينس الذي أدخل لفظة "الكلمة" (*Verbum*) في صنف "الكلمة الباطنية"، وبفضل ذلك، ومن خلال تماثل العقل المفكر والمحب، كان يشير إلى سر الثالوث). أما يوحنا، فينطلق من الواقع: يسوع كشفَ عن الآب، بنوع متميّز، في موته المشين على الصليب؛ وما يقوله عن الآب ليس عرَضاً أو واقعة تاريخيةً، لأنه منذ البدء يعرف أن يتكلم عن الآب.

يمكننا أن نسمع هنا الدعوة إلى تحقيق قفزة في الإيمان، قفزة النضج المسيحي؛ انها دعوة إلى الإدراك بعمق أن الإيمان هو شيء في منتهى الجدّية، وانه قبول لله مثلما كشفه يسوع.

٢. النداء أو التوجيه الثاني. لقد تأثرت دوماً بالآية الثالثة من مقدمة يوحنا: "به كان كل شيء، وبدونه ما كان شيء مما كان"! اني أعتبر هذه الجملة مثل الأساس لكل "قراءة ربية"، لأني فيه، **أي في الكلمة، أنا أيضاً خُلقتُ**. فالكلمة هو سرُّ حياتي، انه مصيري؛ وإذ أعود إلى هذه الكلمة، أجد ذاتي؛ وإذ أقرأ كلمات الكتاب المقدس، ألمس "الكلمة" الذي فيه خُلقت، وابقى دوماً مسنوداً ومحفوظاً في الوجود، ومدفوعاً نحو مستقبلي. انه أصل ما أنا عليه وتفسيره الأقصى.

حينما يسألنا الشباب الذين هم فريسة غليان عواطفهم المتناقضة قائلين: ولكن من أنا، إذن؟ يترتب علينا أن نجيبهم: ابحث عن ذاتك في الكلمة التي خلقتك، إذ فيها يكمن معنى الحياة!

٣. إن الآية الرابعة تؤثر هي أيضاً فيَّ كثيراً، وباستمرار: "فيه كانت الحياة، والحياة نور الناس". لنلاحظ انقلاب الترتيب بالنسبة إلى قصة التكوين، والتي نجد إشارة واضحة إليها: فليس النور هو الذي أتى الأول، ومن ثم الحياة، **بل الحياة هي الأولى**، وهي ذاتها النور.

كيف نشرح هذا الانقلاب في ترتيب الألفاظ؟ ففي مجمل الخبرة الروحية التي تنعش الإنجيل الرابع، يبدو لي ان الحياة تتغلب على النور، والخبرة الحياتية على الشريعة: ذلك ان الإنسان يبدأ يعيش ويؤمن، وبعد ذلك يتعمق في دوافع الإيمان؛ وكذلك يبدأ المؤمن بالصلاة، وبعد ذلك يسعى إلى أن يفهم ماذا كانت حركة الصلاة تريد التعبير عنه. وهكذا يتضح ان فينا خبرة لأولوية الحياة الروحية، بالمقارنة مع التفسيرات التي تتعلق بالحياة؛ لأولوية الوجود مقابل الإدراك؛ ولأولوية العمل مقابل الشرائع المحددة للعمل. وهذه الأولوية نختبرها بنوع خاص في مسيرتنا نحو الله، وجذورها توجد بالضبط في السر الإلهي الذي هو حياة وقدرة حياة معطاة، وهوملء الوجود. لذا بوسع هذه الحياة أن تصبح نوراً يضيء دربنا نحن الرجال والنساء، ويقيم وزناً لكل ما يجري، وبوسعها أيضاً أن تصبح شريعة. ولكني أكرر أن الشريعة الأولى هي الحياة، لا بل هي شخص، هي كلمة الله التي تكشف عن ذاتها. في البدء

كان الكلمة، ولا يستشفه سوى ذاك الذي يحب؛ انه يعطي ذاته بدون تحفظ، ويجعل من ذاته نوراً للعالم، محدّداً معنى وجودنا.

أما أن نريد أن نفهم كل شيء قبل أن نتحرك ونعمل، فذلك يعني اننا نضع النور قبل الحياة، كما يعني أننا ننسى قدرة الروح القدس الذي يعمل فينا، ويدفعنا إلى بذل ذاتنا من دون قياس؛ واننا نتلقى النور شيئاً فشيئاً، وبمقدار ما نهب ذاتنا.

هكذا أفهم الرسالة المخفية والضمنية في هذه الآية السرية: "فيه كانت الحياة، والحياة نور الناس". ذلك ان النور مهم جداً بالنسبة ليوحنا، لذا فهو لن يعود يتكلم إلا عن النور، بعد أن يكون قد أوضحَ ان الحياة نور.

٤. النداء الرابع استمدّه من الآيات ٥-١٣: القدرة الفائقة لنور الكلمة، في الأزمنة والأمكنة البشرية... فهل يتعلق الأمر بنور أزلي للكلمة الذي ينير البشرية منذ البدء ("النور يضيء في الظلمة، والظلمة لم تدركه")، أو انه استباق لمصير الكلمة المتجسد الذي سيُقدَّم بنوع صريح في الآية ١٤؛ لقد سبق أن أشرت إلى هذا السؤال في "القراءة". وبتعبير آخر: "هل يُقدَّم المعمذان، في الآيات ٦-٨، بصفته شاهداً للكلمة المتجسد، أم شاهداً للنور الذي ينير كل كائن بشري، والذي هو قادر، حتى قبل التجسد، أن ينير حياة كل إنسان فيجعل منه ابناً لله؟

يكتسب هذا السؤال اليوم أهمية قصوى. ويجب أن نعرف هل الديانات غير المسيحية ليست سوى انحرافات أو مقاومات بالنسبة إلى سر الكلمة المتجسد، أم انها تستطيع، بشكل من الأشكال، ان تستفيد من هذا النور الذي أشرق منذ بدايات العالم، ولا ينفك ينير قلب كل كائن بشري.

يتفق معظم مفسّري الكتاب المقدس على التأكيد أن الآيات ٥-١٣ تتكلم عن نور الكلمة الذي ينير كل حياة بشرية في مسيرتها، بحيث يمكننا أن نجد تجليات له في جميع الحضارات والفلسفات والديانات، وقد امتزجت بالظلمات وبالمقاومات التي أكدت عليها المقدمة.

ليس لدينا ههنا لاهوت سهل بشأن الديانات (وكأنها كلها متساوية). انه لاهوت يحاول أن يُفهمنا ان الكلمة، قبل تجسّده بيسوع، كان يقدّم ذاته للبشرية

مسبقاً بصفته النور ومعنى الحياة؛ كما كان يقدّم ذاته بصفته ذاك الذي يكشف لكل كائن بشري دعوته، لكي يحبها، فيقدّم ذاته ويتجاوزها، ويصبو نحو سر الله.

ان هذا التفسير يعجبني كثيراً، لأنه يُحسن شرحَ معنى الحوار بين الأديان وبين الحضارات. انه يساعدنا أن نكتشف الأسباب الحقيقية التي تجعل الحوار ممكناً، بدون المساس بالحقيقة. انه يحترم ما عند الآخرين من حقيقة، ولكنه يعطي دوماً المكان الأول للحقيقة الكبرى التي هي الكلمة الذي صار بشراً.

كان آباء الكنيسة أنفسهم يتكلمون عن "بذار الكلمة" المنتشرة في العالم، بينما نادراً ما كانوا يعودون إلى آيات من مقدمة يوحنا.

إن الوثيقة التي مطلعها "الرب يسوع" الصادرة في ٦ آب سنة ٢٠٠٠، تسير في الاتجاه نفسه: ففي محور وقمة كل شيء يقوم الكلمة المتجسد، أي وحدانية الرب يسوع؛ إلا أن الكلمة الذي، منذ الأزل، ينير كل إنسان، لم يكفَّ قط عن إنارة البشرية قاطبة. وحتى الذين يعلنون انهم غير مؤمنين، يستفيدون في أعمق كيانهم من شرارات –هي اشبه ببروق– تعكس أشعة الكلمة/النور.

أما في شأن شروط الحوار بين الديانات، فلقد قرأتُ قبل بضعة شهور كتاباً عنوانه (*I Tre Maritain*)، عُرضت فيه الصداقة العميقة التي ربطت بين ماريتان ورايسا زوجته وفيرا أختها، صداقة لعبت دوراً حاسماً في روحانية هذا الفيلسوف الكبير. وفي هذا الكتاب سُردت رسالة لويس غارديه، وهو اختصاصي كبير بالعالم الإسلامي، كان قد أصبح من اخوة يسوع الصغار. لقد كتب إلى ماريتان في ٤ كانون الثاني سنة ١٩٦٠: "ان أنتروبولوجيا متأصلة في فلسفة الكينونة ومدعومة بأنوار الإيمان تستطيع وحدَها أن تتيح التطرق، عبر بحث رصين حقاً، وبعمق يختلف عن عمق العلوم الإنسانية، إلى تنوّع الثقافات والديانات والخبرات الروحية، كما إلى تعدّدية الفلسفات والمعضلات الكبيرة التي تثيرها.

انها التعدّدية التي نعرفها الآن والتي غالباً ما تسبب لنا الإحباط، إذ نجهل أين وكيف نحدّد موقعنا، وماذا يجب نبذه أو الاحتفاظ به كشيء ذي قيمة. وما يقوله غارديه يُظهر لنا أن أساس حوار حقيقي يكمن في انتروبولوجيا مؤسسة على فلسفة

الكائن ومستنيرة بالإيمان، شريطة ان يكون إيماناً مُعاشاً بعمق. ونقرأ أيضاً في هذه الرسالة نفسها، وهي تتكلم عن هذه الانتروبولوجيا المتأصلة في الإيمان: "اعتبرها ضرورية لاحترام ما تحمله كلٌّ من المغامرات البشرية الكبيرة التي يجب علينا أن نُجلّها، ولكن من دون اعتبار القيم التي تطبع مصير الأشخاص والمجتمع، نسبية" لنتحاور، إذن، ولكن دون التقليل من أهمية القيم؛ لنتحاور في كنف الحقيقة. ومن ثم يختم بقوله: "جاءت الممارسة، إذا صحّ هذا التعبير، لكي تؤيد صحة هذه التأكيدات".

ان لاهوت الديانات مدعو دون شك ليواصل طريقاً طويلاً وصعباً. إلا أن جذورَه هي في آيات مقدمة يوحنا.

وذكر المعمذان في الآيات ٦-٨ لا يتعلق فقط بالشهادة التاريخية التي تؤدى ليسوع. فالمعمذان يصبح رمزاً لجميع الأنبياء وكبار الحكماء في البشرية الذين عرفوا، في مختلف حقب التاريخ -وغالباً ما كانت مظلمة- أن يميزوا شعاعاً من نور البشر، هذا النور الذي يفيضه الكلمة، حتى وإن اصطدم بالظلمات وكل أشكال الرفض.

٥. ويأتينا النداء الأخير من خلال حدث لغوي ذي معنى كبير: وأعبّر عنه بالطريقة الآتية: **نحن حاضرون مسبقاً في "المقدمة"**.

إلى حدّ الآية ١٣، يتكلم الإنجيلي بنوع عام عمّا كان منذ البدء، سواء كان عن شهادة يوحنا المعمذان، أم عن القبول أو الرفض اللذين سيلقاهما النور والكلمة.

ومع الآية ١٤، تظهر لفظة "نحن" التي تجعلنا معنيين: "الكلمة سكن بيننا، فرأينا مجده (...) ومن ملئه **نلنا بأجمعنا**".

فالأمر لا يتعلق بحضور الإنجيلي فحسب، بل أيضاً بحضور مريم، والرسل، والكنيسة الأولى كلها، بل الكنيسة برمتها. واليوم، نحن أنفسنا، نعود إلى الحدث: فالكلمة المتجسد يوجّه الكلام إلينا، لانه ختم حياتنا ومفتاحها. ومن ملئه ننال، اليوم، بأجمعنا، نعمة على نعمة.

٣. نحو المشاهدة

لقد أوضحتُ بعض مواضيع للتأمل، مكثفة ومحفِّزة، في وسعها أن تتحوّل إلى صلاة، ومشاهدة، وسجود، بفضل الجواب على بعض الأسئلة:

١. ما هي الظلمات فيَّ التي لا تستقبل نور الكلمة أو ترفضه أو تحاربه؟ ان الإنجيل الرابع كله، ولا سيما القسم الأول منه، معدّ للجواب على هذا السؤال. فإن رسالة يوحنا ليست مطلقاً نوراً وحسب. انها نور في الظلمات، نور ضد الظلمات، نور تتصدى له الظلمات، وهذه هي المأساة التي يعيشها كل إنسان، وكل حضارة، وكل ثقافة. كيف تنعكس فيَّ. وما العمل لكي أستطيعَ أن أتجاوزها أو ان استوضحها؟

٢. يتعلق السؤال الثاني بالآية ١٢ وما يليها. أي استقبال أود أن أقدّم للنور الذي حلَّ بيننا؟ وللكلمة الذي هو حاضر ههنا؟ وكيف أستقبله في الصلاة: باحترام، بصمت، بإصغاء نبيه؟

لنقدّم، إذن، ذواتنا مع رغبة لاستقبال –لا لرفض– الكلمة الذي يأتي ليحلَّ كلياً في قلبنا ويفعمه من ملئه، هو الكلمة المتجسد؛ لنتعلّم كيف نتلقى، بفرح وامتنان، نعمةً على نعمة.

٣. وهذه نقطة أخيرة للصلاة: أي سجود أودُّ أن أعبّر عنه، بالشركة مع مريم، للكلمة المتجسد، الحاضر في الافخارستيا؟ كيف أمدح، وأعترف، وأشكر مع مريم، طالما أن يسوع، في سر الافخارستيا، يطلب إلينا أن نُقدّم ذواتنا هبة؟

" النور الحق الذي ينير كل انسان كان آتياً الى العالم "

في حضن الآب

عنوان هذا التأمل وصورته يتمثّلان بعبارة "في حضن الآب". ولكن لنلاحظ في الحال: ان تعبير "في الحضن"، في اليونانية، يشير إلى أن الكلمة "هو نحـــو الآب"، وهو اندفاع نحوه.

ليس من غير الأهمية أن نلاحظ أن لفظة "حضن" التي بها تختـــتم المقدمـــة الشعرية (يوحنا ١ :١٨) لا ترد سوى لُماماً، في الإنجيل الرابع، لا بـــل في العهـــد الجديد كله.

نجد اللفظة في لوقا (٦: ٣٨) حيث تعني مقياساً مركوماً: "أَعطوا تُعطَـــوا. ستُعطَون في **أحضانكم** كيلاً حسناً مركوماً، مُهَزهَزاً، طافحـــاً". وهكـــذا يصـــبح الحضن موضع استقبال. حين أقرأ هذه الآية من إنجيل لوقا، أتذكر حالاً المبادرة التي قام بها بوعز، تحت أنظار راعوث التي أمضت الليلة راقدة عند قدميه. ولما اســـتيقظ بوعز في الصباح الباكر ورأى المرأة، دعاها إلى الانصراف قبل شروق الشمس، وقال لها: "هاتي الرداءَ الذي عليك، وامسكيه من طرفيه"، فامسكته. فأطال لها فيه ســـتة أكيال شعير، ووضعها عليها" (راعوث ٣: ١٥). هنا لا ترد لفظة "الحضن"، لكـــن الرداء هو مثل مجوَّف يمكن للمرء أن يملأه. ويأتي هذا التعبير في سفر أعمال الرســـل بمعنى الخليج أو الفجوة العميقة في الشاطئ، حين يقترب الملاحون، بعد العاصفة، من خليج ذي شاطئ (حضن).

ويضاف إلى هذين الاستعمالين المتعلقين بشكل الحضن وصورته، شبه هذه الكلمة عند يوحنا: "وكان أحد تلاميذه، وهو الذي أحبَّه يسوع، متكئاً **إلى جانب يسوع**" (١٣: ٢٣). وقد جاءَ في الترجمة اليونانية: "**في حضن يسوع**" (والكلمة نفسها تأتي عند لوقا (١٦: ٢٢-٢٣) لدى الحديث عن الفقير لعازر الذي حملته الملائكة إلى "حضن ابراهيم").

نحن مدعوون لنتأمل مليًّا (نشاهد) صورة يسوع الذي يستريح في حضن الآب، كما جاء في إرشاد البابا (يوحنا بولس الثاني) بعنوان "إطلالة الألف الجديد" (الرقم ١٦)، وقد ذكرته في مقدمة هذا الكتاب وقلتُ: لتَبقَ نظرتنا أكثر من أي وقت آخر شاخصة إلى وجهِ الرب".

الابن الوحيد الذي في حضن الآب

لنفكّر، إذن، في الآية ١٨ المرتبطة ارتباطاً وثيقاً ببداية المقدمة الشعرية: "في البدءِ كان الكلمة، والكلمة كان لدى الله (ملتفتاً نحو الله)". ان العبارة بين قوسين جاءَت في الترجمة المسكونية للكتاب المقدس (*T.O.B.*). أما ترجمة أورشليم (*Bible de Jerusalem*) فتقول: "والكلمة كان بالقرب من الله". وهناك ترجمات تؤدي: "والكلمة كان نحو الله"، وهذا يهدف إلى الإشارة إلى امتداد دينامي. وتعود العبارة أيضاً في الآية ٢: "كان في البدء لدى (ملتفتاً نحو) الله".

وأودّ أن أتعمق في معنى الآية ١٨، لكي نزداد فهماً، انطلاقاً من مجمل الإنجيل الرابع، لعلاقة الخضوع المدهشة عند يسوع تجاه الآب، وكذلك الوثاق الذي يوّحده مع الآب. وسأستخدم لذلك بضعة تأكيدات:

التأكيد الأول: يسوع يكمل إرادة الآب. **الثاني**: لا يأتي يسوع باسمه الخاص، بل باسم الآب الذي أرسله. **الثالث**: يتصرف يسوع بحسب وصية الآب. **الرابع**: لا يقول يسوع سوى ما سمعه من لدن الآب. **الخامس**: يسوع يعمل الأعمال التي يرى الآب يعملها. **السادس**: يسوع يشهد للآب.

نستطيع أن نؤكد أن العبارات اليونانية (ملتفت نحو الله-في حضن الآب) تجلّت بوضوح في كل ما يعمله يسوع ويقوله. وأكتفي ببعض استشهادات، آملاً أن أوقظ انتباهكم وأساعدكم لتتعرفوا إلى المناسبات العديدة التي فيها سُلّطت الأضواء على علاقة يسوع بالآب.

❁ **يسوع يكمل إرادة الآب.** أتوقف أولاً عند نهاية مشهد المرأة السامرية. حين عادَ التلاميذ وتعجبوا لرؤيتهم معلمهم بصحبة امرأة، فقدّموا له طعاماً وسألوه أن يأكل: لكن يسوع أجاب: "لي طعام آكله، أنتم لا تعرفونه" (٤: ٣٢). ولم يفهم التلاميذ، فأضاف قائلاً: "طعامي أن أعمل بمشيئة الذي أرسلني وأن أتِمَّ عمله" (٤: ٣٤).

ان الطعام الذي لا يمكن ليسوع أن يستغني عنه، والذي يحفظه في الوجود، هو أن يعمل بمشيئة الذي أرسله. لنحتفظ هنا بكلمتين / مفتاحين: المشيئة (*thelema*)، والمرسَل (*pempo*). وأترك لكم مهمة القيام بالبحث، بمساعدة معجم للمقاربات بين آيات الكتاب المقدس، عن المقاطع العديدة التي يعبّر فيها يسوع عن وعيه انه مرسَل الآب ليعمل بإرادته.

والكلمة/المفتاح الثالثة في الآية ٣٤ هي "أن أُتمَّ عمله" (*ergon*). وعلى الصليب، سيعلن يسوع: "لقد تمَّ كل شيء"، أي أني أتممت عملَ الآب.

في الفصل الخامس، نلاحظ مواجهة بين إرادة يسوع، في إنسانيته، وإرادة الآب:

"لا يستطيع الابن أن يفعل شيئاً من عنده" -لأنه تابع بكليته للآب- "أنا أحكم على ما أسمع" (٥: ٣٠) -انه بكليته مصغٍ إلى الآب وإلى إرادته- "حكمي عادل، لأني لا أتوخّى مشيئتي، بل مشيئة الذي أرسلني (الآية ٣٠). وهكذا فان بوسع يسوع أن يميّز، بين الأحداث، الحدث الذي يتناسب بشكل أفضل مع رسالته؛ ومع ذلك نجده يختار البحث عن إرادة الذي أرسله. ولسنا بازاء مجرد رضى سلبي، بل بالأحرى بإزاء مطابقة إرادته مع إرادة الآب، وفي ذلك تكمن ماهية وجوده.

❁ **يسوع يأتي باسم الآب ويعمل بحسب وصية الآب.** في إنجيل يوحنا (٦: ٣٨-٤٠)، في صميم الخطاب عن خبز الحياة، يقول يسوع: "فقد نزلتُ من السماء، لا لأعمل بمشيئتي، بل بمشيئة الذي أرسلني. ومشيئة الذي أرسلني ألا أهلك أحداً من جميع ما أعطانيه، بل أقيمه في اليوم الأخير. فمشيئة أبي هي أن كلَّ من رأى الابن وآمنَ به كانت له الحياة الأبدية، وأنا أقيمه في اليوم الأخير".

وفي الفصل ٨: ٢٩، حينما تشتدّ المقاومة لأقواله، يؤكد مرة أخرى: "ان الذي أرسلني هو معي، لم يتركني وحدي، لأني أعمل دائماً أبداً ما يُرضيه". فيسوع لا يبحث عن ذاته في شي، وهو لا يتوخى المجد الآتي من الناس (راجع ٥: ٤١)، كما يفعل الذين يقاومونه، أولئك الذين يحبون المجد الآتي من الناس، وليس المجد الآتي من الله وحدَه (انظر ١٢: ٤٢-٤٣). فيسوع لا يعمل إلا ما يُرضي الآب.

❁ **يسوع لا يقول إلا ما سمعه من الآب وهو يُتم أعماله.** في الفصل الثامن ذاته، نقرأ فعلاً يشير إلى التتميم: "(أبي) أعرفه **وأحفظ** كلمته" (آ ٨: ٥٥ب). وهذا ما سيطلبه يسوع من التلاميذ": "إذا كنتم تحبونني، فاحفظوا كلامي". انه سر يسوع الكبير: أن يحب الآب، ويعمل بمشيئته، ويحفظ كلامه، ويتم أعماله.

تلاحظون كم ان التأكيدات المعروضة تتداخل وتتماسك فيما بينها لكي تشير إلى الخضوع الذي تتسم به علاقة يسوع مع الآب.

وأذكر أيضاً ١٤: ٣١: "ليعرف العالم أني أحب الآب، وأني أعمل كما أوصاني الآب". وفي ١٢: ٤٩-٥٠، يعلن يسوع ويقول: "اني لم أتكلم من عندي، بل الآب الذي أرسلني، هو الذي أوصاني بما أقول وأتكلم. وأنا أعلم أن وصيته حياة أبدية. فما أتكلم به أنا، أتكلم به كما قاله لي الآب".

❁ **يسوع يشهد للآب.** عديدة هي المقاطع التي فيها نجد لفظة: "شاهد" و"شهادة". لنذكّر في الأقل بـ ٥: ٣٦-٣٧ حيث يقول يسوع: "أما أنا فلي شهادة أعظم من شهادة يوحنا: ان الأعمال التي وكلَ إليَّ الآب ان أُتمّها، هذه الأعمال التي أعملها هي تشهد لي بأن الآب أرسلني. والآب الذي أرسلني هو شهدَ لي".

معرفة وجه يسوع الحقيقي

هذه السلسلة من النصوص التي ذكرتها الآن توضح الصعوبة التي نلقاها لكي نتقبّل صورة يسوع المطيع للآب، المصغي بكليته إلى الآب، والمتغذي بإرادته، والمتكلم باسمه. ان صورة يسوع هذه تتطابق مع صورة شخص بشري يحيا بحسب تصميم الله.

واعترف أني أنا الأول أشعر بمقاومات باطنية ازاء يسوع يوحنا، وهو يسوع ينفّذ دوماً أوامر الآب.

هذه المقاومة تنشأ دون شك من الصورة التي يصوغها عصرُنا للإنسان، والتي من ميزاتها أوَلوية الشخص، واستقلاله، وحريته.

وتحدونا بالأكثر الرغبة الملحة في القيام بمجازفة **الحرية**، والمبادرة إلى اختيارات شخصية وليس باسم شخص آخر. وفي الواقع، هكذا يقدّم لنا الإنجيليون الازائيون يسوع: فهو يجازف بحرية اختياراته الخاصة، ويلتزم بها كلّياً. انه يفعل ذلك أيضاً بالتأكيد في إنجيل يوحنا، ولكنه يضيف دوماً: لأن الآب يقول لي ذلك. وهكذا نلاحظ مفارقة مع مفهوم الحرية الذي صغناهُ لأنفسنا.

وازاء **استقلالنا**، تنتصب تبعية يسوع (آخر يعطيه الشريعة). ذلك ان إنسان اليوم يدّعي بأنه يجد في ذاته قاعدة أعماله، وبضمنها الشريعة؛ شريعة يريدها عقلانية غير مفروضة، تشدد على محبة القريب، وعلى العدالة، ولكنها تنشأ من باطن الذات.

ان **لأولوية الشخص** أهمية كبيرة جداً اليوم: فجميع الأشخاص متساوون، وأحرار، ومسؤولون معاً، وليس ثمة من يترتب عليه الخضوع، ما لم يكن ذلك ضرورياً، وهو ضروري بمقدار ما يضمن النظام العام وحياة مشتركة منتظمة.

وسرعان ما نلمح تناقضاً بين صورة يسوع، وقد جاءَ على الأرض لكي يُظهر صورة الإنسان الكامل، وبين المفهوم الحالي لقيم الحرية والسلطة وأولوية الشخص.

لنطرح على ذواتنا السؤال التالي: ماذا يعني هذا التناقض؟ وما هي الانفتاحات التي تُعرض علينا إذا ما فكرنا ملياً، عبر الصلاة، كي نفهم تصميم الله بالتمام؟

يبدو لي ان هذا التناقض يثير انفتاحاً مثلثاً أصفه بالنسكي –الانتروبولوجي، واللاهوتي، والانتروبولوجي–اللاهوتي.

١. الانفتاح الأول، **النسكي–الانتروبولوجي**، لا يقبل الجدل. في الواقع، ما أن يعلن الإنسان نفسه مستقلاً وحراً، ومصدراً أولاً لعمله، وإذا به لا يستطيع – ونعرف ذلك جيداً– ألا يواجه حدوده.

بالإضافة إلى ذلك، وبحسب رؤية الإيمان، خلقنا الله بشكل يجعل واقع الخلق نفسه يمسُّ شخصيتنا في الصميم: نحن نعترف ان ثمة واحداً يفوقنا، وبمقدار ما نتعمق في سر الخلق، نكتشف ان خدمة الله تعني أن نملك.

وهذا يقتضي قفزة نوعية تتطلب شجاعة كبرى. أشعر بأن كثيرين من الأشخاص يرفضون الإيمان لأنهم، بالضبط، لا يريدون أن ينجزوا القفزة التي يُعبَّر عنها بقبولهم العيش في تبعية شخص هو أكبر منهم؛ في حين انه من العدل والحق والجمال أن أعترف بإله هو قبلي، وأكبر مني، بإله أجد فيه حقيقتي ومعنى وجودي. تلك هي الحقيقة النسكية–الانتروبولوجية للكائن المخلوق، للكائن التابع. فأنْ أحيا حدودي بمحبة وبشكل واعٍ، فذلك أمر يغمرني فرحاً. أجل، حقاً، ان خدمة الله هي أن نملك!

هذا الانفتاح الأول، بفضل العناية الإلهية، الذي تقترحه علينا صفحات الإنجيل الرابع، يتناساه بسهولة كبيرة الضمير المعاصر. لا شك أن هذا الضمير مقتنع من الحدود البشرية –المرض، الموت– ولكنه يرفضها، في محاولة لتجاوزها بشتى أنواع الموت الرحيم أو بمختلف أشكال العلاجات. فها نحن مدعوون، إذن، من جديد، إلى الحكمة التي تتوقف على الاعتراف بالمبدأ الأساسي لوضعنا كخلائق، والاعتراف بأننا لا نملك في ذاتنا العلة القصوى لعملنا. فلكوني مخلوقاً وتابعاً، أجد حقيقتي بالسجود لخالقي.

٢. الانفتاح الثاني، **اللاهوتي**، هو انفتاح أوسع. فيسوع، من جراء سلوكه التابع دوماً، قد يبدو موجَّهاً من العلى، ولكنه في الواقع يكشف عن الآب، وهو واحد مع الآب، ويحب الآب. انه يحبه ويكشف عنه بصورة عميقة إلى حد اننا

لو دخلنا إلى عمق ما يحياه في صميم ذاته، لاكتشفنا انه لا يستطيع أن يتكلم بشكل مخالف: ففيه يقوم الآب بمجازفة، وفيه يكشف الله نفسه عن ذاته ويتجلى. أجل، يكشف يسوع عن الآب بطريقة سلوكه في التاريخ.

في هذا الصدد، تبدو نصوص من إنجيل يوحنا ذات معنى خاص. وينتقل بي الفكر إلى يوحنا ١٧: ٢٢-٢٣، حيث يصلي يسوع هكذا: "وأنا وهبتُ لهم ما وهبتَ لي من المجد، ليكونوا واحداً كما نحن واحد، أنا فيهم وأنتَ فيَّ، ليبلغوا كمال الوحدة، ويعرف العالم أنك أنتَ أرسلتني، وانك أحببتَهم كما أحببتني".

أنْ يمرّ الإنسان بالنسك، وبالفلسفة، وبالانتروبولوجيا، فذلك لا يكفي. بل يجب أيضاً المرور بالإيمان. وفي الواقع، نلج هنا إلى سر الثالوث الذي لن نتوصل أبداً إلى إدراكه وإلى سبره كما يجب. ولكن، وبسبب هذا السر، يكلمنا الآب ويكشف عن ذاته في يسوع.

وفيما يتعلق بهذا الانفتاح اللامتناهي الذي يعرضه علينا الإنجيل الرابع (على النقيض من الازائيين الذين لا يكادون يرسمون خطوطه)، أورد أيضاً الفصل ١٠: ٣٠، حيث يؤكد يسوع قائلاً: "أنا والآب واحد". ثم يقول في ١٤: ٣١: "وما ذلك إلا ليعرف العالم أني أحب الآب، وأني أعمل كما أوصاني الآب". من المحتمل جداً أن القديس توما الاكويني عاد إلى هذه الأقوال لكي يجيب عن سؤال طرحه على نفسه: "كيف يمكن أن يأمر الآب الابن، وأن يطيعه الابن وهو مساوٍ للآب؟". ويجيب: الآب يأمر الابن، **مفيضاً عليه المحبة**، ومحبًّا اياه، والابن يطيع ممتلئاً من الحب. فيسوع يكشف، إذن، عن وحدة المحبة، لا وحده التبعية التي قد تعني استعباداً وحالة دنيا؛ ان وحدة المحبة يُعبَّر عنها في عمل مساوٍ، عمل يشمل من ثم الخدمة والطاعة، بصفتهما ثمرة محبة صادرة عن وحدة كاملة.

وتبدو كلماتنا عاجزة عن التعبير عن عمق السر. إلا ان هذا الجبل الجليدي الوعر الذي هو نص يوحنا، يضطرنا إلى القيام بقفزة ومع الاقرار: في هذه الحالة الوحيدة من التاريخ، وفي شكل طاعة وتخويل، وحديث باسم آخر وسلوك يتبنى ما شوهد لدى آخر... هو بالذات هذا الآخر الذي يكشف عن ذاته في يسوع، ويسوع بدوره يمنحنا أن نشاهد (نتأمل) الآب بشفافية.

٣. الانفتاح الثالث، **الانتروبولوجي-اللاهوتي**، يتعلق مباشرة بكل منّا. فكما ان يسوع ليس إلا واحداً مع الآب، كذلك نحن مدعوون إلى ألاّ نكون سوى واحد مع المسيح؛ كما اننا مدعوون إلى الدخول، ليس إلى تبعية العبيد، بل إلى شركة الحب والتي يُعبَّر عنها بمفردات الطاعة والاستقبال الخَفر لسرّ الآب، من أجل دعوة لا يُعبَّر عنها بشرياً، هي دعوة إلى الوحدة وإلى المِلء وإلى المعايشة المتبادلة.

وهنا نجد من جديد قيم الحرية والاستقلال والحياة الباطنية وأولوية الشخص، طالما أن الآب هو الذي يعمل فينا، وان روحه هو الذي يولينا قدرة كي نتكلم ونسلك ونعمل ونطيع. وهكذا نَجِدُنا في روحانية المزمور الأول ("أُسَرُّ بشريعة الرب") والمزمور ١١٨، وهو نشيد رائع للفرح أمام الرب. ذلك ان الروح نفسه هو الذي يلفظ فينا أمر الرب الذي ننجزه بصورة هي من التلقائية والواقعية والشخصية بحيث نحيا في المحبة والاستسلام، متحدين مع يسوع.

ان مشاركتنا في حياة الأقانيم الإلهية الثلاثة قد تكلّفنا الكثير، كما كلّفت يسوع حتى ذهبت به إلى قبول الصليب؛ ولكنها، في الواقع، تعبير عن وحدة وشركة عميقة جداً مع الله الذي، من خلال يسوع، يجرؤ أن يجازف بنفسه في كل واحد منّا، بنوع أو بآخر.

لذلك كان إنجيل القديس يوحنا بمثابة الجدار الشمالي للأناجيل الأربعة. فان الانضمام النسكي إلى يسوع، ولوصيته وكلمته، وإلى شريعة الحياة الإنجيلية في المجانية والغفران والعدل والرحمة —شريعة قد تبدو عند الازائيين بمثابة فضيلة، وتتيح تغيير الشخص- تلك هي حياة الله ذاتها فينا، وهي الكشف عن حياة ابن الله وتمثُّلنا بيسوع. هذا هو المثل الأعلى الذي نحن مدعوون إليه؛ وهذا هو الموضع الذي فيه يجد قلبنا سلاماً كاملاً، حيث تتحد الحقائق التي تبدو وكأنها تتناقض: العطش إلى الحرية، وإلى الأصالة، وإلى الاستقلال، وإلى التبعية، وإلى الطاعة على مثال المسيح.

انه لمن البديهي جداً أن هذا الطريق شاق، تكتنفه الظلمات، وليس من قبيل المصادفة ان يكون إنجيل يوحنا —وأكرّر ذلك- هو إنجيل المِلء.

وأودّ أن أختم بصلاة:

أيها الرب يسوع، اسمح لنا بأن نعرفك، ليس معرفة سطحية، بل كما تُظهر ذاتك بالحقيقة، واحداً مع الآب، كاشفاً الآب، ومكملاً إرادته، ومعلناً كلامه. امنحنا ان ندرك الطابع الفريد والوحيد والنهائي لهذا الكشف عن الله، ذلك الطابع الحاضر في حياتك وموتك وقيامتك. ليدخل روحك القدوس إلى أعمق كياننا، لكي يتسنى لنا أن نشترك في حياة الثالوث، ونبلغ إلى هذا المثل الأعلى الذي تدعونا إليه، لكي لا نكون سوى واحد معك، كما لستَ أنت سوى واحد مع الآب.

" هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم "

المقدمة النثرية

(يوحنا ١: ١٩-٥١؛ ٢: ١-١١)

امنحنا، يا رب، أن نستقبل نعمة الروح التي تساعدنا لنشترك في مشاعر يوحنا، صديقك الحبيب، وفي خبرته الإيمانية. امنحنا، كما استطاع هو، أن نضع رأسنا على قلبك: وهكذا سنتمكن من الشعور بأننا على موجة واحدة مع صفحات الإنجيل الرابع، فنستوعب جوهره، أي ما هو مهمّ، ما وراء المظاهر اللغوية والتاريخية.

وأنت يا مريم، يا من تلقيت أسرار ابنك وتلميذه المفضَّل، ساعدينا لكي ندخل إلى هذا النص الصعب الذي يكشف لنا، شيئاً فشيئاً، أسرار ملكوت الله على الأرض وفي الأبدية.

لنواصل مسيرتنا بدراسة **المقدمة النثرية** التي تستعيد، بشكل رواية، بعض مواضيع أساسية من المقدمة الشعرية. انها مواضيع أساسية لأنها تكوّن -كما سبق أن قلتُ- بواكير إنجيل يوحنا كله.

يمكننا أن نقسم المقدمة النثرية إلى ثلاثة مشاهد، حسب اقتراح كزافييه ليون-دوفور: شهادة يوحنا المعمذان (١: ١٩-٣٤)، تلاميذ يسوع الأوائل (١: ٣٥-٥١)، عرس قانا (٢: ١-١١).

وأودّ أن أبدأ **بقراءة** شهادة يوحنا والتأمل فيها، ومن ثم أشرح على ماذا يقوم المبدأ والأساس للتلميذ الذي يريد أن يتبع طريق الإنجيلي. وبعد ذلك سننكبّ، ربما بإيجاز كبير، على المقطعين الآخرين من المقدمة النثرية.

١. قراءة يوحنا ١: ١٩-٣٤

كيف تُعرض شهادة المعمذان الطويلة؟

ان الآية ١٩ تعطينا عنوان الفقرة: "وهذه شهادة يوحنا، إذ أرسل إليه اليهود من أورشليم بعض الكهنة واللاويين يسألونه: "مَن أنتَ؟" فأجابَ يوحنا على هذا السؤال بالنظر إلى المسيح. في الواقع، سنرى أن صورة الشاهد هي نسبية كلياً نظراً إلى المسيح. لقد كان اليهود يتمنون أن يدفعوا المعمذان إلى الكشف عن طبيعته وسلطاته، إلا أن يوحنا يشير إلى آخر. ويتم هذا الأمر بثلاثة أوقات.

التركيبة

١. في وقت أول، تتخذ شهادته صيغة سلبية، إذ انه يشدّد على ما ليس اياه: "أنا لست المسيح، ولا إيليا، ولا النبي، وانما بكل بساطة: "صوت صارخ في البرية: "سهّلوا سبيل الرب". ونتذكر أن الأمر، في المقدمة الشعرية، كان يتعلق بيوحنا الذي كان يؤدي شهادة للكلمة المتجسد؛ والآن يتوضح لنا جيداً ما هي الشهادة المقصودة.

٢. في الوقت الثاني (الآيات ٢٥-٢٨)، يعطي المعمذان جواباً بصيغة إيجابية. فهو يقول من هو، ولكن دوماً في علاقة مع آخر أكبر منه: "بينكم من لا تعرفونه، ذاك الآتي بعدي، من لستُ أهلاً لأن أفك رباط حذائه". فمن المهم أن نلاحظ التقديم المتدّرج ليسوع: لقد بدا، أولاً، بصورة عامة، بصفته الكلمة؛ وها هو الآن يبدو غير المعمذان.

٣. في الوقت الثالث (الآيات ٢٩-٣٤) يُقدَّم يسوع جلياً وكأنه يخرج من الظل: "في الغد، رأى يسوع آتياً نحوه فقال: "هوذا حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم. هذا الذي قلتُ فيه: يأتي بعدي رجل قد تقدَّمني، لأنه كان من قبلي (...) ورأيت الروح ينزل من السماء وكأنه حمامة فيستقرّ عليه (...) وأنا رأيتُ وشهدتُ أنه هو ابن الله". ان هذه الشهادة التي تؤدى ليسوع ذات غنى خارق: انه حمل الله، وهو ذاك الذي عليه يستقر الروح، وهو ابن الله. ان السر الذي سبقت المقدمة الشعرية فأعلنته يُعبَّر عنه الآن بصورة روائية.

الكلمات المفاتيح

١. ان الكلمة/المفتاح الأولى هي دون شك "**حمل الله**" في الآية ٢٩، وستُكرر في الآية ٣٦. فحمل الله هو ذاك الذي يرفع –أو يأخذ على ذاته– خطيئة العالم.

٢. ثم تأتي كلمة "**الروح**" التي تُذكر ثلاث مرات. لنلاحظ انه لم ترد إشارة إلى الروح في الآيات الثمانية عشرة الأولى. فيوحنا المعمذان، بعد أن أشار إلى العلاقة بين الآب والابن، أدّى الشهادة للروح الذي نزل على يسوع.

٣. ان لقب "**ابن الله**" جُدد هنا احتفالياً بعد أن أُعلن عنه في المقدمة الشعرية.

٤. اما الكلمة/المفتاح الأخيرة، فهي "**الشهادة**" التي نجدها في مطلع هذا المشهد وفي نهايته: "وهذه هي شهادة يوحنا (الآية ١٩)؛ "وشهد يوحنا" (الآية ٣٢) "وأنا رأيت وأوكد (= أشهد)" (الآية ٣٤).

انه لأمر ذو معنى أن يتضمن الإنجيل الرابع كلمة الشهادة ثلاثاً وثلاثين مرة، من أصل ٧٦ مرة في العهد الجديد كله (أي ما يعادل قرابة النصف عند يوحنا). وسيكون من المفيد أن نعمّق هذه التعابير المتميزة التي وردت في إنجيل يوحنا، سيما –كما قلتُ سابقاً– واننا لا نلقى أبداً في هذا الإنجيل فعل "بشَّرَ"، ولا عبارة :إنجيل". وهكذا توجَز خبرة التلميذ كلها في الكلمة/المفتاح: "**يشهد**" أو "**يؤدي الشهادة**".

مقارنات مع الإزائيين

في ختام "**قراءتنا**"، نتساءل: ما هي العلاقة بين رسالة المعمذان بحسب الإنجيل الرابع، ورسالته كما يقدمها لنا الإزائيون؟

إذا راجعنا نصوص متى ومرقس ولوقا، استطعنا أن نلاحظ انهم يتكلمون بنوع أوفى عن المعمذان: أصوله العائلية (انه ابن زكريا واليصابات)؛ صورته بصفة نبي صارم ومتقشف؛ حياته القشفة جداً في البرية حيث كان يلبس ثوباً من وبر الابل، ويتغذى بالجراد وعسل البر. ولوقا بالأخص يتوقف طويلاً عند العبارات الشديدة التي كان يوحنا يوجّهها إلى الجموع، وبضمنها نبرة كرازته الأواخرية: "هي ذي الفأس موضوعة على أصل الشجرة".

لا نلقى شيئاً من هذا في نص القديس يوحنا الذي همه الأوحد تسليط الأضواء على طريقة يوحنا المعمذان في **الشهادة ليسوع الآتي**.

٢. التأمل في المقطع

أودّ أن أقترح عليكم ثلاث طرق للتأمل.

١. في الإنجيل الرابع، ما هي رسالة المعمذان في كل غناها؟

نعلم أن يوحنا لا يقدّم لنا سوى بضعة أشخاص، وملامحهم جميعاً مشبعة بالمعاني.

فالمعمذان، في نظره **رمز لجميع الأنبياء الذين يعلنون يسوع**، فهو يوجز الإنباء الصريح أو الضمني بالمسيح، في الكتاب المقدس. انه نبي الشهادة النهائية؛ وفي وسعه أن يكون ذلك، لأنه يبدو بكليته ذا صلة بيسوع؛ انه ذاك الذي يفرح، بل يبتهج فرحاً بسبب مجيء الرب، ومن ثم يختفي!

انه أيضاً رمزٌ للبشرية التي تنتظر... بشرية يبدو انتظارها شاهداً ليسوع الذي سيأتي. بهذا المعنى، يصف يوحنا المعمذان خدمة الكهنة بصفتها خدمة اعلان

وانتظار في آن واحد، وكان القديس أوغسطينس يقول: "معكم، أنا مسيحي، ولأجلكم أنا أسقف". "معكم"، لأني أنا أيضاً انتظر يسوع؛ "لأجلكم" لاني أُعلنه واشهد له.

٢. ما هي الصلة بين شخص المعمذان وبين **نضج المسيحي** والكاهن؟

للجواب على هذا السؤال، لنتذكر مقطعين آخرين يقدّم فيهما الإنجيلي شخص يوحنا المعمذان في الفصلين الثالث والخامس.

ينقل لنا الفصل الثالث، في الآية ٢٢ وما يتبعها، خلافاً ثار بين تلاميذ يوحنا وتلاميذ يسوع. "فجاؤوا إلى يوحنا وقالوا له: "رابي، ذاك الذي كان معك في عبر الأردن"، ذاك الذي شهدت له، ها إنه يعمّذ فيذهب إليه جميع الناس". انها حالة حسد بين زعيمين يتجابهان. إلا ان جواب يوحنا هو نموذج لرسالته، إذ يكرّر ما كان قد أكّده سابقاً، مضيفاً إلى ذلك بعض التفاصيل الجديدة: "أنتم بأنفسكم تشهدون لي بأني قلت إني لست المسيح، بل مرسَل قدامه. من كان له العروس فهو العريس، أما صديق العريس، الذي يقف يستمع إليه، فانه يفرح أشد الفرح لصوت العريس. فهوذا فرحي قد تمّ. لا بدَّ له من أن يكبر ولا بدَّ لي من أن أصغر"! ان هذه الكلمات الأخيرة تدل، بأوضح صورة ممكنة، على الارتباط بين شخص المعمذان وبين النضج المسيحي والكهنوتي. فالمعمذان هو الإنسان الذي يترك المكان ليسوع، عارفاً كيف يُظهر ملئه، وهو الذي يجب أن يكبر في القلوب.

❁ ونلمس هنا موضوعاً أساسياً **للمسيرة الراعوية** كلها، فيما يتعلق بالإرشاد الروحي وبالعلاقات مع الناس. فنحن، بالخدمة الراعوية، نمارس نوعاً من الريادة، بحيث إذا عشناها جيداً، أصبحنا دليلاً ومرجعاً للأشخاص؛ ولكنه من المهم جداً الا يصبح المرجع مطلقاً، بل أن يبقى في صلة مع يسوع. وعلى الكاهن أن يفحص ذاته في هذا الموضوع. فهو، من جهة، ذاك الذي يجمع الأشخاص، ومن ثمة يحتاج إلى أن ينعم بشيء من الإجماع، ويتحلى بشيء من الجاذبية، ويمارس بعض التأثير في قلب كل إنسان. ولكنه يجب عليه، من جهة أخرى، أن يعرف كيف يختفي ليترك المكان ليسوع.

أن يمحور المرء كل شيء حول ذاته، فتلك تجربة لا يسلم منها حتى كبار المواهبيين الملهمين الذين حرّكوا واجتذبوا جموعاً لا تُحصى. وهذه التجربة تهدّد كلاً منّا، و لم تُقهر دوماً كما ينبغي.

فإذا صحَّ الأمر ان الكاهن، باختياره طريقة حياته، يتخلى عن سلطة الغنى العالمية وعن النجاح السياسي وعن التدرج في المناصب...، فصحيح أيضاً أن امكانية هائلة تنفتح أمامه لممارسة السلطة، سلطة روحية هي إحدى أكبر السلطات، لأنها تمسّ حقيقة الأشخاص الحميمة. هذه السلطة الروحية قد يتعرض المرء للرغبة فيها لذاتها، ويتمنى أن ينعم وينتفع بها. ان تاريخ بعض المؤسسات، في مسيرة الكنيسة، موسوم بهذه الانحرافات. ويبدو لي ان شخصية المعمذان، كما يقدمها الإنجيل الرابع، تجيب إلى التجربة التي يتعرض لها الكاهن حين يضع نفسه في المركز: فالمعمذان يجتذب الجموع إليه، ولكن كي يقودها إلى يسوع. ويسوع نفسه يعلن: "أنتم أرسلتم رسلاً إلى يوحنا، فشهد للحق" (٥: ٣٣).

أظن ان العلامة الحقيقية للنضج المسيحي هي، إذن، أن يعرف الإنسان كيف يقرن القدرة على اجتذاب الناس مع القدرة على قيادتهم إلى يسوع: فهو يجب أن ينمو، وعليّ أنا أن أنقص.

❁ ان لشخصية يوحنا المعمذان أيضاً قيمتها **لحياة الصلاة**. ففي بدء حياتنا الروحية، وبصورة غير واعية ولا ارادية، نضع أنفسنا في المركز: نحن نحاول أن ننظّم صلاة يكون التعبير عنها لائقاً، وتبدو جميلة أمام الله، مع الرغبة في أن يكون لحوارنا الداخلي نتائج جيدة لحياتنا الحميمة. وحينما يسألنا شخص ويقول لنا: علمني أن أصلي، فهو يعني بذلك: علمني أن أشعر بسلام مع ذاتي، وأن أحيا في باطني في السلام والهدوء والصفاء. تلك ولا شك قيم، ولكنها تبقى ثانوية؛ فهي ليست قيماً قصوى، وقد تصبح بمثابة أصنام، فتمنع الإنسان من أن يفهم ماذا تعني صلاة نرفعها في ساعات الملل والمحنة والحزن.

تشهد الصلاة الحقيقية في الواقع لغيرية الله. انها صلاة "سلبية" حيث تقلّ التعزيات، وحيث روح الله يستحوذ علينا في الظلمة، لكي يطهّرنا في نار غير

منظورة، نشعر بآلامها من دون أن نشعر بمفاعيلها الخيرة. فللدخول إلى الوجه السالب من الصلاة، يقتضي القيام بخطوة دقيقة جداً؛ انه وقت اجتياز صعب جداً. فمن المحبَّذ إذ ذاك أن يساعدنا صديق أو مرشد روحي أو دليل لئلا نسقط في "الطياشة" والكسل، ولكي، من خلال ليل الإيمان والرجاء، يستطيع يسوع أن يصبح سيد قلبنا.

خلال حج قمت به إلى أسبانيا، على خطى القديسة تريزة الأفيلية (الكبيرة) والقديس يوحنا الصليبي، قدَّمت تأملاً في "القراءة الربية"، وشرحتُ أن القراءة الربية تهدف إلى أن تصبح بسيطة أكثر فاكثر؛ وهي تقود إلى "سلبية" أكبر، ولكن بدون فقدان الاحتكاك بالنص؛ وهكذا تصبح أكثر بساطة وأكثر تواضعاً وأكثر هدوءاً وأكثر كتماناً.

يبدو لي، إذن، أن يوحنا المعمذان يوجّه رسائل قاسية إلى تاريخ الكنيسة، وإلى النشاط الراعوي، وإلى الروحانية، وذلك بالضبط بسبب مرجعيته إلى يسوع، وبسبب الفرح النابع من قبوله بان يتوارى لكي ينمو الرب. انه لدرس صارم ورفيع جداً لا يصلح للمبتدئين، وإنما للمسيحيين البالغين في الإيمان؛ وهذا الدرس يناديناويقول: هل أعطي، شيئاً فشيئاً، الموضع كله ليسوع، في حياتي المسيحية أو الكهنوتية؟ وهل أعطي الروح كل القدرة لكي يعمل في صلاتي؟

٣. لنتوقف أخيراً عند تسمية أساسية أطلقها يوحنا المعمذان على يسوع: "هوذا **حمل الله**، الذي يرفع خطيئة العالم" (يو ١: ١٩-٣٤). ومن الجدير بالذكر أن نعمق هذا التعبير الذي امتدّ استعماله إلى الليتورجيا. نحن نهتف به في الاحتفال بالافخارستيا، حينما يُعرض جسد المسيح للمؤمنين. لم يرد هذا التعبير سوى مرتين في إنجيل يوحنا: هنا في ١: ٢٩ وفي ١: ٣٦: "حدَّق (يوحنا) إلى يسوع وهو سائر وقال: هوذا حمل الله!".

ويرد هذا التعبير مرتين في العهد الجديد: في سفر أعمال الرسل ٨: ٣٢: إذ كان خصي (خازن) ملكة الحبشة عائداً إلى وطنه وبيته، وهو جالس في عربته يقرأ سفر أشعيا النبي (٥٣: ٧-٨): "كخروف سيق إلى الذبح، **وكحمل** صامت بين

يدي من يجرّه. هكذا لا يفتح فاه". وفي رسالة بطرس الأولى (١: ١٨-١٩) حيث يوجه بطرس كلامه إلى المسيحيين، قائلاً: "قد علمتم أنكم افتديتهم (...) بدم كريم، دم **الحمل** الذي لا عيب فيه ولا دنس، دم المسيح...".

ولا نجد أي مرادف آخر للّفظة اليونانية "*amnos*" التي استخدمها الإنجيلي ووضعها على لسان المعمذان.

على أي حال، انها كلمة حاسمة، "حمل الله"، طالما كانت كافية للتلميذين كي يتخذا القرار في اتّباع يسوع: "فسمع التلميذان كلام يسوع وتبعاه" (١: ٣٧).

ماذا تحتوي هذه الكلمة من سر وتعليم؟ لا شك انه تعليم جديد، في نهج الإنجيل الرابع: كانت المقدمة الشعرية قد قدّمت يسوع أولاً بصفته حياةً ونوراً يضيء كل إنسان؛ ثم قدّمته بنوع أوضح بصفته ذاك الممتلئ نعمة وحقاً، ابن الآب الوحيد. ولا نجد اية إشارة إلى الفداء وإلى الصليب، إلى موت الكلمة المتجسد، حتى وإن كانت هذه الحقائق ماثلة، ولكن محتجبة. لنتذكر الظلمات التي ترفض النور، والعالم الذي لم يعرفه، وأهله الذين لم يقبلوه و لم يصغوا إليه: هكذا يكشف الإنجيلي قليلاً الستار عن المأساة. وسيبدأ بتوضيح هذه المأساة عبر يوحنا المعمذان الذي يشير إلى يسوع بصفته "الحمل"، قاصداً بذلك الذبيحة الدموية.

❁ لنرَ معاني عبارة "**حمل الله**". أذكّر بثلاثة توجهات للشرح: التأويلات متفاوتة في نظرة المفسرين، ولكنها تستطيع ان تتحد في قراءَة تأملية وشاملة للنص.

التوجه الأول يتعلق بنص أشعيا ٥٣ -وهو النص الذي ورد في سفر الأعمال ٨: ٣٢-: حمل الله هو خادم الرب الذي يبذل حياته في سبيل الكثيرين. وبدافع دعم هذا التفسير، يلاحظ البعض ان الكلمة نفسها، في اللغة الآرامية، يمكن أن تعني الخادم، أو الابن، أو الحمل. ويفترضون أن يوحنا المعمذان كان قد أعلن: "هوذا خادم الرب"؛ وان الترجمة اليونانية فضلت كلمة "حَمل"، انطلاقاً من الأصل الآرامي. لا يبدو لي من الضروري أن ألتجئ إلى هذا التمييز، لأن سياق أشعيا ٥٣ -وهو سياق الخادم أو العبد المتألم- حاضر حتماً في عبارة "حمل الله".

والسبيل الثاني يقدّمه لنا المفسرون الذين يرون أن الحمل الذي يرفع خطيئة

العالم يجب أن يكون مرتبطاً بالحمل المنتصر بحسب سفر الرؤيا، حيث ورد تسعاً وعشرين مرة ذكر لفظة "*arnion*" وليس "*amnos*". فمنذ البدء، يتوجه سفر الرؤيا نحو رؤية الحمل المذبوح والمنتصر، وهو، في الحقيقة، يرفع الخطيئة والظلم، محتملاً ما ندعوه "غضب الله".

فإذا كان السبيل الأول يشدد على الوجه الذبائحي، فان ذكر "أرنيون" في سفر الرؤيا، يسلط الأضواء على وجه **الانتصار** على الشر، وعلى سلطة الخطيئة والموت.

والخط الثالث للتفسير، وهو ذو انتشار واسع، يقرأ، في كلمة يوحنا المعمذان، **الحمل الفصحي** الوارد في سفر الخروج، ذلك الحمل الذي كان دمه المسكوب على جانبَي الباب وعلى عتبته العليا... يحفظ بني إسرائيل من الإبادة (راجع خروج ١٢: ١-١٤).

وأنا شخصياً أعتبر أن هذه السبل أو التوجهات الثلاثة جديرة بالاعتبار وتصلح لتأمل جامع وعميق: بذل الذات كذبيحة؛ انتصار يسوع على الخطيئة والموت؛ الحمل الفصحي الذي أتاح الخروج من مصر لشعب اجتاز من الظلمات إلى النور، ومن العبودية إلى الحرية.

❁ سعينا إلى أن نفهم فهماً أفضل معنى القسم الأول من عبارة "هوذا حمل الله"، وبقي علينا أن ندرس القسم الثاني: "الذي **يرفع** خطيئة العالم".

"يرفع"، باليونانية، "*airon*"، بمعنى: يشفيها، يغلبها، ينتصر عليها، يلاشيها، يزيلها. ويستعمل إنجيل متى (٨: ١٧) فعلاً آخر حينما يذكّر بنص أشعيا: "**أخذ** أسقامنا"، خطايانا.

ولكننا بصدد إنجيل القديس يوحنا. يؤكد ليون-دوفور أن المعمذان لا يتكلم عن خطايا الناس، بل عن خطيئة العالم، فهو يقصد الفوضى التي تسبب خراب المجتمع البشري كله. هناك ارتباط بين حالة عالمنا الحاضرة المعرَّضة للفوضى والارتباك وبين عدم قبول الله. وهنا يتضح ان الخطيئة الأساسية ليست الخطيئة الأصلية، بل رفض النور الذي هو الكلمة. إلا ان الله، في يسوع، يرفع (يزيل) هذه الخطيئة التي هي في أصل الخطايا كلها.

أقترح عليكم أن تصلّوا هذا القسم الثاني من عبارة يوحنا المعمذان: الرب يدعونا إلى التأمل في حمل الله لكي لا نخاف من خطيئة العالم. انه لمن السهل اليوم أن نشخص الخطيئة: لنفكر في الضغائن وأصناف العنف، في الحروب التي تلطخ بالدم شوارع العديد من البلدان... فخطيئة العالم هي نوع من اللولب الدائم الذي يُفزع، إذ يستطيع أن يمتد دوماً إلى أبعد.

وهناك مظهر آخر لخطيئة العالم: هو الجوع والظلم والأضرار التي تلحق بالعديد من الشعوب. وهناك أيضاً ثورة الغرائز الجنسية غير المرتبة التي تسبب الكثير من المآسي في كل مكان. وكيف لا نذكر الخصومات التي يثيرها الحسد والتي تفسد العلاقات وتميت الثقة ومعنى المجانية.

ان حمل الله يرفع خطيئة العالم هذه.

والرسالة التي يحملها هذا المقطع (وهو ليس سوى وعد، إذ لا يوضح لنا كيف سيرفع يسوع هذه الخطيئة) تشجّعنا وتحثنا على ألا نخاف، وألا نفزع، بل أن نظل واثقين. وهو يقول لنا: أنتم جميع الذين انغمستم في خطيئة العالم، وقد تشعرون في ذواتكم بشيء من التواطؤ معها... كونوا ممتلئين من الرجاء، لأن الرب جاء لكي يبدّد الظلمات ويضع حداً للولب الحقد والعنف والخصومة الحاسدة التي تعصف بالعالم. الرب يأتي، وليس كما كان يوحنا المعمذان يعتقد –ليقوم بعقاب التطهير، عقاب يسحق أعداء الله–، بل من أجل تطهير أكثر سرية، تطهير ينجزه الحمل المذبوح.

أيها الرب يسوع، لقد جئت لترفع خطيئة العالم، ولكي تلغي الفوضى التي نحن مسؤولون عنها، وتتيح لنا أن نتجاوز الشدّة، ونتغلب على العزلة التي نشعر بها أحياناً أمام مظاهر هذه الخطيئة. فأنت يا رب هنا، بيننا، لكي تحرّرنا؛ ونريد أن نسير في إثرك، مدركين أن لديك مفتاح سر التاريخ، ذلك المفتاح الذي هو الصليب، وقد أخذت على ذاتك انعكاسات الخطيئة، لكي تمحوها وتلغيها.

تكوّن أقوال الشاهد يوحنا المعمذان نوعاً من المدخل أو الفجر الذي يتيح لنا أن نرى كيف يتغلغل إنجيل يوحنا في قلب التاريخ، وكيف يلقي ضوءاً على أحداث زماننا، مانحاً ايانا ما يمكّننا من أن نفسرها.

٣. المبدأ والأساس

في التقليد الأغناطي، يأتي المبدأ والأساس كمقدمة لمسيرة التمارين الروحية، وهذه المقدمة توضح لنا ما هي الخلفية، وما هي عناصرها الاساسية. انها تكشف عن الطريق الذي يجب السير فيه، بحيث تضمن الوحدة والدينامية لمراحل الصلاة التي ستتبعها. ففي الإنجيل الرابع، وقد صمّم ليسهّل نمواً دينامياً نحو النضج المسيحي، هل نجد ما يشبه المبدأ والأساس؟

يبدو لي اني أستطيع أن أُجيب بنعم، مع الإشارة إلى أن المماثلة تبقى بعيدة، لأن الإنجيل سيتجاوز دوماً وجهة النظر البشرية. ولكننا إذا تأملنا المقدمة —الشعرية والتاريخية– نلاحظ أن الرواية تقدّم لنا —في شكل جدارية متناسقة– مذاقاً مسبقاً للمسيرة القادمة وللمواضيع الكبيرة التي ستُستأنف في المقاطع التالية.

فما هو المبدأ والأساس للتلميذ الذي يرمي إلى اتّباع الطريقة التي يعرضها الإنجيلي.

❁ ان قلب المقدمة ونقطتها المركزية هي أن الكلمة المتجسد يُظهر مجد الله. وهذا ما يجعل الإيمان جاداً، فيصبح بمثابة الإثارة الأساسية. نحن لسنا مدعوين إلى الإيمان بالله فحسب، بل إلى الإيمان بأن الكلمة الأزلي الذي كان عند الله، يكشف عن ذاته، ويكشف لنا مجدَ الآب، من وراء ملامح التواضع والمهانة، وقد صار واحداً منّا. انها المعثرة الكبرى عند يوحنا.

نحن مدعوون لنؤمن بأن الجسد الذي اتخذه الكلمة يولي التاريخ معنى وينيره: الخلاص بالجسد، يقول اوريجانس. فالتلميذ الذي كان يسوع يحبه يدعونا إلى ان نعمل، بقلب طفل، على إعلانه، وعلى مرأى العالم، وإلى ان نستسلم بين يدي الآب، ويقيننا أنه سيقودنا بمحبة.

هذه هي البواكير، وهذه هي القاعدة والأصل، وهذا هو أساس الإنجيل الرابع كله.

❁ ان ما كانت المقدمة الشعرية قد عبّرت عنه بلغة رقيقة جداً، لغة المشاهدة، يُعاد في المشاهد الثلاثة من المقدمة النثرية، مع التأكيد بصورة خاصة على أن الكلمة الذي أخذ بشريتنا "جاءَ وسكن بيننا".

لقد توقفنا عند المشهد **الأول** -شهادة المعمذان- حيث يُقدَّم يسوع بصفته حمل الله، وابن الله. "حمل"! ذلك يشير إلى تواضعه، وعطبه، واحتمال آلامه الذبائحية، وعطاء ذاته حتى الموت، موت الضحية الفصحية، في سبيل خلاص الجميع. نحن، إذن، بازاء رواية تعمق صورة الله كما رُسمت في الآيات الثمانية عشرة الأولى من الإنجيل: فالله الذي يخلّص، والذي يجابه الظلمات وينتصر عليها، يجعل ذاته صغيراً، وضعيفاً وقابلاً للألم، من خلال الكلمة المتجسد، من خلال يسوع.

المشهد **الثاني** هو **لقاء يسوع بتلاميذه الأوائل**. انه يسلط الأضواء على مشروع الخلاص نفسه الذي عبّرت عنه المقدمة الشعرية.

وتأتي الآيتان ٣٥ و٣٦ بمثابة مقدمة: "وكان يوحنا في الغد أيضاً قائماً هناك، ومعه اثنان من تلاميذه. فحدَّق إلى يسوع وهو سائر وقال: "هوذا حمل الله!".

هنا أيضاً لا يظهر الكلمة المتجسد —وقد رأينا فيه مجد الآب- في بهاء باهر بوسعه أن يقلب الأزمان والأمكنة في حياة الناس اليومية. فيوحنا المعمذان يشير باصبعه إلى يسوع، وإذا بالتلميذين يسيران وراءَ "حمل الله" الذي يجعل ذاته رفيقاً لهما، بصورة ملؤها اللطف والمودّة: "ماذا تريدان؟" (...) هلما فانظرا" أين أقيم. وإلى اندراوس والتلميذ الآخر، ينضمّ بعدئذ سمعان بطرس وفيلبس ونثنائيل، ولكل منهم كلمة من يسوع؛ فيقول لسمعان: "أنت ستدعى كيفا" أي صخراً، اني أعرفك معرفة حميمة؛ ويقول لفيلبس: "اتبعني"؛ ولنثنائيل: "وأنت تحت التينة رأيتك!". ان لقاءات "ذاك الذي جاءَ ليسكن بيننا" تتسم بكياسة ودّية؛ وهي تكشف عن طريقة الله في جعل ذاته قريباً منّا، بحنان وتفهّم وجودة ومودّة.

وهذا كله يقودنا إلى قمة المشهد **الثالث** من المقدمة النثرية: عرس قانا حيث يُظهر الكلمة المتجسد مجده، عبر بساطة عرس يُحتَفل به، في منزل عائلة مجهولة، وفي قرية صغيرة. كان العيد قد أوشك أن يتعكر بسبب حدث تافه —نقص في الخمر- وعادت البهجة إليه بحضور يسوع وبتدخّل مريم الخفر. ويرمز هذا المشهد أيضاً إلى عهد الله مع شعبه، إذ يُظهر كيف أن يسوع، بتواضع وبطريقة خفية وصامتة -وكأنه لا يريد أن يُظهر نفسه- قادر أن يغيّر احتياجاتنا، أي تلك الاحاجين

الحجرية الكبيرة الفارغة، إلى منابع الفرح والصداقة الحية ... فالسياق هـو، إذن، عائلي وقريب منّا جداً.

وفي الختام، يطلعنا الإنجيلي على أن الصورة التي نحملها عن الله وعن عمله في العالم يجب أن تجد مرجعها في حضور الكلمة المتجسد الذي يندرج في الأحداث اليومية، الأمس واليوم. هذا هو المعنى الشامل للمقدمتين. وتلك هـي الاطروحـة الأساسية للقديس يوحنا، مبدأه وأساسه. ولكنها أيضاً منطلق لطريـق ذاك الـذي –كاهناً كان أم علمانياً– كي يصبح بالغاً في الإيمان، هو مدعو إلى أن يتحرر مـن كل أشكال التوافه كي يتسنى له ان يكتشف الأساسي.

أما تتمة الإنجيل الرابع، حتى موت يسوع وتمجيده على الصليب، لا بل قبل قيامته، فستتوسع في مشروع الخلاص هذا، وهو أيضاً مشروع الصـداقة والقـربى الرقيقة. انه المشروع الذي تحاول الظلمات تفخيخه، إلا ان الكلمة المتجسد سيحققه كاملاً برفعه خطيئة العالم، وأخذها على ذاته، ومقدّماً ذاته للآب ذبيحة طاهرة.

هذه هي النار التي يريد يوحنا إضرامها فينا وفي كل من يقرأ إنجيلـه، وفي كل من يتأمل المقدمة: لقد عبّر الله عن ذاته، بنوع كامل ونهائي، في يسوع. ووفقاً لما كتبه كاسبر في أحد كتبه، يمكننا أن نعبّر بالشكل التالي: "ان لقاءَنا مع الله لا يتم بنفينا كل ما هو واقعي ومحدود؛ وانما يجري بمنتهى أشكال الواقعية، في تاريخ يسوع الناصري وفي مصيره"

ان إعادة النظر، على هذا الضوء، في المفهوم الذي نحمله عن الله يُثير أزمة، لا بل ثورة في طريقة تفكيرنا في الله. ذلك لأن الله يظهر قدرته، حتى في الضـعف؛ كما يتجلى لاهوته أيضاً في حريته على المغفرة، وفي محبة من لا يستحقها، وفي عطاء ذاته لأصغر إنسان، ولأضعف إنسان، وفي اختياره الخاطئَ والجريح للاعتنـاء بـه وشفائه. وهذا كله نجده ملخَّصاً وموجَزاً في هذا الإعلان: "والكلمة صـار بشـراً فسكن بيننا، ورأينا مجد الله متجلّياً في هوان الموت على الصليب".

" ... فأقاما عنده ذلك اليوم "

إلى أين يقودنا القديس يوحنا

بعد أن وضعتُ المبدأ والأساس للإنجيل الرابع، يبدو لي من المفيد أن نتساءَل عن نهاية المسيرة التي يعرضها يوحنا.

في التأمل الأول، عبَّرتُ عن هذا الأمر بوساطة المفاتيح الأربعة لقراءة النص. إلا أن ذلك كان بعبارات نظرية: اكتمال، ملء، الإيمان الذي يقتضي الثقة والاستسلام؛ الفرح. وبالإضافة إلى ذلك، ذكّرت كيف أن هذا الهدف الذي يؤكد على طبيعة النضج المسيحي يتضمن توازناً بين مختلف المعطيات: الانتروبولوجية واللاهوتية والكريستولوجية والإنجيلية والنسكية.

سأتكلم عن "**الصداقة**"، لكي أوضح بكلمة أكثر واقعية ما هي نقطة الوصول.

أجل، ان الصداقة تتوّج مسيرة من العلاقة. انها الملء (*telos*)؛ وهي أيضاً الملء (*pletos*) من احتكاكات ودّية عميقة. فالصداقة تحيا في مناخ من الثقة، وتقود الإنسان إلى الاستسلام كلياً إلى الآخر، وتتيح له أن يشعر بارتياحٍ كامل مع الآخر. فالصداقة، دون أدنى شك، هي مصدر فرح، وينبوع يتدفق فرحاً عميقاً. ويبدو لي ان هذا النموذج الأعلى للصداقة بين الإنسان والله يوجز جيداً رسالة يوحنا الذي يستعمل كلمات "*philos*" و"*philein*" للكلام عن العلاقة الحميمة مع

يسوع. من المؤكد ان كلمة "صداقة" هذه يجب أن تُفهم بالمعنى الواسع، الفلسفي واللاهوتي. في مفهوم أرسطو، تشكل نواة الحياة في المدينة؛ إذ يعتبر ان المدينة Sلا ترتكز الا على العدل، ولكن قبل كل شيء على الصداقة. وقد كتب: "يبدو ان النقطة القصوى للعدالة تعود إلى طبيعة الصداقة"، ويصف الصداقة بصفتها ذلك الشيء الذي بدونه "لن يختار أحد أن يحيا، حتى ولو كان يملك الخيرات كلها (الأخلاق ٨، ١، ١١٥٥، أ- ١٦).

ويتبنى القديس توما هذه القراءة حينما يقدّم مسيرة الإنسان وعلاقته بالله بمفردات الصداقة.

في موضوع الصداقة هذا، من المفيد أن نقرأ كتاب زايسا ماريتان "الصداقات الكبيرة"، والكتاب الآخر الذي ظهر حديثاً، وقد اشرت إليه سابقاً، وعنوانه "*I tre Maritain*" ، وفيه يقدّم المؤلف شخصيات جاك ورايسا وفيرا معتبراً وجودهم بمثابة حياة صداقة عميقة، لا بل نوعاً من انعكاس سري لحياة الثالوث. لقد كانت علاقاتهم الودية الخارقة العادة متأصلة في حياة مشتركة حيث كان كل منهم يحيا بملء ذاته، ولكنه يشترك في إشاعة مناخ من الأمانة والاستقامة والتعاون المتبادل. ولا يسعنا أن نشرح مسيرة جاك ماريتان الفلسفية بدون هذا الأساس السايكولوجي والعاطفي.

أودُّ، إذن، أن أذكّر ببعض نصوص من يوحنا حيث تظهر الصداقة بمثابة الكلمة/المفتاح.

١. الصداقة في الإنجيل الرابع

المقطع الأساسي نجده في ما سميتهُ "**كتاب الكشف**" أي ذلك القسم من الإنجيل الذي فيه يتكلم يسوع علناً، في حين كان من قبل قد عبَّر عن أفكاره بواسطة **الآيات**.

"قلت لكم هذا ليكون فيكم فرحي، وليكون فرحكم كاملاً" (عالم الفرح، الفرح المقتسم، والملء). وبالنتيجة، كانت هذه الوصية: "أحبّوا بعضكم بعضاً كما أنا أحببتكم". هذا هو قلب الوحي الأخلاقي في إنجيل يوحنا. فوصية يسوع الوحيدة، في كتاب الآيات، هي ان نؤمن، وفي كتاب الوحي، هي أن نحب: "ليس من حب أعظم من أن يبذل الإنسان نفسه عن أحبائه" (وباليونانية: عن أصدقائه). فكلمة "الصداقة" هي التي ترد هنا لكي تعبّر عن هذا الحب الكبير الذي دُعي الرسل أن يحيوه بمحبة بعضهم حباً متبادلاً، كما أَحبهم يسوع. "أنتم أحبائي (أصدقائي) إذا عملتم ما أوصيتكم به". فالصداقة مرتبطة بالأمانة، وبتصرف موسوم بالطاعة.

"لا أدعوكم خدماً بعد اليوم، لأن الخادم لا يعلم ما يعمل سيدُه، فقد دعوتكم أحبائي (أصدقائي)، لأني أطلعتكم على كل ما سمعته من أبي" (١٥: ١١-١٥).

حبذا لو تأملنا طويلاً هذه الكلمات المثيرة التي تدلنا على نقطة الوصول، اي على هدف مسيرتنا. ذلك ان يسوع، بعدما عشنا مثل عبيد مثابرين، يريدنا نصبح أصدقاء أمناء؛ وفي وقت لاحق، ازاء سر الموت، سنُدعى لنكون عاشقين مسحورين، ونحيا جنون الصليب! ولكن من الآن، المهم هو الطريق الذي يقودنا إلى الصداقة الأمينة، وإلى علاقة مع الله، لا تقوم فقط على مجرد طاعة العبيد، بل تكون بمثابة علاقة صداقة حميمة ونزيهة.

لنُشِرْ بالمناسبة إلى أن كلمة "الصداقة" (*philos*) ظهرت للمرة الأولى في الآية ١٣. ويوحنا هو الإنجيلي الوحيد الذي يستعمل كلمة "*philos*" للتعبير عن علاقة يسوع بتلاميذه، وعلاقة التلاميذ به (علاقة الإنسان بالله). ولا تُستعمل هذه اللفظة، لدى الازائيين، إلا بمعنى الصداقة البشرية ("وتصادق هيرودس وبيلاطس يومئذ ..." لوقا ٢٣: ١٢).

٢. أصدقاء يسوع

بعد أن ذكّرتُ بالنص المركزي للإنجيل الرابع، سأحاول أن أرسم ملامح ستة أصدقاء ليسوع، ومن خلالهم نرى أين يقودنا يوحنا: إلى صداقة حقيقية وعميقة مع يسوع.

١. الصديق الأول الذي نتأمله هو من البديهي **يوحنا المعمذان**. فهو، ولو أعلن ذاته غير أهل ليحل سيور حذاء يسوع، إلا انه "صديق العريس (...) وصوت العريس يفعمه فرحاً". اننا نكتشف فيه صورة صداقة بالغة؛ ومحبته هي على مستوى من الحرية والتجرد إلى حدّ انه يستطيع أن يؤكد: "عليه أن ينمو، وعليَّ أن أنقص". انه صديق حقيقي، لا يهتم بنفسه، بل بالآخر. ولا أثر فيه للحسد أو لحب التملك. ويختلف المعمذان كثيراً عن الشخصيات الإنجيلية الأخرى، عن نيقوديمس مثلاً، الذي، كما سنرى، لا يفكر إلا في دوره، ولا يرتكز على يسوع.

٢. صورة ثانية للصداقة: **التلميذان** اللذان يقتربان بخجل من يسوع، واللذان حينما يسألهما يسوع بكل لطف: "ماذا تريدان؟" يجيبان: "رابي، أين تقيم؟"، وهما بذلك يريدان أن يقولا انهما يرغبان في أن يكونا من أصدقائه (يو ١: ٣٥-٣٩). ويدعوهما يسوع: "فذهبا ونظرا أين يقيم، فأقاما عنده ذلك اليوم". فالصداقة تأخذ هنا بُعداً أليفاً من الحميميّة، وعيش الساعات الطويلة معاً. لنذكر في هذا الشأن ما كتبه مرقس حينما اختار يسوع تلاميذه "ليكونوا معه" (٣: ١٤). فالصداقة الحميمة مع الرب هي نقطة أساسية لمسيرة المسيحي البالغ، والرسول، والكاهن.

٣. وهناك صداقة يسوع مع **مرتا ومريم**. يشير يوحنا بوضوح أن "يسوع كان يحب مرتا واختها مريم ولعازر" (١١: ٥). ولأن يسوع يحبهم محبة عميقة، نراه مدفوعاً إلى إقامة علاقة صداقة معهم، وقبول ضيافتهم، والشعور بارتياح حقيقي

عندهم، في بيت عنيا، وبكل حرية. وهذه المحبة تلتقي بقوة مع المحبة التي تكنّها له الأختان. وستلقى مريم ثناء على خدمتها المفعمة بالمحبة، خلال عشاء أقيم ليسوع هناك: "فتناولت مريم حقةَ طيب من الناردين الخالص الغالي الثمن، ودهنت قدمَي يسوع، ثم مسحتهما بشعرها. فعبقَ البيت بالطيب" (١٢: ٣). انها مبادرة غير اعتيادية أثارت غضب يهوذا (الاسخريوطي). أما مرتا، فهي تتميز بطبعها القاطع وتلقائيتها، لدى الحديث عن موت أخيها. انها، مع مريم، كانت قد أخبرت يسوع بأن صديقه مريض. وعند مجيء يسوع، ذهبت مرتا لاستقباله وقالت له بكل عفوية: "يا رب، لو كنتَ ههنا، لما مات أخي"! (١١: ٢١). انه توبيخ مبطّن، ولكنه يكشف عن الألفة الكبيرة التي كانت تربط بينهم. ولكنها تستدرك للحال وتقول: "ولكني ما زلت أعلم أن كل ما تسأل الله، فالله يعطيك إياه" (الآية ٢٢). ان ثقتها بيسوع مطلقة، هو الذي يعرف ان يتقبل الخيبات: "سيقوم أخوك". ولكنها تجيب: "أعلم أنه سيقوم، في اليوم الأخير". ويلحّ يسوع ويقول: "أنا القيامة والحياة؛ من آمن بي، وان مات فسيحيا، وكل من يحيا ويؤمن بي لن يموت للأبد. أتؤمنين بهذا؟ قالت له: "نعم، يا رب، اني أؤمن بأنك المسيح ابن الله الآتي إلى العالم" (الآيات ٢٣-٢٨). يا له من اعتراف إيماني مذهل! فالأمر يتوقف على صداقة تفترض مسبقاً الإيمان، كما تفترض معرفة سرّ يسوع ومجده.

ان الإيمان البالغ الذي يدعونا إليه يوحنا، يفترض مسبقاً مسيرة روحية طويلة تتيح لنا أن نستشف ما هي الخبرة السرية التي تكاد تكون شبه انخطاف، وهي ميزة الصداقة مع يسوع.

٤. الصورة الرابعة هي صورة **لعازر**، وقد عرفه يوحنا وسمّاه "صديق" (*philos*) يسوع (١١: ١١). ولم يُقدَّم لنا بشكل آخر؛ إلا ان صورته تكاد تكون لغزية: فهو لا يتكلم، ولا يعمل شيئاً؛ ونجهل المهنة التي كان يمارسها، ولا يُوضَّح مطلقاً شيء عن حبه ليسوع. نعلم فقط أنه صديق، ويُشار إلى هذه الصداقة طوال الرواية. وحينما بكى يسوع، يصرخ اليهود: "انظروا أي محبة كان يحبه!" (الآية ٣٦). والفعل المستعمل هنا ليس "*agapao*" -كما نلقاه بالمقابل في الآية ٥ حيث قيل: "ان يسوع كان يحب مرتا واختها ولعازر"-، بل يستعمل فعل

"*phileo*" (الآية ٣٦). وفي الآية ١١، يعلن يسوع نفسه: "ان صديقنا لعازر راقد"! فهو، إذن، يدعوه صديقاً، كما هو الحال مع تلاميذه.

ان صداقة يسوع للعازر تبدو حقاً متميزة، ولعازر من جهته، يعامله كصديق، لأنه يشعر انه محبوبٌ. وسيكتب يوحنا في رسالته الأولى: "ما تقوم عليه المحبة، هو أنه لسنا نحن أحببنا الله، بل هو أحبنا" (١ يو ٤: ١٠). انها رسالة مدهشة: نحن محبوبون من قبل يسوع، لأن يسوع يريد ذلك، وهو يقدّم لنا صداقته.

٥. الشخص الخامس الذي يرمز إلى مسيرة التلميذ نحو الملء، هو **التلميذ الذي كان يسوع يحبه**، وهو يُذكر مرات عديدة. لنفكر في الآية ٢١ وما يتبعها من الفصل ١٣، حين يعلن يسوع أن واحداً منهم سيسلمه: "وكان أحد تلاميذه، وهو الذي أحبَّه –باليونانية *egapa on*– يسوع، متكئاً إلى جانب يسوع". والأصل اليوناني هو أوضح إذ يقول: "كان في حضن يسوع"، قاصداً بذلك محبة عميقة وحميمة جداً. "فأومأ له سمعان بطرس وقال له: سَلْه على من يتكلم؟" ومن هو الخائن؟ والتلميذ الحبيب "مال دون تكلّف على صدر يسوع وقال له: "يا رب من هو؟" فأجاب يسوع: "هو الذي أناوله اللقمة التي أغمسها". ان من ذهب إلى الأراضي المقدسة وتناول الطعام في المطاعم العربية، يعرف أن تبادل اللقمة أمر جار: يغمس احدهم الخبز في مختلف أنواع المرق، ثم يأكل منه شيئاً ويُناول الباقي إلى جاره! في النص الذي بين أيدينا، تبقى هذه الحركة غير واضحة، إلا أن التلميذ الذي كان يسوع يحبه قد اطلع بالتأكيد على سرّ الخيانة.

تعود العبارة ذاتها في ١٩: ٢٦ حين كان يسوع معلقاً على الصليب: "فرأى يسوع أمه وإلى جانبها التلميذ الحبيب إليه، فقال لأمه: أيتها المرأة، هذا ابنك".

وكذلك في ٢١: ٧، نقرأ: "فقال التلميذ الذي أحبَّه يسوع لبطرس: "انه الرب!"، فمن ميزات التلميذ هو الحدس: انه قادر أن يعرف يسوع حتى عن بُعد، ومن خلال ضباب الصبح.

آخر ذكر للعبارة نجده في الآية ٢٠ من الفصل نفسه: "فالتفت بطرس، فرأى التلميذ الذي أحبه يسوع يتبعهما، ذاك الذي مالَ على صدر يسوع في أثناء العشاء وقال له: يا رب، من الذي يسلمك؟ فلما رآه بطرس، قال ليسوع: يا رب، وهذا ما شأنه؟ قال له يسوع: لو شئتُ أن يبقى إلى أن آتي، فما لك وذلك؟ أما أنتَ فاتبعني. وهذا التلميذ الذي كان يسوع يحبه هو الذي يشهد بهذه الأمور" (الآية ٢٤).

ان هذا التلميذ الذي يكتنفه السر قد يكون الشخص الأكثر نبلاً والأكثر قرباً إلى يسوع، لأنه ولج إلى أسراره وأصبح شاهداً لها. وحتى إذا كانت هذه المسألة موضع نقاش بين المفسّرين، فمن المحتمل انه كان شاهد عيان لطعنة الرمح، وللدم والماء اللذين تفجّرا من جنب يسوع المطعون، لاننا نجد التأكيد نفسه في ٢١: ٢٤ وفي ١٩: ٣٥ :"والذي رأى شهد، وشهادته صحيحة، وذاك يعلم انه يقول الحق لتؤمنوا أنتم أيضاً". وهنا نبلغ إلى معضلة مؤلف الإنجيل الرابع. مَن هو؟ أو بصورة أدّق من هم مؤلفو الإنجيل الرابع، وإلى مَن عَلينا أن ننسب هذا الجزء أو ذاك من الإنجيل (الفصول ١٩ إلى ٢٠، ثم الفصل ٢١). ومن البديهي أن نترك هذه المشكلة العويصة للاختصاصيين. وبالمقابل، يهمنا أن نفهم ان التلميذ البالغ بحسب يوحنا الذي يسير نحو المِلء، هو من يلج إلى أفكار قلب المسيح ويترك المجال للرب كي يحبه دونما قياس، وبعد ان يعيش في ألفة عميقة مع يسوع، يعرف أن يشهد له.

❁ ان مجموعة اللوحات هذه لن تكون كاملة، ما لم نذكّر، وإن بإيجاز، بصورة **بطرس** الذي، على طريقته، هو صديق أمين ليسوع.

لقد رأينا في يوحنا ١: ٤٢، كيف أن يسوع غيّر اسمه، بمثابة علامة صداقة: "ستُدعى كيفا أي صخراً، وكأني بيسوع يقول انه يتصرف به كما يشاء!

هذه العلامة الأولى للاستحواذ يقابلها، من جانب بطرس، إعلان الأمانة الاحتفالي، في نهاية جدال بعد تكثير الخبز. يسألهم يسوع قائلاً: "أفلا تريدون أن تذهبوا أنتم أيضاً؟ فأجابه سمعان بطرس: "يا رب، إلى من نذهب وكلام الحياة الأبدية عندك؟" (٦: ٦٧-٦٨). هنا نجدنا بازاء تعبير واضح عن أمانة التلميذ

الصديق؛ وتحضرني هنا الصلاة الجميلة جداً للأب لويجي سارنتا والتي تبدأ على هذا النحو: "يا رب أنت وحدك كتري، وأنت وحدك غناي...".

وتجد هذه الصداقة تعبيراً صريحاً لها عبر الحوار الذي دار في الفصل الأخير من الإنجيل (٢١: ١٥-١٩)، حيث نجد الفعلين "*philein*" و"*agapan*" يَردان متناوبين. ففي المرتين الأوليين، يستعمل يسوع فعل "*agapao*" حينما يسأل بطرس؛ أما في المرة الثالثة فهو يستعمل فعل "*phileo*". ويجيب بطرس دوماً بفعل "*phileo*". ذلك ان لفظة "*agapao*" تشير إلى محبة التكريس؛ أما "*phileo*" فتذكّر بحب الصداقة التي تسمح –اذا جاز لنا القول– بتعثرات. لكن يسوع يستعملها، وبكل هدوء، في الآية ١٧. ان إعلان المحبة هذا يُغطّي نكران بطرس الثلاثي، وهو بمثابة تتويج لمسيرته. فان النكران لم يدمّر الصداقة، لأن يسوع افتدانا، وقد ذهب بعيداً حين وكل إلى الصديق مسؤولية **رعاية** خرافه.

إن هذه الصور الست تشهد للشيء نفسه: ذلك ان في المركز من كل شيء هي **المحبة الأمينة**، ريثما يدعونا الرب –إذا شاءَ– لنحيا حالة المحبة "الانخطافية" التي تعطينا أن نتقاسم مع يسوع سرّ الصليب. فالعلاقة بالله ليست مجرد خضوع ولا مجرد طاعة، بل هي، فوق كل شيء، علاقة ألفة مع الكلمة المتجسد. وتقتضي هذه الألفة شجاعة، لذا فان الإنسان يخشاها، وقد يعمل على تجنبها، مكتفياً ببعض الأعمال التي يكمّل بها وصايا إنجيلية.

٣. الصداقة مع يسوع

تنعكس على المحبة الأخوية وعلى الصداقات البشرية

أودّ أن أرسم طرحاً آخر فيه شيء من التعقيد، ولكني أوجزه في هذا السؤال: هل تنعكس الصداقة أو الألفة مع يسوع على المحبة التي نحملُها بعضنا لبعض، وعن طريق المماثلة، في الصداقات البشرية؟

مما لا شك فيه أن المحبة بين الأخوة هي واجب مطلق، كشفه يسوع كشرط أساسي إذا أردنا أن نتبعه. لقد قرأناهُ سابقاً في يوحنا ١٥: ١١-١٥، وسنقرأهُ في الفصل الثالث عشر حيث تظهر، للمرة الأولى، صيغة الوصية الجديدة "أعطيكم وصية جديدة: أحبوا بعضكم بعضاً. كما أحببتكم، أحبوا أنتم أيضاً بعضكم بعضاً. إذا أحبَّ بعضكم بعضاً. عرفَ الناس جميعاً أنكم تلاميذي" (١٣: ٣٤-٣٥).

أودّ أن أسرد لكم – لكي تحيطوا جيداً بصعوبة هذه الآيات- مقدمة كتبها أحد تلاميذي القدماء، "بوزّتي"، في طبعة نقدية للكتاب المقدس: "كان العالم الوثني، ومثله العالم الإسرائيلي أيضاً (راجع لاويين ١٩: ١٨)، ولأسباب مختلفة، قد أطرى الصداقة والخدمة المتبادلة. إلا أن وصية يسوع جديدة، لأنه، قبل كل شيء، جعلها بمثابة التزام أساسي لمن يريد الدخول إلى الجماعة الأخروية. وهي جديدة أيضاً بمقدار ما تقتضي تواضعاً وإرادة في الخدمة من شأنهما أن يدفعا إلى اتخاذ الموضع الأخير وإلى بذل الحياة في سبيل الآخرين. ومن الآن، ستكون مثل هذه المحبة علامة على حضور الرب في العالم". ومن ثم يُذكّر المؤلف بما جاءَ في يوحنا ١٧: ٢١-٢٣ لكي يثبت فكرته هذه: "ليكونوا بأجمعهم واحداً، كما أنت فيَّ، يا أبت، وأنا فيك، فيكونوا أيضاً فينا، ليؤمن العالم بأنك أنت أرسلتني؛ وأنا وهبتُ لهم ما وهبتَ لي من المجد، ليكونوا واحداً كما نحن واحد، أنا فيهم وأنت فيَّ، ليبلغوا كمال الوحدة، ويعرف العالم أنك أنت أرسلتني، وأنك أحببتَهم كما أحببتني".

وهكذا فان الألفة مع يسوع تجد مرجعها في سر الثالوث نفسه. وتضيف المقدمة أيضاً: "ان طريقة العيش الخاصة بيسوع لا تقدّم قاعدة أو اسلوباً فحسب، بل تؤسس امكانية عيش المحبة بملئها وبناء الذات المتبادل. وعلى النقيض من الازائيين، لا يتكلم يوحنا عن محبة القريب، بل يتكلم عن المحبة المتبادلة لتلاميذ يسوع".

وإذا بأسئلة عديدة تنصب: لماذا؟ وماذا يريد أن يقول؟ وكيف يكون هذا؟ مهما يكن من أمر، يبدو لي أن يوحنا، في اطار العهد الجديد، يفترض أن المحبة

المتبادلة بين تلاميذ يسوع السائرين في اثره، ستكون مصدر محبة أعمق للقريب، تماماً كما أن محبة الله تمكّن من محبة القريب.

ان القبول بهذا الأمر الذي يقدّمه يسوع بصورة احتفالية، في الإنجيل الرابع، يتوقف على ان يعيش الإنسان محبة أخوية هي مصدر حقيقي للملء والفرح: "ما أطيب وما أحلى أن يقيم الاخوة معاً! فذلك مثل الزيت الطيّب على الرأس، النازل على اللحية، لحية هارون، النازل على طوق قميصه، ومثل ندى حرمون النازل على جبل صهيون" (مز ١٣٣: ١-٣أ).

ولا أكاد أرسم جواباً ثانياً. ان في وسع حب الصداقة البشري، في رأيي، أن يعكس بعض قيم إنجيلية؛ لا سيما إذا كان معاشاً في سياق صداقة مسيحية يشكل، نوعاً ما، تحقيقاً لها، فلا يكون مجرد استنتاج منطقي. ولدينا هنا تماثل: المحبة الإنجيلية هي ملء وفرح، وكذلك كل حب بشري في مستوى الصداقة يتضمن فرحاً وملئاً، حتى إذا مرَّ بالكثير من المصائب والآلام.

ان المسيحي البالغ يختبر المخاطر والمغامرات، حزينة كانت أم سعيدة، المتعلقة بالحب البشري في مستوى الصداقة، الحب الذي يعود إلى الحقائق الأكثر مجانية والأكثر روعة، ولكن أيضاً الأكثر هشاشة. وان مرور الزمن —ما لم تُرتكب أخطاء لا تُصلَح— يتيح لنا أن نرى بوضوح ما كان، في الواقع، حباً حقيقياً وصداقة حقيقية، سواء بين الأزواج، أو حتى بين امرأة ورجل.

لا أنوي التوسع في هذا الموضوع. ولكني أودّ الإشارة إلى كتاب وضعه مؤلف أمريكي اسمه دونالد كوزنس، وعنوانه "الوجه الجديد للكهنوت"، وكان قد أمضى سنوات طويلة كنائب اسقفي ونائب للرهبان في أبرشية كبيرة من الولايات المتحدة؛ انه اجرى تحليلاً مهماً لما يعيشه كاهن اليوم على الصعيدين النفسي والعاطفي. وإذا كنت لا أوافق على كل ما جاءَ في هذا التحليل، الا ان بوسع هذا النص أن يساعدنا على التفكير في الكثير من المعضلات الحقيقية. وأتوقف عند ثلاثة مواضيع تمت معالجتها: موضوع هوية الكاهن، وهي دوماً موضوع اكتشاف؛ وموضوع الاستقامة التي يجب الا تُفقَد (إخلاص، توازن في الحياة اليومية وفي الوسط الكنسي)؛ وموضوع الحب في العزوبة، وكيفية التصرّف ازاء الميول غير الواعية.

لنلتمس نعمة ألفة عميقة مع يسوع، ونضج مسيحي أصيل نعيشه في الصداقة مع المسيح. ولتتشفع لنا العذراء مريم، التي هي سبب فرحنا وينبوع ألفة حقيقية مع ابنها. ولنلتمس نعمة الصداقة الأخوية.

أما النعمة الثالثة التي علينا أن نلتمسها، فهي نعمة البلوغ إلى النضج فيما يتعلق بالصداقة البشرية. ويتكلم "دونالد كوزنس"، في كتابه، عما يسميه مجتمعاً علاجياً، مجتمعاً تكون فيه الشريعة الأساسية في شعور الإنسان بأنه بحال جيد، بدون قلق، معافى من كل توتر؛ ولكنه يعترف بصراحة أن هذا المجتمع يشجّع كل أشكال الألفة السهلة، ويحمل على اخماد كل الميول. ويقول: "يبدو أن حضارتنا العلاجية لم تكتشف بعد المفارقة الإنجيلية: فهناك أمور لا تبلغ اكتمالها إلا حينما يتخلّى الإنسان عنها. فالسعادة هي ثمرة نسيان رغبتنا الخاصة في أن نكون سعداء، وهي نتيجة طريقة حياة تجعل سعادة الآخرين ممكنة. وما القداسة سوى البلوغ إلى الرغبة في العيش بالتناغم مع إرادة الله، في التسبيح التريه وفي فعل الشكر. ومن المفضل ألا نبحث عن هذه القداسة لأجل ذاتها، ذلك لأن الألفة السعيدة تتحقق فقط حين لا نبحث عنها لأجل ذاتها"[1].

يحذّر المؤلف، إذن، من قداسة يتوخاها المرءُ لأجل ذاتها، أو لأجل إرضاء كبريائه الشخصية وانتصاره الخاص. "فعلى مثال أمور جيدة عديدة في الحياة، تبدو الألفة الحميمة، قبل كل شيء، هدية وبركة. ويتهيأ لها الإنسان بالصلاة وبحياة مستقيمة، ومن ثم يَدَعُها تأتي إليه. إذا بحثت عن الألفة بارادتك، فهي تتهرب منكَ! وإذا بحثت بارادتك عن الشَبع، فستظل غير مشبع! وإذا بحثت بارادتك عن القداسة، فستتعرض للخطر الروحي (...). وعلى مثال جميع الأشياء المهمة حقاً، تبدو الألفة هبة من الروح لا يمكن أن تُربَح أو تُستَحق بقوة جهود خاصة"[2].

ان الذي يشرف على مسيرتنا العاطفية كلها هو الرب نفسه: وقد سبقتنا موهبته المجانية، منذ البدء، وفي جميع الظروف.

---

(١) دونالد كوزنس: الوجه الجديد للكاهن، دار بايارد، ص ٦٤.

(٢) المصدر ذاته، ص ٦٤-٦٥.

" فصنع مِجلدا من حبال وطردهم جميعا من الهيكل "

الفوضى في الهيكل

(يوحنا ٢: ١٣-٢٥)

مع احتفاظنا بخلفية المبدأ والأساس في الإنجيل الرابع، لنعبر إلى المرحلة التالية التي، بالتماثل مع الاسبوع الأول من تمارين القديس اغناطيوس، أحدّدها، كمرحلة التطهير، والغفران المرغوب فيه، والصراع ضد الشر الذي يعشش فينا ويمنعنا من أن نعرف مجدَ الكلمة المتجسد. ونصوص يوحنا (٢: ١٣-٥: ٥٤) هي المجال لتعميق فحص ضميرنا.

حسنٌ لو كنا نستطيع التوقف عند كل مقطع، في مساءَلة حول ما نفهمه، وأيضاً حول ما يبدو لنا سرياً ومثيراً. ويترتب على كل واحد منا أن يقوم بذلك.

والآن، سنلقي نظرة على المشاهد الأربعة –وقد فصلت بينها حاشية- التي يقدمها لنا مطلع الكتاب الذي سميته "**كتاب الآيات**"؛ وبعد ذلك، سنستأنف المشهد الأول في "قراءة ربّية".

المشهد الأول (يوحنا ٢: ١٣-٢٥) يتكلم عن يسوع، الذي ما ان بلغ أورشليم حتى قاوم الفوضى الموجودة في الهيكل، والظلمات التي اكتنفته. انه مقطع لا تستعمله الليتورجيا كثيراً، مع كونه مهماً جداً.

المشهد الثاني يروي الزيارة التي يقوم بها نيقوديمس إلى يسوع ليلاً (يوحنا ٣: ١-٢١). ان الكلمة المتجسد يجد نفسه ازاء معارضة أحد المثقفين؛ ازاء كسل

ذاك الذي يعتبر نفسه حكيماً، كما ازاء الأحكام المسبقة لدى رجل هو مع ذلك ذو إرادة صالحة. ويودّ يوحنا أن يؤكد بان الظلمات ليست دوماً هائجة بحيث تَدَع القوى الشيطانية تنفلت؛ فبوسع هذه الظلمات ان تكون ظلمات القلب: فان نيقوديمس يعتقد أنه حكيم في إسرائيل، في حين أن مخاوف وتوقفات تسكن قلبه. ويتحدث إليه يسوع حديثاً رقيقاً، ويجعل ذاته قريباً إليه، بحب، ليساعده كي يرى بنوع أوضح، ويخرج من الليل ليبلغ إلى النور. وسنتوقف عند هذا المشهد لدى تأملنا القادم، لانه يُبرز مقاوماتنا بوجه ولادة جديدة تجعلنا نصبح مثل أطفال؛ كما انه يكشف عن كسلنا، في حين نحن مدعوون للولوج إلى سر الملكوت.

ثم تأتي "حاشية" هي نوع من الجملة المعترضة (يوحنا ٣: ٢٢-٢٦)، وهي الشهادة الرائعة الأخيرة التي يُدلي بها المعمذان، جواباً إلى تلاميذه الذين راحوا يحسدون تلاميذ يسوع- وقد تطرقنا إلى هذا الموضوع حينما تأملنا وجهَ الشاهد، في المقدمة النثرية. هنا أيضاً يتوقف الأمر على المضي إلى ما وراء الظل، ما وراء ظلمة تعمي عيون تلاميذ يوحنا المعمذان: انهم لا يريدون أن يستقبلوا الكلمة المتجسد في كل قدرته، بل يعتبرونه منافساً لمعلمهم. انهم يرمزون إلى جميع الذين يقاومون نعمة الله، وقد تلبّسهم الغرور كونهم يمتلكون جانباً من الحقيقة، وليسوا بحاجة إلى أي شيء آخر.

أما **المشهد الثالث** فهو أطول (يوحنا ٤: ١-٤٢). هوذا يسوع، نور العالم، يحاول التغلب على الحواجز العرقية والقومية والدينية لدى السامرية التي لا اسم لها! انها تمثّل جميع الحواجز اليومية الثقيلة: لديها، في البيت، مشاكل كثيرة؛ لقد ملّت من الذهاب كل يوم إلى البئر لتستقي الماء؛ وهي، في داخلها، لا ترى بوضوح ما يتعلق بالشأن الديني، ومع ذلك تكيّفت معه. انها في الواقع شخص، مثل كل واحد منا، مدعو لكي يتبع سبيل التطهير. وعلى الصعيد الأخلاقي، فلقد سلطت كلمة يسوع الضوء على العقدة: "اذهبي وادعي زوجك!" انه وضع كان يعذّب هذه المرأة، وهوذا يسوع يريد أن تتخلص منه.

وتفضي هذه المشاهد الثلاثة إلى **المشهد الرابع** حيث نعاين "الآية" الثانية التي صنعها يسوع (٤: ٤٦-٥٤). فلدى عودة يسوع إلى قرية قانا -وكان قد أبهج

القلوب في وليمة العرس- نراه يشفي ابن أحد الموظفين الملكيين الذي كان مريضاً. ونجد في هذا الحدث تعليمين: قبل كل شيء، يحثّنا يسوع على ألا نعلّق إيماننا بأعاجيبه وأعماله الخارقة، وأن نتركه يقودنا نحو سبيل التطهير. ومن ثم، حين أكّد ثلاث مرات لوالد الصبي: "ابنك يحيا!"، فهو يكشف لنا إلى أين تفضي مسيرة توبوية. ونجدنا ازاء خلاصة معزّية حقاً: لقد أعيدت إليك حياتك بملئها بفضل سر المصالحة. وهذه المسيرة المطهِّرة تفتحنا أخيراً على الحياة المتدفقة من ملء حياة الكلمة المتجسد.

يبدو لي أن هذه النصوص (من ٢: ٢٣ إلى ٤: ٥٤) تساعدنا لكي نحيا جيداً ما يعرضه لنا الاسبوع الأول من تمارين القديس اغناطيوس، ونرى كيف ننتصر على مقاوماتنا لحب الله الموحى في التجسد؛ وكيف ننتصر على الصعوبات التي تعترض إيماننا، وكيف نترك المجال لكي نتطهر. قد لا تكون المقاومات خطيرة جداً، ولكننا نعلم أن بوسع حصى صغير في حذائنا أن يمنعنا من السير.

أودّ أن أشير، دون مزيد من الانتظار، إلى أننا، منذ الفصل الخامس، نجد أنفسنا أمام حالة مختلفة: فان مجابهة النور للظلمات تصبح أكثر مأسوية. حتى الآن، كانت الروايات تعبّر عن الشوق والإرادة الصالحة، والالتزام بالسير نحو النور، والانتصار على الكسل والملل. اما الفصول التالية، فتضعنا أمام المساءلة عن وضع يسوع نفسه، بصفته ابن الله، وتمنحنا أن نستشف تكالب القوى الشريرة ضده، هذا الصراع الكوني الذي ستكون ذروته الصلب. لقد بدت لي هذه المقدمة ضرورية لكي نتّجه، بنوع أفضل، في القراءة المتواصلة والشخصية لنص يوحنا، ولكي نبدأ "**قراءة**" الآيات التي تتناول ما يُدعى "تطهير الهيكل".

١. قراءة يوحنا ٢: ١٣-٢٥

دخل يسوع إلى هيكل أورشليم، واعترته سورة من الاستياء حينما رأى الفوضى السائدة فيه.

ويضع الازائيون هذا الحدث في الاسبوع الأخير من حياة يسوع، لأنه

الاسبوع الوحيد الذي يُمضيه في أورشليم. وعلى النقيض من ذلك، وضع يوحنا هذا الحدث في البداية، وليس من السهل معرفة السبب. ان ثمة ولا شك معنى رمزياً في ترتيب الأحداث، وذلك للإشارة إلى أن يسوع كان مستاءً منذ البداية، حتى ولو أنه، بعد ذلك، إتخذ موقفاً معتدلاً أدّى إلى المغفرة عن الذين صلبوه. مهما يكن من أمر، فنحن هنا أمام صفحة غنية بالمعاني؛ انها تهزّنا، وتمتحن بخاصة الكهنة لتقول لهم: أنتم، بنوع خاص، يا رجال الهيكل، دعوا الله يطهركم! انها في الواقع تثير شيئاً من عدم الارتياح، فنفضّل اعتبار أن ما جرى حينذاك لا يخصّنا! لكن أقوال يسوع، في الحقيقة، تتوجه إلينا، وهي تنادينا وتحثّنا على أن نقدّم ذواتنا لعمل الرب المطهِّر.

بنية النص

لنرَ الآن بعجالة تركيبة هذا النص (الآيتان ١٣ و١٤).

١. قبل كل شيء يوضّح الزمان والمكان والظروف لهذا الحدث.

الزمان هو زمن عيد الفصح عند اليهود، وهو وقت احتفالي ورمزي إلى الغاية: "كان فصح اليهود قد اقترب". وهذا العيد كان يمثّل كل شيء لدى الشعب اليهودي: ذكرى التحرّر، علامة محبة الله. انها المرة الأولى يذكره فيها الإنجيلي الرابع: في هذا العيد تكمن خلاصة الديانة اليهودية.

المكان هو أيضاً مقدس جداً: "صعد يسوع إلى أورشليم". انه احتكاكه الأول بالمدينة المقدسة. إلى ذلك الحين كانت أورشليم تُذكر بمثابة المكان الذي منه يأتي أولئك الذين كانوا يذهبون إلى المعمذان لكي يسألوه: "مَن أنت؟" (١: ١٩)؛ وهذا ما يعكس شيئاً من التوتر بين الوضع القائم (*establishment*) لأورشليم، وبين الروحانية التي تكمن في موهبة يوحنا المعمذان الذي كان يعمّذ عند نهر الأردن. أما هنا، فان يسوع، بالعكس، يجابه أورشليم، من الداخل. انها المدينة التي تمسك بيديها مصير العالم؛ وفيها حتى اليوم أيضاً، يُقرَّر الحرب والسلم للبشرية! انها، إذن، موضع مهم في تاريخ البشرية.

وهيكل أورشليم هو، بالتأكيد، الموضع الأكثر قداسة. لنلاحظ تصاعد النبرة: اقتراب الفصح، في أورشليم، وفي هيكل الله.

الظرف: يسوع لا يدخل إلى الهيكل، كما روى لوقا، حين كان له اثنتا عشرة سنة، رغبة منه في الإصغاء إلى معلمي الناموس وطرح أسئلة عليهم... فالظرف هنا هو الفوضى التي كانت تسود بيت الله المقدس: الضجيج، باعة الثيران والغنم والحمام، وكذلك الصيارفة الجالسون بارتياح في أماكنهم. ان الترعة التجارية "الكلية القدرة"، سبب الكثير من الشرور الاجتماعية في العالم، كانت قد اجتاحت هذا المكان المقدس: انه "**المال الظلم**" الذي يفضحه يسوع في الهيكل.

٢. بعد هاتين الآيتين، وهما بمثابة مقدمة، يأتي **الحدث** (الآيتان ١٥-١٦). يسوع يصنع له سوطاً من حبال (وسيخضع هو ذاته للجلد ويأخذ على نفسه خطيئة العالم التي شجبها هنا، بنوع ملحوظ، وحاول إبعادَها بالسوط، وهو يهيئ النصر الحقيقي النهائي)، وبحركة استياء وغضب عارم، يطرد هذا الخلق كله إلى خارج الهيكل، مع الثيران والغنم. ومن ثم يقلب الموائد والكراسي ويرمي على الأرض بأموال الصيارفة.

قد يعتقد المرء أنه يشاهد شيئاً غير عقلاني: لماذا يتصرف يسوع هكذا؟ لماذا لم يختر بالأولى الوعظ عن قداسة الله، داعياً إلى وضع كل شيء في مكانه؟ لماذا قلب كل شيء رأساً على عقب؟ ان المشهد يكتسب قوة سامية لا تُقاوَم. ويمكننا بسهولة أن نتصور الصرَخات وهرب الناس الذين تولاهم الهلع، ظانين أن يسوع هذا قد أصابه مسٌّ من الجنون!

إلا أن يسوع لا يفقد اتّزان مشاعره. فهو يقول لباعة الحمام، وبكل وداعة وكياسة: "ارفعوا هذه من ههنا". وهكذا، فانه في ذروة غضبه، يكشف عن لطف الكلمة المتجسد تجاه أفقر الناس، وبهدوء مقنِع؛ فهو يتحدث إليهم، محاولاً إقناعهم.

ويعطي يسوع نفسه السبب الأول لهذا الغضب: "لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة". وهكذا نستشف في يسوع تأثُّراً عميقاً، شبيهاً بذاك الذي اعتراه، طوال ثلاثة أيام، حينما كان في سن الثانية عشرة": "ألم تعلما أنه يجب عليَّ أن أكون عند أبي؟". والآن أيضاً، يعبّر يسوع عن قناعته العميقة بكونه الابن، ويعبّر بالأكثر عن انذهاله إذ يكتشف ما آلَ إليه بيتُ الآب.

٣. الزمن الثالث للنص يقدّم لنا تفسير ما جرى توًّا. وتعطينا الآية ١٧ **التفسير الأول**، وهو تفسير مؤات وكتابي: انه تفسير التلاميذ. لقد وقفوا تلقائياً إلى جانب يسوع، إلا أن سورة الغضب هذه وهذا العنف الجسدي أدهشاهم وأقلقاهم! ومع ذلك استشفوا أن وراء هذا التصرف، لا بدَّ أن يكون هناك شيء كبير وعميق، وحاولوا أن يشرحوا ذلك لأنفسهم، بفضل نص من الكتاب المقدس: "غيرة بيتك أكلتني" (مز ٦٩: ١٠). انه مزمور في وسعنا أن نفترضه مسيحانياً وهذه الآية بالذات تفهمنا أن يسوع تصرّف محبةً منه ببيت الآب. لنلاحظ أيضاً أن في المزمور ١١٩، الآية ١٣٩ التعبير نفسه: "أخرستني غيرتي على كلامك!".

٤. ثم يأتي الزمن الرابع حيث يحتوي النص على غنى يصعب على الكلمات التعبير عنه. من البديهي أن اليهود لا يفهمون كلام يسوع، لذا جاء جوابهم الساذج: "في ست وأربعين سنة بني هذا الهيكل، أفتُقيمه أنت في ثلاثة أيام؟" (الآية ٢٠). لقد جاءت، في قصة الآلام بحسب إنجيل متى، تهمة تتعلق بالهيكل: "هذا الرجل قال: إني لقادر على نقض هيكل الله وبنائه في ثلاثة أيام" (متى ٢٦: ٦١). ويسوع كان قد قال: "انقضوا" وليس "سأنقض". ويواصل النص: "أما هو فكان يعني هيكل جسده" (٢: ٢١). ويندرج جواب يسوع في نهج الالتباس المتعمّد لدى يوحنا. فان السامرية، مثلا، لا تفهم الكلمات الروحية السامية التي قالها يسوع في شأن الماء الذي يروي، ماء النعمة؛ أما هي، فكانت تفكر في ماءِ بئر يعقوب. انه التباس وغموض بوسع القيامة وحدَها أن تبدّدهما.

٥. في الواقع، يقدّم الزمن الخامس من الرواية، وبكل وضوح، قراءة مجددة للحدث ولأقوال يسوع، في ضوء الإيمان: "فلما قام من بين الأموات، تذكر تلاميذه انه قال ذلك، فآمنوا بالكتاب وبالكلمة التي قالها يسوع" (الآية ٢٤).

ويوجّه الإنجيلي كلامه إلينا: لقد بدأنا بسوء الفهم وضآلته، وكنا نخشى ان يُخبئ خراب الهيكل وإعادة بنائه أمراً رهيباً. إلا ان كلامه كان باقياً في قلبنا. وشيئاً فشيئاً، وعبر لقائنا معه، توصلنا إلى أن نفهم أن يسوع هو المقصود، وانه هو الهيكل، أي الموضع الذي فيه يجب السجود للآب بالحق، وان الخراب المذكور كان يشير إلى آلامه وموته.

خاتمة الفصل الثاني

أخيراً، حتى إذا كانت الآيات ٢٣-٢٥ لا تشكّل جزءاً من الحدث، فانها تشكل خاتمة للفصل الثاني، ومن المهم أن نوليها اعتباراً. "ولما كان (يسوع) في أورشليم مدة عيد الفصح، **آمن** باسمه كثير من الناس" (الآية ٢٣). وهكذا يفترض الراوي أن يسوع، بعد أن قام بتطهير الهيكل، مكثَ في أورشليم متمّماً آيات عديدة.

ولدى يوحنا، لا ينبغي أن نفهم استخدام فعل "**آمن**" بصورة مطلقة (آمنَ أو لم يؤمن)، ولكنه يشير إلى مرحلة في مسيرة الإيمان. لنتذكر قصة عرس قانا التي تنهي المقدمة النثرية: "هذه أولى آيات يسوع أتى بها في قانا الجليل، فأظهر مجدَه، فآمنَ به تلاميذه" (٢: ١١). آمنوا، أعني انهم بدأوا يؤمنون. كان نثنائيل قد آمن به قليلاً، وكان الآخرون قد تبعوه. إلا أن مسيرة الإيمان من ثم ستكون طويلة جداً، لأن يسوع سيلقى الكثير من المقاومات والشكوك في قلب اتباعه. ولا ننسَ أن الإنجيل الرابع يحاول أن يصف مسيرة الإيمان بمثابة عبور مليء بالظلال والجهود، حتى اليوم الذي فيه سيصرخ توما ويقول ليسوع: "ربي وإلهي!" (٢٠: ٢٨).

وتُوضّح للحال الآية ٢٣: "غير أن يسوع لم يطمئن إليهم، لأنه كان يعرفهم كلهم، ولا يحتاج إلى من يشهد له في شأن الإنسان، فقد كان يعلم ما في الإنسان" (الآيتان ٢٤-٢٥). لقد كان يعلم أن إيمانهم لم يكن كلياً، ولم يكن قد كمل بالتمام. لنعلم أن "فعل إيماننا" أيضاً يقتضي مسيرة عسيرة، موسومة بمراحل عديدة.

ربما ننذهل إذ نرى إلى أي حد يهتم الإنجيل بالتفاصيل بشأن المعرفة التي يحملها يسوع عنّا. لعله يريد أن يهيئنا للأحاديث مع نيقوديمس أو مع المرأة السامرية، هذين الشخصين اللذين كان يسوع يعرف قلبهما، وكان يرمي إلى إبراز ما فيه من المخاوف والتعثرات. ذلك شكل من أشكال التنبيه يوجهه يوحنا إلينا: لاحظوا كم أن يسوع لا يكتفي بمبادرات خارجية، أو بكلمات تلفظها الشفاه، أو بحماس عابر؛ بل انه يفحص قلوبنا لكي ينيرها. وهوذا تطبيق واقعي لما نقول: ان "الأيام العالمية للشبيبة" لا تكفي للتأكيد على ان الشباب يؤمنون ويعيشون

المسيحية حقاً؛ وانما عليهم أيضاً أن يقوموا بخيارات واضحة ومحدَّدة ونهائية، وأن يجازفوا بحياتهم، عملاً بكلمة الرب.

الكلمات المفاتيح

أعود إلى حدث تطهير الهيكل، وأودّ أن أعدد على عجل بعض الكلمات المفاتيح، لكي أسند تفكيركم الشخصي.

في الآية ١٦: ارفعوا هذا من ههنا، لأن الهيكل مقدس جداً، لانه بيت أبي.

في الآية ١٩: في ثلاثة أيام أقيم هذا الهيكل.

في الآية ٢١: يتكلم عن **هيكل جسده.**

لنحاول أن نضع أنفسنا في تناغم مع التلاميذ، وإن كانت الرواية صعبة الفهم. ان حضور الكلمة المتجسد في العالم هو في الوقت نفسه حضور يحطم ويكشف: ذلك ان سر الله في التاريخ يحقق إلغاءً وإعادة بناء. والرواية تعلن، نوعاً ما، الإنجيل الرابع كله، كما تبشّر بالقيامة وحقيقة الكنيسة. ونحن نشكّل هذه الكنيسة التي تحاول أن تفهم يسوع بصفته الهيكل الحقيقي؛ فلقد قيل لنا في الحوار مع السامرية: "... لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تعبدون الآب (...) فالعباد الصادقون يعبدون الآب بالروح والحق" (٤: ٢١، ٢٣). ذلك ان الروح والحق هما في يسوع، ويسوع هو الهيكل حيث يُعبَد الآب حقاً.

٢. التأمُّل في المقطع

لقد أشرنا إلى تركيبة النص، وذكّرنا بالآيات الأخيرة، وتوقفنا عند الكلمات المفاتيح التي تعطينا إشارات لكي نرى كيف يتجلى يسوع لنا. والآن لنحاول أن نسمع نداءات بوسعها أن تساعدنا لنقوم بجهد على طريق التوبة والتطهير. انه وقت للفحص الروحي حول تقصيراتنا ومقاوماتنا وخطايانا،

وحول ما ليس هو مجرد خطيئة صريحة، بل هو بالتالي انغلاق وملل في حوار المحبة مع يسوع. لأن موضوعنا الأساسي هو ان "نؤمن" بالكلمة المتجسد الذي يسير بجانبنا. فلا يكفي أن نستقبله، بل علينا أيضاً أن نسير على الدرب.

وإليكم سبعة نداءات أو طروحات أقدّمها على شكل تأكيدات.

١. ان الهيكل الذي يدخل إليه يسوع هو في حالة غير اعتيادية، إذ تسوده الفوضى: انه مرآة لمجتمع بدون نظام. وقد يكون هذا هو السبب الذي حدا يوحنا إلى وضع هذا الحدث في البدء. فيسوع مقتنع من أن الفوضى تبدأ في الهيكل، أو هي، على أي حال، موجودة في الهيكل بنوع خاص. لنذكر ما جاء في إنجيل مرقس (١٣: ١٤): "وإذا رأيتم **المخرِّب الشنيع** قائماً حيث لا ينبغي أن يكون (...)، فمن كان يومئذ في اليهودية فليهرب إلى الجبال...". فحينما يصبح الهيكل في حالة فوضى، فهذا يعني اننا في النهاية... لذا فان يسوع يبدأ بتطهير هيكل أورشليم.

ان للمدن الهياكل التي تستحقها. لذا فان الفوضى في الهيكل تعني الفوضى في المجتمع؛ ففي الهيكل نفسه تنعكس خطيئة العالم. التي جاء يسوع يزيلها، ويغفرها، ويأخذها على عاتقه.

وفي حياة المعمَّذين —هيكل الروح القدس- ينعكس شيء من فوضى المجتمع والعالم. وعلينا أن نحمي أنفسنا من التجار الذين استقروا فينا؛ ومن الأصنام التي تختبئ بين زوايا ومطاوي هيكلنا الداخلي.

٢. أمام حالة الهيكل غير النظامية، قاوم يسوع الشر وهاجمه مباشرة، وضرب وقلب كل شيء، مدفوعاً بالغيرة التي كانت تأكله، هو الذي حمل إلى العالم كلمة الله الأزلية الملتهبة بالمحبة للإنسان، وتألم لعمى قلبه.

ويحقق يسوع عملاً رمزياً قاسياً إلى الغاية، عملاً يصدم ويُرهب؛ عملاً سيكون فريداً في حياته. إنها مبادرة تعبّر عن غضب عارم، سرعان ما يصبح وداعة الحمل المذبوح. وسيسمح إذ ذاك بأن ينقلب الغضب ضده، لأن كيانه كله -هو صورة الآب- سيتصرف بشكل إلهي، فيغفر ويبرّر. وها هو هنا، من الآن،

يتخذ صورة الحمل المنتصر الذي يتكلم عنه سفر الرؤيا، وقد حجب حقيقته بصفته "خادم الله" الذي يبذل حياته لأجل خلاص عدد كبير من الناس.

من الواضح أن يسوع لن يكون أبداً متواطئاً مع الظلمات، طالما هو النور، ولذلك حينما يلاقيها، يعارضها ويقاومها. وسيظهر تباعاً مثل طبيب صبور يزيل الظلال والظلمات: من قلب نيقوديمس والمرأة السامرية؛ ومن المولود أعمى، ومن كل واحد منّا. إلا أننا مدعوون لكي نواجه شدة الغضب الذي يختبئ في قلب يسوع الوديع والصبور.

إنَّ غضب يسوع هو غضبنا أيضاً، وهو ألمنا العميق ما دام الحب لا يحظى بالحب، وما دام النور قد خُنقَ وأطفئ؛ وحين نرى الإنسان يصرح أن حياته لا معنى لها، وحين نتحقق من ان كرامة الإنسان أصبحت تحت الأرجل. ومع أن الاستنكار يتولانا، فنحن لا نردّ بالأسلحة، بل، نختار على النقيض الطريق الإنجيلية، طريق التواضع والوداعة.

إلا اننا ندرك التجربة التي تراودنا في محاربة الشر بعنف، ويسوع ذاته يعرف ذلك. وإذا ما انقادَ إليه هو نفسه لحظة، فلكي يكشف أنه سيمتنع عنه فيما بعد، ولكي نتمسك بدورنا بالرغبة في الغفران، دوماً، ومهما كلف الأمر.

إن حدث تطهير الهيكل يُدخلنا، إذن، إلى سر الله.

٣. تتيح لنا كلمات يسوع ان نرى –في ضوء الفصح– أن الشر والفوضى في الهيكل وفي المجتمع، سينقضّان عليه ويدمّرانه: "انقضوا هذا الهيكل" وهو أنا نفسي (الآية ١٩). فهو يرى موته مسبقاً، ويشعر أنه سيتبنى، في شخصه أولاً، تطهير الهيكل الحقيقي؛ انه سيدفع ثمن غيرته على بيت الله، وثمن محبته لنا، مرتضياً بأن تنهال عليه فوضى المجتمع وخطايا البشرية؛ وانه سينتصر أخيراً إذ يحررّنا، بموته، من ظلماتنا.

٤. ان جسد يسوع الممزَّق والمنبعث، سيكون الهيكل الجديد. ذلك ان نظام الهيكل سيسقط؛ وسيقوم مقامه جسد القائم من بين الأموات، وقد أُدخلنا إليه بالعماذ لكي نحمد الله فيه وبه ومعه، بصفة أبناء. وإذا كنا، إذن، جسد يسوع،

فعلينا أن نتساءل هلاّ يكون فينا بعضَ الفوضى، وشيء من الـــروح التجاريـــة. ان نوايانا، نادراً ما تكون طاهرة. وحتى في أعمالنا ذات الظواهر المقدسة والتقوية، غالباً ما تكون الغاية مزدوجة: فنحن، من جهة، نعبّر عن محبتنا لله، ومن جهة أخـــرى، نبحث عن ذواتنا وعن مجدنا الشخصي. لنكن إذاً يقظين: حتى في الهيكل الذي هو المسيح، قد يتسلّل البحث عن ذاتنا، عن مصالحنا، عن ما يخصّنا.

٥. أما التأكيد الخامس، فنستقيه من هذا النص الغني جداً: ان جسد يسوع الذي أميتَ سينبعث، ويصبح بمثابة مكان السجود للآب.

في وسعنا أن نضمَّ رواية تطهير الهيكل إلى الكلمات التي وجهها يسوع إلى السامرية، وقد سردتُها قبل قليل: "لا في جبل غريزيم ولا في أورشليم يعبدون الآب، بل بالروح والحق". والرسالة هي في منتهى البساطة: يسوع، وقد قـــام مـــن بـــين الأموات، هو المقدس النهائي لمجد الله، وهو الموضع الذي تتم فيه بنوّتنا، كما هـــو موضع العبادة الحقيقية للآب في نعمة الروح القدس.

وفي نهاية هذا "**التأمل**"، علينا أن نذهب إلى ما وراء الكلمات لكي نكتشف أن إنجيل يوحنا يتيح لنا أن نلمس نارَ جبـــل حوريـــب، ونـــدنو مـــن العليقـــة المضطرمة ... تلك هي غاية التأمل الذي يتفتح على مشاهدة يسوع وهو يكشـــف عن ذاته، كونه بالضبط عليقة مضطرمة.

٣. اقتراحات للصلاة

إليكم بعض الطرق للصلاة، بشكل أسئلة، لهذه المرحلة التوبوية.

انطلاقاً من هذه الخلفية التي تشكلها الفوضى الثقافية والدينية والاجتماعية والعلائقية، في عالمنا المعاصر، أيُّ ظلال اكتشف في نفسي؟ فالفوضى والظلمـــات الثقافية والدينية التي تغطي أرضنا، يعود سببها بخاصة إلى رفـــض الإصـــغاء إلى الله -وهذا هو الإيمان الجاد!- وإلى رفض استقبال الحياة، وهي الكلمة المتجسد الـــذي

ينير كل إنسان. فالمجتمع، على ما هو، لا يأخذ الله على محمل الجد، ويُبعد فكرة خالق وسيد يحبنا؛ ويدّعي أنه ينظم ذاته بدون أن يقيم وزناً لله. تلك هي الفوضى الثقافية لعصرنا والتي تنعكس في فوضى اجتماعية: الظلم والجوع والشقاء. وعلى صعيد العلاقات بين الأشخاص، يعبَّر عن هذه الفوضى بالخيانة والتسيّب في العلاقات الجنسية والتجاوزات والاستغلال.

وهناك فوضى أخرى مهمة تؤلمنا، تقوم في نقص الرجاء: ماذا عليَّ أن اجعل من حياتي؟ أي معنى لها؟ وأي طريق أسلك؟

ما هي الظلال التي تسكنني؟ يقول النص الذي استوقفنا بان الفوضى في المجتمع الوثني واليهودي في ذلك الزمان، كانت قد تسربت حتى إلى داخل بيت الله. وفي ذاتي، أنا الموجود في الهيكل، أيَّ أثر للفوضى اكتشف: على الصعيد الديني والثقافي (كيف أصلي إلى الرب وأعبده؟ كيف أقاوم التجارب ضد الإيمان والرجاء؟)؛ على الصعيد الاجتماعي (ما هو التزامي بالعدالة والمحبة والتضامن المسيحي؟)؛ على صعيد العلاقات بين الأشخاص (قد أكون مِلْتُ إلى استغلال الأشخاص أو إلى تركهم على الهامش، واعتبارهم بمثابة أشياء يمكننا أن ننعم بها أو لا، حسب الحالات).

ان يسوع يدعونا إلى يقظة الضمير، لأنه يتمنى لنا الفرح، ولذلك فهو يريد أن يحرّرنا ويطهّرنا.

ثمة سؤال ثان بوسعه أن يصبح مصدر صلاة: كيف أفهم المشاركة في صراع يسوع ضد الشر؟ وما هو شكل التزامي؟ وهل هناك فيَّ مكان للاستنكار؟

ان التلاميذ الذي يظلون هنا ينظرون، دون أن يأخذوا قراراً، لا يحكمون على يسوع، ولكنهم لا يلتزمون جانبه، على النقيض من مريم ويوحنا الإنجيلي اللذين تبعاه حتى الصليب.

أما بشأن الاستنكار، فقد يكون مليئاً بالغضب والحقد: الجميع يسيئون التصرف، والجميع أشرار، ما عداي أنا! الجميع يُخطئون... ربما هناك شيء من

الصحة في ردة الفعل؛ إلا أن هذا الشكل من الاستياء هو من دون جدوى، لأنه لا يقبل بأن يتضمن وضع البشر زماناً للتطهير التدريجي.

كيف أحارب الشر الذي يحيط بي لكي انتصر عليه؟

تقدّم لنا الآية ٢٣ اقتراحاً أخيراً: لم يكن يسوع يتكل على أحد، إذ كان يعلم ما يختبئ في قلب الإنسان! قد يكون في وسعنا أن نصلي طويلاً ونقول: يا يسوع، أنت تفحصني وتعرفني، وأنت تعلم ما فيَّ؛ لقد خلقتني هكذا، مع هذه المواهب وهذه الحدود. كيف تريد أن أتطهّر، وأن أتبعك؟ كيف تريد أن تقودني على طريق النظام والسلام الداخلي والفرح التام الذي وعدت به تلاميذك؟ كيف تقودني كي تكون لي علاقة جيدة مع الكنيسة، علاقة تجعلني أحمل دوماً أخطاءها وأثقالها، فاعترف بها وأتجاوزها؟ ها اني أردّد بكل تواضع، مثل بطرس: يا رب، أنتَ تعرف كل شيء، وتعلم أني أحبك، وأني لا أريد أن أعاكس عملك التطهيري فيَّ، كما كانت تقول الأم سبيرانزا مؤسسة دار كوليفاليترا: "عاقبني، يا يسوع الصالح، وخلّصني". ان هذه الاستغاثة تعبر عن ضمير يشعر بحاجة إلى تطهير، وإلى قبول هذا التطهير، على أن يكون تطهيراً مخلّصاً.

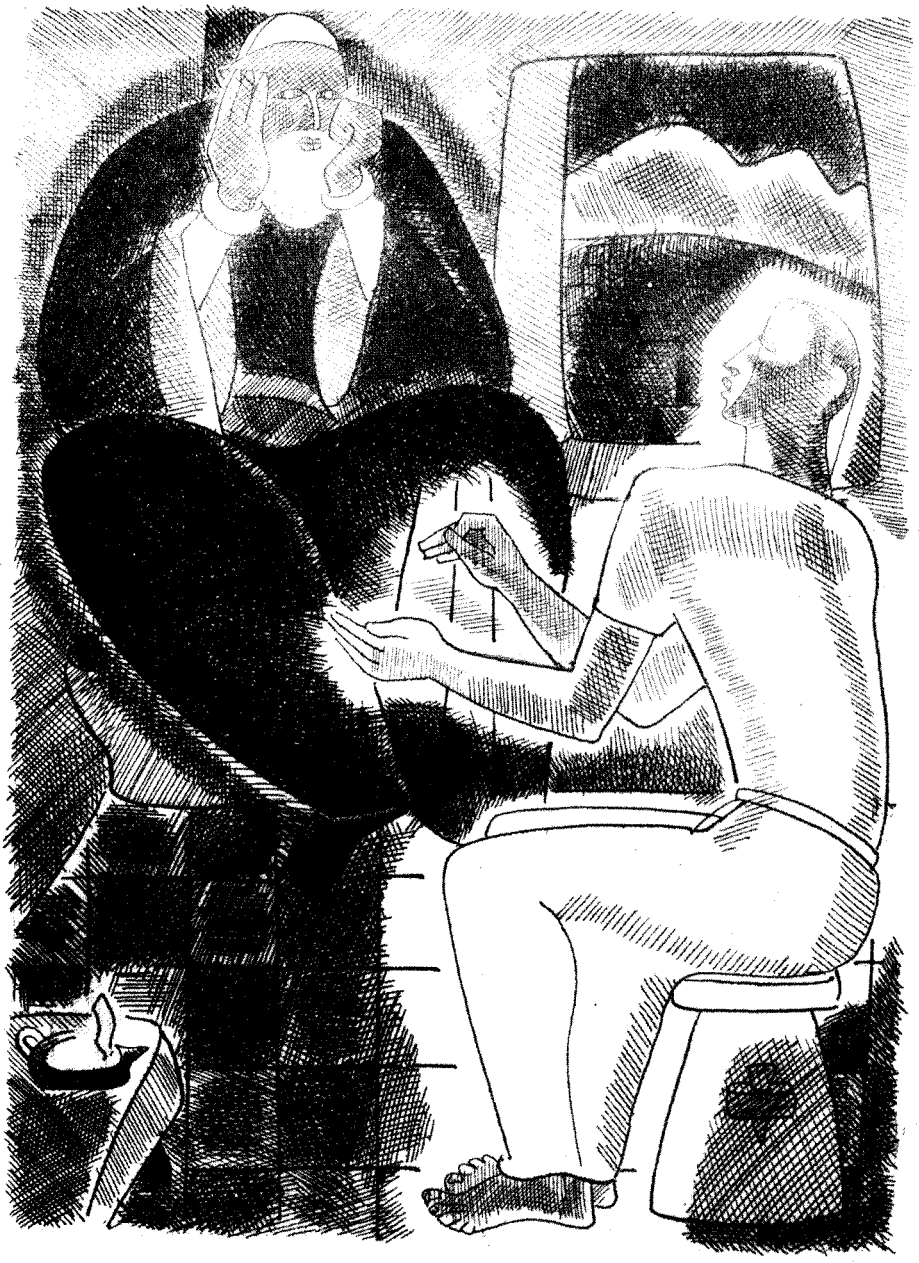

" ما من احد يمكنه ان يرى ملكوت الله إلا إذا وُلد من علُ "

تحفّظات فرّيسي

(يوحنا ٣: ١-٢١)

إن النص الثاني الذي اخترتُه موضوعاً للتفكير خلال هذه المرحلة من التطهير —وهي تتناسب مع الاسبوع الأول من تمارين القديس اغناطيوس- هو النص الذي يروي اللقاء بين يسوع ونيقوديمس. انه نص جميل جداً، مع انه لا يرد إلا نادراً في الليتورجيا.

١. قراءة يوحنا ٣: ١-٢١

يُمهَّد لهذا المقطع بما جاءَ في يوحنا ٢: ٢٣-٢٥ —وقد ذكرنا هذه الآيات في التأمل السابق- هو يمكّننا من أن نرى، بنوع أجلى، ما فينا من المقاومات الشخصية للكلمة المتجسد.

أجزّئ النص إلى خمسة أقسام: تروي الثلاثة الأولى حواراً. أما القسمان الأخيران فيرويان حديثاً انفرادياً.

١. "وكان في الفريسيّين رجل اسمه نيقوديمس، وكان من رؤساء اليهود. فجاءَ إلى يسوع ليلاً وقال له: "رابي، نحن نعلم أنك جئتَ من لدن الله معلماً، فما

من أحد يستطيع أن يأتي بتلك الآيات التي تأتي بها أنت إلا إذا كان الله معه". (الآيتان ١-٢). يعبّر هذا الرئيس اليهودي عن تقييم إيجابي، مذكّراً بالآيات التي صنعها يسوع في أورشليم -والإنجيلي لا يرويها، ولكنه من السهل افتراضها، نظراً إلى ما يقول عنها نيقوديمس.

"فأجابه يسوع: "الحق الحق أقول لك: ما من أحد يمكنه أن يرى ملكوت الله، إلا إذا وُلد من عَلُ". (آية ٣). انه بدء خطاب، لا بل إعلان يتعلق بالكائن البشري، وهو ذو أهمية، لا سيما وقد سبقته هذه العبارة الاحتفالية: "الحق الحق أقول لك" التي تعلن عن وحي إلهي. نحن، إذن، بصدد تذكير احتفالي بأنتروبولوجيا المفتدى: يجب أن يولد من عَلُ!

٢. وتكشف ردة فعل المخاطَب، إلى حد ما، عدم الإيمان: "كيف يمكن أن يولد وهو شيخ كبير؟ أيستطيع أن يعود إلى بطن أمه ويولد؟" (الآية ٤). فنيقوديمس لا يقف عند البُعد الروحي لكلام يسوع، بل يلاحظ كم أن هذا الكلام جديد ومُلزم إلى حد كبير، إذ ان الولادة الثانية تعني الانطلاق من الصفر، وإعادة كل شيء من البدء؛ وها هو يتراجع تجاه هذا المنظور. ذلك ان كل من له الخبرة في الحياة، يتمرد على فكرة ترك كل شيء، من أجل انطلاقة جديدة من اللاشيء.

ولا يجيب يسوع مباشرة على هذا الاعتراض، بل يكرر المبدأ: "ما من أحد يمكنه أن يدخل ملكوت الله، إلا إذا وُلد من الماء والروح (الآية ٥). ومن ثم يشرح: "فمولود الجسد يكون جسداً، ومولود الروح يكون روحاً. لا تعجب من قولي لك: يجب عليكم أن تولدوا من عَلُ (الآيتان ٦-٧).

من الصعب أن نشرح ما يلي: "فالريح تهبُّ حيث تشاء، فتسمع صوتَها، ولكنك لا تدري من أين تأتي وإلى أين تذهب. تلك حالة كل مولود من الروح" (الآية ٨). فلو نراعي المنطق، لوجبَ علينا بالأحرى أن نقول: "الريح تهبّ حيث تشاء. ولا تعرف من اين تأتي ولا إلى أين تذهب، كذلك يتدخل الروح بصورة سرية وبالنعمة". في الواقع، ان الفاعل في الآية ٨ب ليس الروح، بل ذاك الذي وُلد من الروح من جديد. قد يكون يسوع أراد أن يفهمنا بأن الروح يتحرك بخفة، وهو

حر وغير منظور ومجاني. والذي يولد ثانية من الروح يشترك في هذه الحرية وهذه الاستقلالية وهذه المجانية، على النقيض من تثاقل نيقوديمس وصلابته ومقاومته. وكأني بيسوع يقول له: "يا نيقوديمس، إذا قبلتَ بهذا الإلزام الصعب في ولادة من جديد، فانك ستنال حرية أكبر!

٣. الوقت الثالث من الحوار يرينا نيقوديمس، أكثر فأكثر، في منتهى الارتباك: "كيف يكون هذا؟" (الآية ٩). انه يكرر الاعتراض الذي أبداه قبل قليل، ويأبى أن يجعل حياته موضوع مساءلة.

إذ ذاك يبدأ جواب يسوع بتوجيه الانتقاد: "أأنت معلم في إسرائيل وتجهل هذه الأشياء؟" (الآية ١٠). لقد أشار أولاً إلى الكتب المقدسة، ثم أعاد طرحه مُحيلاً محاورَه إلى شهادته الخاصة قائلاً: "الحق الحق أقول لك: إننا نتكلم بما نعلم، ونشهد بما رأينا، ولكنكم لا تقبلون شهادتنا". (الآية ١١). إنها دعوة إلى الإيمان وإلى تلقي أقوال يسوع؛ ونجد ثمة شبه إشارة إلى المقدمة: ذاك الذي هو لدى الآب، ذاك الذي كشفَ عن الآب، يؤدي الشهادة للآب، إذ يشهد لما رأى، وللأمور السماوية، لأنه من هناك جاءَ.

ولكن ما أقسى هذا التأكيد: "لكنكم لا تقبلون شهادتنا!" وكما جاء في المقدمة، ترافق هذا التأكيد ملاحظةٌ تتعلق بالمقاومة البشرية: "فإذا كنتم لا تؤمنون عندما أكلمكم في أمور الأرض، فكيف تؤمنون إذا كلمتكم في أمور السماء؛ فما من أحد يصعد إلى السماء، إلا الذي نزل من السماء، وهو ابن الإنسان" (الآيتان ١٢-١٣). فالصعود إلى السماء يذكّر بصعود يسوع إلى الصليب؛ وحينما يتكلم يسوع عن شهادته وعن أصله السماوي، فهو يتكلم في الوقت نفسه عن الصليب، ولكن بعبارات رمزية وسرية. وها هو يضيف: "وكما رفع موسى الحية في البرية، فكذلك يجب أن يُرفعَ ابن الإنسان، لتكون به الحياة الأبدية لكل من يؤمن" (الآيتان ١٤-١٥).

إن هذا الوقت الثالث من الحوار يُسمعنا توبيخاً موجّهاً إلى نيقوديمس وإلحاحاً على الشهادة التي يؤديها يسوع، وهو الآتي من عند الآب، من عَلُ، وسيعود إلى الآب، بعد أن يكون قد رُفعَ على الصليب. وأخيراً يبدو وكأنه يريد أن

يقول لنا: ثقوا بي، فسرّي عظيم، لأنه سر الله نفسه، وسأكشفه بثمن الموت على الصليب.

هكذا يبدو، إذن، مصير يسوع –المشيح متضمّناً في الكلمات الرمزية والصعبة الموجهة إلى نيقوديمس. وما يُطلب منا هو أن ندخل إلى منظور يوحنا السري، في الدينامية السرية للإنجيل الرابع، وأن نتلقى، بإيمان، الأمور التي لا نتوصل إلى إدراكها.

٤. تستبدل الآيات التالية الحوار بشهادة يدليها يسوع: "فان الله أحبَّ العالم حتى إنه جادَ بابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية. فان الله لم يرسل ابنه إلى العالم ليدين العالم، بل ليُخلّص بهِ العالم" (الآيتان ١٦-١٧).

نحن أمام شكل من الارتفاع الثالوثي حيث يبدو الله وكأنه يشعر بمحبة عظيمة للعالم وللكون، حتى انه أعطى ابنه. وهنا يبلغ إنجيل يوحنا ذروته، لأنه يكشف لنا عن تصميم الخلاص كله. وازاء مقاومة نيقوديمس، يتكلم يسوع عن سر الثالوث.

٥. أخيراً، تسعى الآيات ١٨-٢١ إلى تعميق موضوع الدينونة: "وإنما الدينونة هي أن النور جاءَ إلى العالم، ففضَّلَ الناس الظلام على النور، لأن أعمالهم كانت سيئة...". ومن البديهي أن الأمر هنا لا يتوقف على دينونة آخروية، بل على دينونة تتعلق بالحاضر: أنْ لا يعترف الإنسان بيسوع، ولا يؤمن باسمه، فهذا يعني انه يحكم على ذاته، في حين أن العمل بالحق هو المجيء إلى النور؛ من آمن هو في النور.

لقد حاولنا أن نعيد قراءة النص؛ وهو، في جوهره، يعرض لنا الوحي المجيد للآب في الكلمة المتجسد، وحياً كانت المقدمة الشعرية قد أعلنته من قبل.

ليمنَّ علينا الرب بنعمة الدخول إلى دينامية هذا الوحي الخارق.

٢. التأمل في النص

بعد أن حاولنا، بصورة تحليلية، أن نستوعب قيم هذا النص ونداءاته، كما كتبها أو أملاها الإنجيلي، أودّ أن أعود إليها بنوع تناسقي أكثر.

شخصية نيقوديمس

من هو نيقوديمس؟ يطلعنا النص على أنه أحد رؤساء اليهود؛ انه رجل مثقف، بما أن يسوع يدعوه "رابي"؛ وهو معلم في إسرائيل. ومن المحتمل أنه الشخص الأرفع والأكثر ثقافة الذي التقاه يسوع. فالشاب الغني، على سبيل المثال، لم توضّح درجة ثقافته. وقد يكون لعازر على شيء من الثقافة... مهما يكن، فان نيقوديمس يُقدَّم بوضوح بصفته شخصاً يعرف ولا شك الآداب واللاهوت والقانون، ولكنه لا يعكس صورة جميلة خلال الحوار؛ انه متمّرغ وسجين في علمه أو في ما يظن أنه يعرفه.

مع ذلك، فقد قيل، في صالحه، في مجمل النص، أنه رجل يبحث، ولهذا ذهب إلى يسوع ليلاً، لكي يتحدث إليه بهدوء ومن دون توتّر. تلك هي الوجهة الجميلة من شخصيته، تقابلها كياسة يسوع: بالرغم من انه يترتب على يسوع أن يهتم بأشخاص كثيرين، نراه يخصص وقتاً للتحاور مع نيقوديمس، بصبر وبعمق. ويمكننا أن نتأمل ههنا لطفَ الكلمة المتجسد، وقد ظهر سابقاً في المقدمة، وسيتوسع به الإنجيلُ الرابع كله: يسوع لطيف، سهل المحادثة، صبور، يكشف بحياته مجدَ الآب اللطيف والمحِب للغاية.

فنيقوديمس هو، إذن، رجل يبحث، ويسعنا أن نسميه "رجلاً ذا إرادة صالحة"، في اثر البابا يوحنا الثالث والعشرين الذي أراد أن يتوجّه بكلامه إلى "جميع الناس ذوي الإرادة الصالحة"، مشيراً بذلك إلى جماعة غفيرة من الناس، ومفترضاً ان، في كل واحد منهم، قدراً من الاستعداد.

إلى جانب الأوجه الإيجابية، يسلط النص الضوءَ على بعض أوجه سلبية: نيقوديمس هو بمثابة مرآة، فيها نكتشف تثاقُلَنا وكسلنا الشخصي، وكذلك مقاوماتنا للنعمة. انه يشتاق إلى العثور على الحقيقة التي تحول دونها عوائق داخلية. وهذا هو شأننا أحياناً: حينما نشعر برغبة الانفتاح لنور الكلمة المتجسد، نكتشف في الوقت نفسه ضرورة اتّباع طريق التطهير الذي يحرّرنا من الأحكام المسبقة ومن الانغلاقات.

ماذا يقول نيقوديمس؟ يبدأ بالاعتراف بقيمة يسوع، ولكن إلى حدّ ما، وبفطنة وتحفّظ. وإذا ما أجرينا مقارنة بينه وبين حماس نثنائيل —هو الذي بعد تبادل بضع كلمات، لا يكتفي بأن يدعو يسوع "رابي"، بل يتجرأ ويعلن: "أنت هو ابن الله، أنت ملك إسرائيل" (١: ٤٩)- لاحظنا كم أن نيقوديمس يظل بعيداً، إذ لا يمنح يسوع سوى لقب "رابي". فهو لا يدرك أن عليه التخلي عن الصعيد الفكري وعن الخطاب الثقافي، فلا يكون سجيناً لهما. وهو، بعد أن عبَّر عن تقديره ليسوع، طرح عليه سؤالين يكشفان عن تثاقله، ومقاومته، والصعوبة التي يراها في اتّباع يسوع: "كيف يمكن لإنسان أن يولد من جديد؟ وكيف يمكن أن يكون هذا؟".

ماذا يفعل نيقوديمس في نهاية الحديث؟ انه يلزم الصمت أمام السمو الأقصى الذي اتّسمت به أقوال يسوع؛ ولا يروي لنا الإنجيلي كيف خرج من الساحة. ولكنه بالتالي أحد الأشخاص النادرين الذينَ، بعد ظهورهم، يعودون فيظهرون في نص يوحنا. أولاً، في الآية ٥٠ من الفصل السابع: بمناسبة اجتماع عقده عظماء الكهنة والفريسيون الذين يتألّبون الآن ضد يسوع. لقد سبقوا وأرسلوا بعض الحرس ليمسكوه، ولكن هؤلاء لم يتجاسروا ان يبسطوا إليه يداً. وتولى الغضب الفريسيين ورؤساء الكهنة على الحرس. إلا أن أحدهم، نيقوديمس، تولى الدفاع عن الرب، وقال: "أتحكم شريعتنا على أحد قبل أن يُستَمع إليه ويُعرف ما فعل؟" وهكذا، بكثير من اللباقة —إذ يعرف الشريعة معرفة جيدة- يتدخل نيقوديمس في الجدال، ويلزم بكل شجاعة جانب يسوع ضد فئة مصرَّة على الحكم عليه. لا شك أن نيقوديمس ما يزال غير قادر على الاعتراف بيسوع بصفته المسيح، ولكنه يطالب أن تُجرى العدالة في شأنه.

وفي الآية ٥٢، نلاحظ أن طلب نيقوديمس يصطدم بالرفض: "فأجابوه: أوَ أنت أيضاً من الجليل؟ ابحثْ ترَ أنه لا يقوم من الجليل نبي"! وهكذا أُرغم على الصمت مرة أخرى. فهو المثقف، يدعى إلى البحث والدراسة! إلا انه أصبح ازاء نور غريب! وانتهى النقاش بدون نتيجة: "ثم انصرف كل منهم إلى بيته". (الآية ٥٣).

ويرد ذكر نيقوديمس مرة أخرى بعد موت يسوع؛ ويظهر من جديد، وبنوع غير متوقع، ولكنه يُظهر الآن بوضوح احترامه ومحبته ليسوع. "وبعد ذلك جاءَ يوسف الرامي، وكان تلميذاً ليسوع يُخفي أمرَه خوفاً من اليهود، فسأل بيلاطس أن يأخذ جثمان يسوع. فأذن له بيلاطس. فجاءَ فأخذ جثمانه. وجاءَ نيقوديمس أيضاً، وهو الذي ذهب إلى يسوع ليلاً من قبل، وكان معه خليط من المرّ والعود، بمقدار نحو مائة درهم" (١٩: ٣٨-٣٩)، وهذا شيء يفوق الحدود.

وهكذا أتى الحديث الليلي بثماره!

ماذا يمكننا أن نستفيد من مشهد التطهير هذا؟ يبدو لي أننا لو سألنا نيقوديمس، لروى لنا قصته بالطريقة التالية: خلال حديثي مع يسوع، كانت أقواله ترتفع دوماً إلى أعلى، حتى أخذني شعور بالضياع. كنت أكنّ تقديراً للرابّي، ولكني ما كنت أُفلح حقاً في فهمه؛ فهو، من جهة، كان لطيفاً جداً؛ ولكن، من جهة أخرى، يجتاحني شعور بالخجل؛ وعلى مدى أيام وشهور، كنت أتألم لأني أصبحت فريسة عدم اليقين. وشيئاً فشيئاً، إذ كنت أرى ما كان يفعله، وأسمع ما يروونه عنه، تساءلت: ألا تكون كلماته صحيحة؟ ألا يترتب علينا في الأقل أن ندافع عنه؟ وأخيراً حينما رأيت كيف واجه الموت، وقفت إلى جانبه بصورة جازمة.

و نيقوديمس، بعد ان أَطلَعنا على خبرته، نسمعه يناشدنا ويقول لنا: هل لك حقاً إيمان بقدرة الله، كما اكتسبته أنا نفسي بفضل مسيرة طويلة وصعبة؟

ويمسّنا السؤال في أعمق كياننا، لأننا ربما بدأنا باعترافات إيمان كبيرة -اعترافات البداية حيث يشرع الإنسان في اتّباع يسوع- ولكن مع مرّ السنوات، أثارت فينا الظروف الكثيرة تجارب الاكتفاء بالذات والتهاون والخوف من الالتزام، والارتياب إزاء المؤسسات والأشخاص والأوضاع.

من المفيد جداً أن نسائل ذواتنا حينما نقرأ إنجيل يوحنا، وهو يقدّم لنا الإيمان بكونه أمراً خطيراً: هل ما يزال لك إيمان حقيقي بقدرة الله، مثل البداية؟ أم أن تراكم الأحداث السلبية والغامضة والصعبة قد حدّ من قوته، بحيث انك تستمر في الكلام عن الإيمان والاقرار به خارجياً، بدون أن تعطي، في أعماق ذاتك، ثقة مطلقة بالرب؟ وفيما نسائل أنفسنا، يعبّر نيقوديمس عن يقين مشجّع: **الرب افضل منك**، وقد كان أفضل مني. وحين كان الأمر يتوقف على الإيمان بكلام يسوع، قاومتُ، وتألمتُ؛ ولكني، في اليوم الذي دافعت عنه جهراً، وفي اليوم الذي أكرمتُ فيه جثمانه، حصلت على شجاعة لم أكن أتخيّل أنها منّي، وعرفت أن الروح كان يعملُ فيَّ أكثر مما خُيّل إلي. كذا الشأن معنا وفينا. لدينا انطباع بأننا نحيا ساعات من الإحباط والملل والفوضى... وفجأة، أمام ظرف يهزّنا، تتفجر فينا قوة الروح القديرة، بدون أن نعي بها على الفور، تلك القوة التي تعطي تفسيراً للاستشهاد: لم يكن جميع الشهداء، قبل تعرّضهم لظروف الاستشهاد، ممتلئين بالقناعة والحماس. كان بعضهم والحق يُقال، مهيّئين؛ لكن غيرهم، حين فوجئوا و لم يكونوا معدّين جيداً للمجابهة، اختبروا فجأة نعمة الروح الذي دفعهم إلى الصراخ: الرب معي، فلن أُخذَل أبداً!

شخصية يسوع

حينما يتكلم يسوع مع نيقوديمس، يعرض لنا **انتروبولوجيا** المفتدى. لذا، سأحاول، قدر المستطاع، ان أوضح كلماته اللغزية.

- انتروبولوجيا الفداء هي قبل كل شيء انتروبولوجيا **الولادة الثانية**: "لا أحد يمكنه أن يرى ملكوت الله، ما لم يولد من عَلُ" (الآية ٣). والمسيحي الناضج هو ذاك الذي، بعد أن وُلد لحياة جديدة بالعماذ، يعيش حقاً حياة تلقاها من عَلُ.
- هناك توضيح جاءَ في الآيات ٥-٨: "لا أحد، ما لم يولد من الماء والروح...". ذلك ان انتروبولوجيا الولادة الثانية هي انتروبولوجيا **الروح**.

- في الآيات ١٠-١٢، يتكلم يسوع عن انتروبولوجيا **الإيمان**، وكأنه يقول: ثقوا بي ثقة كاملة، لأني شاهد للآب. إنها دعوة إلى المجازفة بحياتنا من أجله، هو الذي يشهد لكل ما رآه عند الآب، وهكذا يكشف لنا عن معنى الخلق ومعنى الفداء.

- وتصبح الانتروبولوجيا **كريستولوجيا** الفداء (الآيتان ١٤-١٥) الذي يعبِّر عنه سرُّ ارتفاع ابن الإنسان، مذكّراً بموت يسوع وبصعوده إلى السماء في الوقت ذاته.

- وتقود الكريستولوجيا إلى **اللاهوت** بالإعلان عن هذا العمق الحقيقي: "لقد أحب الله العالم حتى انه جاد بابنه الوحيد" (الآية ١٦).

- وفي الآيات ١٧-٢١ أخيراً، يشار إلى **الاسكاتولوجيا** (الأخروية) التي تتحقق منذ اليوم: فالدينونة تجري **هنا**، كما يؤكد يسوع. ولا تخص الدينونة ذاك الذي يؤمن ويُقبل إلى النور، بل تخصّ، من الآن، ذاك الذي لا يؤمن ويرفض النور. ورفض النور يعكس العلاقة المأسوية بين الشر والظلمات من جهة، وبين الحقيقة والمحبة والنور من جهة أخرى. فنحن، إذن، في قلب دينونة الله، ويمكننا أن ننجو منها بمجرد استسلامنا إلى الكلمة المتجسّد.

- ومن المفيد أن نضع هذا الخطاب الذي هو في منتهى السموّ، بالتوازي مع **انتروبولوجيا المفتدى الخاصة بالأناجيل الازائية** (أنا على وعي بأني استعمل تعبيراً غير واضح، ولكني أجده مفعماً بالمعنى).

نعلم كيف أن الازائيين يؤكدون على مواضيع لا نلقاها في الإنجيل الرابع. فحين نجدنا ازاء إعلان الملكوت الذي باتَ مجيئه وشيكاً، علينا أن نغيّر حياتنا، ونتخلى عن الشر، ونتبع يسوع، بالعيش بحسب التطويبات؛ ويُطلب منّا أن نكمل الشريعة بشكل تامٍ، ونهرب من كل رياء، ونستسلم إلى العناية الإلهية؛ كما علينا أن نحبّ محبة واقعية، وأن نغفر... إنها سلسلة من تصرفات أخلاقية —لاسيما في الخطبة على الجبل- لا يذكرها هذا النص من إنجيل يوحنا. فان يوحنا يدعونا إلى تصرفات

بسيطة جداً: أن ندع المجال لكي نُخلق ثانية من عَلُ، ونستسلم إلى يسوع الذي ارتفع عن الأرض لأجلنا، ونتأمل حب الآب اللامحدود للعالم.

إن هاتين الانتروبولوجيتين مختلفتان، ولكنهما لا تتناقضان. بالعكس، يمكننا أن نقول إنهما، نوعاً ما، تتواصلان: فالذي عاش مسيرة الاهتداء التي عرضها عليه يسوع –بفضل التكميل التام للشريعة كما أعلن في الخطبة على الجبل- يستطيع أن يفهم الحصيلة المكثفة والمتماسكة لميلاد ثانٍ من عَلُ، بالروح الذي يمكّن من رؤية سر الآب ومحبته اللامتناهية للعالم.

٣. في سبيل الصلاة

في الختام، اقترح عليكم نقطتين للصلاة التأملية، ودوماً في سياق مسيرة توبوية.

لنقُمْ بفحص روحي، واضعين أنفسنا في موضع نيقوديمس، ولنسأله أن يساعدنا لكي نرى توقفاتنا وتصلّباتنا الداخلية؛ وأن نعترف بأننا، مثله، إلى حد ما، حذرون، متحفظون، وأحياناً خرس وعاجزون عن إلقاء أنفسنا بثقة في حضن يسوع.

ماذا يصدّني عن عطاء ذاتي كلياً للرب؟ وماذا يعرقل فيَّ حرية الروح الذي أجهل من أين يأتي، وإلى أين يذهب، ولكني أسمع صوته؟

ستتيح لنا هذه المقارنة مع نيقوديمس أن نحدّد التمادي الذي يمنعنا من تلقي ملكوت السموات ببساطة طفل صغير وبثقته (راجع لوقا ١٨: ١٧).

النقطة الثانية: أن نضع ذاتنا في حضرة يسوع، كما في حضرة الروح والآب؛ ونتساءل: ما الذي يساعدنا لنحيا انتروبولوجيا الولادة الثانية هذه، وأن

نكون حقاً أبناء الله، ونعلم أننا محبوبون حباً لا قياس له، ونشعر بفرح هبة ذاك الذي يحبنا محبة مجانية حتى قبل أن نعرفه.

لندخل، إذن، إلى الحديث مع الرب: لنسأله أن يطهّر قلوبنا، وأن يمنحها هذه الطهارة التي هي حرية، وهبة ذات كلية، هبة غير مشروطة لذاك الذي يمسك في يده التاريخ ويقوده إلى نهايته السعيدة، بالرغم من المظاهر؛ ويقودهُ إلى نهاية سعيدة، ولا سيما حينما يكشف عن نهايته لجميع الذين يؤمنون بالكلمة المتجسّد.

" ان ابي ما يزال يعمل ، وانا اعمل ايضاً "

سرُّ يسوع، ابن الآب

(يوحنا ٥)

بمقدار ما تزداد ألفتنا مع الإنجيل الرابع، بحيث يسعنا أن نتكهن بشيء من الوحدة العميقة التي تلهمه، تظهر، بصورة أجلى، أهمية التأمل في كل مقطع، بدمجه في صميم الدينامية الصعبة والشاملة لهذا الكتاب.

ويبدو لي من الضروري أن أذكّر بإيجاز بالتركيبة العامة، لكي يتسنى لي، بنوع أفضل، أن أتطرق إلى المرحلة الجديدة من المسيرة التي تلتقي مع الاسبوع الثاني من تمارين القديس اغناطيوس.

الكتب الثلاثة

١. قلت، في مقدمتي، ان بعد مقدمة يوحنا الشعرية والنثرية (الفصلان ١-٢: ١٢)، يبدأ ما نسميه "**كتاب الآيات**" والذي يشمل الفصول ٢: ١٢ – ١٢: ٥٠. إنها سلسلة من آيات يسوع، ولا سيما من الأعاجيب، هي بمثابة الايقاع للرواية، ومرافقة للأقوال التي يدخلنا الرب بها إلى سرّه. فالإضافة إلى الآيات التي التقيناها سابقاً، أذكّر بآيات تكثير الخبز، وشفاء المولود أعمى، وإحياء لعازر الخ... وكل من هذه الآيات يكشف لمحة من وجه يسوع –الطريق، الحق، الحياة، الخبز، النور– إلى جانب ميزة أخرى لهذه الفصول التي تبدو وكأنها نُظّمت لترسم تصاعداً

في التناقض بين النور والظلمات، حتى ان الكتاب يجد خاتمته في الآيات ٣٧-٤٣ من الفصل ١٢، حيث يظهر بوضوح معنى الروايات السابقة، حسب منظور التضاد بين الإيمان / عدم الإيمان. "أتى يسوع بجميع هذه الآيات بمرأى منهم، ولم يؤمنوا، فتمت الكلمة التي قالها النبي أشعيا: يا رب، من الذي آمن بما سمعَ منّا؟ ولمن كشفت ذراع الرب؟. وأشعيا ذاته أشار إلى سبب عدم إيمانهم: أعمى عيونَهم وقسّى قلوبهم، لئلا يبصروا بعيونهم، ويفهموا بقلوبهم، ويرجعوا فأشفيتهم. وكان أشعيا قد قال هذا الكلام، لأنه رأى مجده وتكلم في شأنه. غير أن عدداً كثيراً من الرؤساء أنفسهم آمنوا به، ولكنهم لم يجاهروا بإيمانهم، بسبب الفريسيين، لئلا يُفصلوا من المجمع: ذلك لأنهم فضلوا المجد الآتي من الناس على المجد الآتي من الله". (١٢: ٣٧-٤٣).

ان هذه الآيات التي تتّسم بطابع مأساوي عميق، تتيح لنا أن نفهم المدى الحاسم الذي بلغ إليه الصراع بين النور والظلمات، صراع يصفه "كتاب الآيات" في مناسبات مختلفة.

إلا أننا، داخل هذا السياق، نجد بعض مقاطع تعليمية تتوسع في الموضوع الأسراري (راجع الخطاب الطويل في خبز الحياة، ٦: ٢٢ وما يتبع)، وفي مواضيع أخروية حيث ترتسم طبيعة الكنيسة، فضلاً عن ألقاب يسوع. فليس لدينا آيات فحسب، بل أيضاً أقوال تعلن سرَّ الكلمة المتجسد.

٢. تنتمي الفصول التالية (١٣ إلى ١٧)، برأي عدد كبير من المفسرين، إلى **"كتاب الوحي"** حيث نُقلت خطابات المعلم بعد العشاء الأخير، مع كلماته الوداعية.

من البديهي أن المناخ تغيّر، لأن يسوع يتكلم مع أخصّائه، في جو من الألفة؛ فهو يكشف عن ذاته، ويتكلم عن تلاميذه، داعياً اياهم أصدقاء، في جوّ صافٍ وتفاهم متبادل.

اظن أن المفسرين أصابوا في التمييز بين هذين الكتابين: فالواحد، كتاب الآيات، هو مُثقَل بأمور غامضة، ومؤامرات، ومقاومات شرسة؛ أما الآخر، فهو الكتاب الذي يكشف فيه يسوع عن ذاته للذين أحبوه، والذين يحبهم هو إلى أقصى

الحدود. وكتاب الوحي يتضمن ولا شك تلميحات إلى الصراع بين النور والظلمات، إلا أن كل شيء يندرج في اطار هو في الغالب إيجابي وصافٍ.

٣. أما الفصول الثلاثة الأخيرة من الكتاب (من ١٨-٢١)، فتُدعى، لأسباب وجيهة، **"كتاب المجد"**. ففيها يعتلن، بملئه، مجد ابن الآب الوحيد الذي كانت المقدمة الشعرية قد تكلمت عنه، هذا المجد الذي يشعُّ في آلام يسوع وموته، كما في قيامته وصعوده إلى السماء.

ميزات إنجيل يوحنا

في هذه الوحدة الدينامية، يُظهر الإنجيل الرابع ميزات غريبة قد تكون أحياناً مقلقة.

قبل كل شيء، اعتاد يوحنا، إلى حد ما، **التعبير عن كل شيء وعلى الفور**. فعلى سبيل المثال، إذا قرأنا المقدمة الشعرية، حتى وان لم يكن موضوع الفداء المنجز بالموت معمقاً، نتساءل: ماذا بقي أن يُقال؟ فلقد قيل كل شيء! وكذلك، في رواية المحادثة الليلية مع نيقوديمس، تمّ التعبير عن ملء يسوع، وكذلك عن مجده ومعناه.

وهكذا الشأن —وسنرى ذلك بعد قليل- مع الحوار الذي تلا شفاء المقعد في بركة بيت حسدا: لم يكن في وسع يسوع أن يقول كلمات أسمى.

هناك ميزة أخرى مهمة: كان الإنجيلي يقول كل شيء وعلى الفور، ولكنه **يطيب له أن يعيد ما قاله**، بعبارات أخرى، وبكلمات / مفاتيح، وبطرق أكثر عمقاً. فلا شيء من السطحية في اسلوبه القصصي؛ لا بل نجد في النص تأكيدات هي، في حدّ ذاتها، كاملة بالكفاية، ولكنها تكررت. فليس من قبيل المصادفة إذا ما رأى بعض الشرّاح في يوحنا طريقة لولبية في الكتابة: تبدأ دورة أولى، ثم يتم الارتفاع إلى مستوى أعلى في دورة ثانية، ومن ثم نحو ارتفاع أعلى في دورة ثالثة. يجب علينا، إذن، أن ندخل في هذا الاسلوب، المختلف جداً عن اسلوب الازائيين، وهم الذين يقدّمون خطاً يكاد يكون متدرجاً إلى حد كبير.

قد تكون ثمة مماثلة مع تمارين القديس اغناطيوس تستحق أن نؤكد عليها. فان الذي عاش شهراً في ممارسة تمارين اغناطيوس، يعلم أن النص يشدد كثيراً على التكرارات؛ فكل نهار يقترح خمسة تأملات، ولكن اثنين منها فقط يتصفان بالتدرّج. أما الثلاثة الأخرى، فتعود إلى الموضوع نفسه. ونحن الذين ينفد صبرنا بسرعة، فلقد اعتدنا ألا نقيم وزناً كبيراً لطريقة القديس اغناطيوس التربوية، وهي بالتالي فعالة بشكل واضح.

ففي نظر يوحنا أيضاً، تتخذ للتكرارات أهمية كبيرة: نتأمل في النص بدون أن نفهمه تماماً؛ وعلينا أن ننكب عليه من جديد، ونعيد التأمل فيه، وأن نصلي معه مرة أخرى، لكي نستطيع الدخول إلى دينامية الوحي هذه، فيتسنى لنا أن نسند رأسنا على قلب يسوع ونشترك دوماً في سره بالأكثر.

الميزة الأخيرة للإنجيل الرابع هي أنه **يهدف إلى جعلنا معنيين**. انه يضع على المسرح شخصيات، لكي يُفهمنا كيف ان الوحي يخصنا ويعنينا. وازاء وحي كهذا، نواجه تعثراتنا ومخاوفنا، والصعوبة التي نلاقيها في الإيمان، وفي قبول هذا الوحي، مستسلمين إلى الكلمة المتجسد. ذلك ان دينامية القبول/الرفض، النور/الظلمات لا تُسلَّط الأضواء عليها لكي تصف ملحمة تجري في مكان ما، وانما لكي تخاطب قلبنا.

نحن، إذن، بصدد إنجيل يجب أن يكون مصدر صلاة تأملية؛ فعلينا أن نستوعب وحدة المجموع، أولى من أن نستخرج حلاوة كل كلمة. انه في نهاية الأمر، لا يقول إلاّ أشياء قليلة، ولكنها تمتلك قدرة على ان تهزّنا وتكوينا بنارها.

والآن أودّ أن أعرض لكم "قراءة" الفصل الخامس من إنجيل يوحنا، للدخول في روح الاسبوع الثاني من تمارين القديس اغناطيوس، هذا الاسبوع الذي يدعونا إلى التأمل في رسالة يسوع وسط احتجاج العالم، لكي نميّز ما فينا من الظلمات. ونلتزم السير نحو النور؛ فنختار الأصالة وليس الكذب، الحرية وليس العبودية، الحياة وليس الموت.

ان الفصول ٥-١٢ تتناسب جيداً مع الاسبوع الثاني، وتشكل عوناً نفيساً يساعدنا على التمييز.

فالفصل الخامس يفتح الباب أمام جدلية لا تنتفي منها الصدامات. فهو، مع كونه ينتمي إلى **"كتاب الآيات"**، نلاحظ فيه تحوّلاً، بالمقارنة مع الفصول السابقة. ذلك ان المأساة الحقيقية هي على وشك الانفجار: "فأخذ اليهود يضطهدون يسوع لأنه كان يفعل ذلك (شفاء مقعد) يوم السبت" (٥: ١٦).

وتضيف الآية ١٨: "فاشتدّ سعيُ اليهود لقتله". فنحن، إذن، أمام نص مهم وخطير.

١. قراءة يوحنا ٥

هذا الفصل طويل جداً، ومن السهل أن نقسمه إلى قسمين كبيرين: يحتوي القسم الأول على الآيات من ١ إلى ١٨: إنها رواية آية والجدال الذي نتج عنها. أما القسم الثاني فيمتد من الآية ١٩ إلى ٤٧: وهو خطاب منفرد (مونولوج) يقوم به يسوع —ومن الصعب التمييز بين مختلف المراحل فيه- ويعطى له أحياناً عنوان "خطاب في عمل الابن".

الآية والجدال

١. توضح لنا **مقدمة** هذا الفصل إحداثيات هذا المشهد، مع زمانه ومكانه (الآيات ١-٤).

"وبعد ذلك كان أحد أعياد اليهود، فصعد يسوع إلى أورشليم". انه **زمن** احتفالي، ولكننا لا نعلم هل ان المقصود عيد الفصح أم عيد آخر. وبالإضافة إلى ذلك، فهناك عدد من المفسرّين تمنوا نقل هذه الرواية ووضعها بعد الفصل السادس، إذ من شأن هذا التغيير أن يزيد وضوحاً تنقلات يسوع الجغرافية. ان هذا الاقتراح،

لا يهمنا بالطبع، ههنا. وبالعكس، من المفيد الاشارة إلى أن يوحنا يطيب له أن يضع الأحداث ذات الأهمية الكبرى في علاقة مع الأعياد اليهودية، وذلك، إما لكي يدرجها ضمن ما تعنيه، أو لكي يبيّن انه قد تمّ تجاوزها، في قيمتها الرمزية، عبر شخص يسوع نفسه.

وإذا قيل لنا ان الزمان كان زمان عيد، فلا يوضّح لنا، آنياً، سبب النقاش الحامي الذي سيحدث؛ فلقد كان اليوم يوم سبت.

أما **مكان** الوحي والنقاش، فهي أورشليم، مع توضيح يأتي للحال: "وفي أورشليم بركة عند باب الغنم، يُقال لها بالعبرية بيت ذاتا، ولها خمسة أروقة، يضجع فيها جمهور من بين عميان وعرج وكسحان". (الآيات ٢-٣).

هذا هو اطار المشهد. وان ذكر "جمهور من المرضى" يذكّرنا بخلاصة الازائيين حينما يتكلمون عن عدد كبير من المرضى الذين يحاولون أن يلمسوا يسوع. إلا أن المشهد هنا مختلف: لا أحد يشعر بأن يسوع يدنو من المرضى وبأنه يختار واحداً منهم.

وينقل لنا الإنجيلي في الآية ٤، تقليداً شعبياً: "لأن ملاك الرب كان ينزل أحياناً في البركة ويحرك الماء. فكان الذي يسبق إلى النزول بعد تحريك الماء يُشفى من أي مرض أصابه".

٢. على هذه الخلفية المحلية والزمنية يبرز **شخصان**: يسوع والمريض (الآيات ٦-٨). ثم، في الآيات ٩ب إلى ١٤، نلاحظ أن اليهود يسألون الرجل الذي شُفي، ومن ثم يلتقي يسوع مرة أخرى.

وتبدو الأعمال بسيطة: يسوع يرى المريض مضجعاً، وكأن الجميع قد خذلوه؛ وإذ علم أنه على تلك الحال منذ ثمان وثلاثين سنة، سأله: "أ تريد أن تشفى؟" لنتأمل الكلمة المتجسد، المليء بالشفقة والحنان، يجعل ذاته قريباً إلى الإنسان، ويأخذ المبادرة بشفائه، لكي ينعم بحياة حقيقية، هادئة وهيجة.

يجيب المريض متشكياً: لا يقول انه يريد أن يُشفى (ولْنَقُلْها: نحن نجهل المرض الذي كان يعاني منه)، ولكنه يعترف بانه لا يفلح في الافادة من قوة الماء الشافي. انه إنسان فقير، مُهمَل ومُذَلّ، لم تبقّ له أشواق، عاجز عن مساعدة نفسه، وبوسعنا القول انه شخص ضائع، لا يدري ماذا يريد.

ويُصدر يسوع إليه أمراً بقوة: "قم، فاحمل فراشك وامشِ!" و"شُفي الرجل لوقته، فحمل فراشه ومشى" (الآيات ٨-٩أ). هذا هو، إذن، الواقع والحدث؛ والآيات التالية تروي لنا مردوداته.

٣. وتُقدَّم هذه المردودات على مرحلتين:

أولاً، يرى الرجل ذاته في مجابهة مع اليهود: "وكان ذلك اليوم يوم سبت. فقال اليهود للذي شُفي: هذا يوم السبت، فلا يحلّ لك أن تحمل فراشك". (الآيتان ٩ب-١٠). ومن الغريب، لا بل من المذهل أنهم لم يطرحوا عليه أي سؤال عن شفائه، ولم يشغلهم سوى أمر واحد: وصية السبت. ولا يعرف المريض المعافى كيف ينجو من هذا المأزق، لذا يجيب: "ان الذي شفاني قال لي: احمل فراشك وامشِ!، فسألوه: من الرجل الذي قال لك: احمل فراشك وامشِ!، وكان الذي شفي لا يعرف من هو" (الآيات ١١-١٣).

ويجري شيء مماثل مع المولود أعمى؛ فهو أيضاً كان يجهل من الذي ردَّ إليه بصره (٩: ١٢).

وفي الآية ١٤، هوذا يسوع من جديد في الهيكل، ويلتقي المريض الذي شُفي وقال له بقسوة: "ها انك تعافيتَ، فلا تعد إلى الخطيئة، لئلا تُصاب بأسوأ"! انها كلمات خطيرة تطرح معضلات لا يتسع الوقت، للأسف، للإجابة عليها. فهي لا تعني بالتأكيد أن المرض هو نتيجة خطيئة، ولا تقيم أي ارتباط بين الخطيئة والمرض. مهما يكن من أمر، فان يسوع يكشف ذاته لرجل، وهذا بدوره يكشفه لليهود: "فذهب الرجل إلى اليهود فأخبرهم أن يسوع هو الذي شفاه". (الآية ١٥).

والزمن الثاني الذي يتبع هذا الحدث هو الجدال: فهو ينشب في الآيات ١٦-١٨، وقد استبقتُ قراءته للتشديد عى التعارض بين الظلمات والنور.

شرع اليهود يضطهدون يسوع، لأنه يعمل حتى في يوم السبت. ويسوع، عوضاً عن أن يدافع عن نفسه، يزيد الخلاف خطورة إذ يقول: "ان أبي ما يزال يعمل، وأنا أعمل أيضاً. فاشتدّ سعي اليهود لقتله، لأنه لم يقتصر على استباحة حرمة السبت، بل قال ان الله أبوه، فساوى نفسه بالله".

وهكذا ينتهي القسم الكبير الأول من هذا الفصل، وهو قسم روائي، يضعنا على الفور أمام **جدّية الإيمان!** لنُجب بنعم أو لا: هل نحن مستعدون حقاً أن نؤمن بأن يسوع هو كلمة الله، الابن الوحيد الذي هو دوماً مع الآب، وأبوه دوماً فيه؟ هذا هو الوحي بكل ما فيه من السموّ: علينا ان نضع أنفسنا ازاء هذا الوحي ونتساءل عن عمق تلقّينا للسر، وعن الطبيعة الواقعية لفعل إيماننا.

ليس الجواب سهلاً. لقد عانت الكنيسة الأولى كثيراً -طوال قرنين أو ثلاثة في الأقل- لكي تقبل هذا التأكيد اليوحناني. وان معضلة البدعة الاريوسية كلها -وكانت ما تزال حية في عهد القديس امبروسيوس- كَمُنَت في مقاومة وحي يسوع الابن الوحيد؛ فالأريوسيون يؤكدون انه كان إنساناً متميزاً تماماً، وخارقاً إلى حد كبير، ولكنه ليس الله نفسه.

وهكذا لم تبلغ الكنيسة بسهولة إلى الاعتراف بألوهية يسوع في إعلان تم عليه إجماع. ولا شك أن كثيرين منّا، لو قُيّض لنا أن نعيش في ذلك الزمان، لبقينا مترددين بشأن اختيارنا. لنعترف بشجاعة امبروسيوس: لقد أعلن إيمانه بالكلمة المتجسد، وأقنع به جماعة آريوسية، واقليروساً كان قد تربى حسب البدعة الأريوسية.

واليوم أيضاً، هناك مفكرون كثيرون يعتبرون يسوع بمثابة نبي مستنير، وشخصية مدهشة، ومجدّد فريد في المسيرة الأخلاقية للبشرية. ولكنهم لا يستطيعون الذهاب إلى أبعد، فيَقبلوا وحي إله حاضر حقاً فيما بيننا. ذلك يبدو لهم من قبيل

"اوتوبيا" (أحلام) جميلة! وفي الواقع، لدينا ههنا مفهوم عن الله لا يستطيع الإنسان المحدود أن يفهمه: لماذا تجرأ الله وارتمى في المعترك، إلى هذا الحد، محبة بالبشرية؟

ان جدية الإيمان لا تفتأ تعذّب الكثير من الضمائر، لأنها تقتضي استسلاماً مليئاً بالثقة في سرّ محبة الآب. وهي تتطلب منّا أن ندع الله، وهو آب، يكشف عن ذاته في التخلّي والتواضع، حتى الموت على الصليب، حاملاً خطايانا وخطيئة العالم.

مونولوج يسوع

ينقل لنا القسم الثاني من الفصل الخامس (الآيات ١٩-٤٧) خطاباً انفرادياً (مونولوج) ليسوع يصعب جداً إيجازه. وسبق لي ان حاولت تحديد نبرته، بنوع بسيط وواضح، ولكني تخلّيت عن ذلك. ويبحث المفسرون عن دينامية واضحة بالكفاية لهذا الخطاب، لكن ذلك يتطلب طرحاً دقيقاً جداً. ففضّلت أن أستعرض الآيات، وأشير إلى الكلمات المفاتيح، وأعود إلى بعض المواضيع الأساسية التي تحدّث عنها يسوع، بدون أن يظهر، لأول وهلة، نظام بكل معنى الكلمة. إليكم حوالي عشرة مواضيع تشكل بنية المونولوج بنوع متميز:

- الكلمة الأولى التي تُسلَّط الأضواء عليها هي كلمة "**عملَ**" أو فعلَ: عمل الله وعمل الكلمة المتجسد. في الآية ١٩، يتكرر هذا الفعل أربع مرات: "فقال لهم يسوع: "الحق الحق أقول لكم: لا يستطيع الابن أن **يفعل** شيئاً من عنده، بل لا يفعل إلا ما يرى الآب **يفعله**. فما **فعله** الآب **يفعله** الابن على مثاله". انه يضع في مركز النقاش مع اليهود هذا الفعل الذي يتوسع في الكلمة المفتاح الواردة في الآية ١٧: "ان أبي يعمل، وأنا أعمل أيضاً".

- "عمل" أو "فعل" يصبح بعد ذلك "أحبَّ"؛ لأن الآب يحب الابن ويريه جميع ما يفعل" (الآية ٢٠أ). إنما بالمحبة يُظهر الآب "عمله" للابن.

- والكلمة المفتاح الأخرى هي "**الحياة**": "فكما أن الآب يقيم الموتى ويحييهم، فكذلك الآب يحيي من يشاء" (الآية ٢١). ذلك ان هبة الحياة خاصة بالآب كما بالابن.

❁ ويقود موضوع الحياة إلى موضوع **الدينونة**، وقد تم توضيحه جيداً في الآيات ٢٢-٢٧: الآب لا يدين أحداً، بل جعل الحكم كله للابن، "لكي يكرم الابن جميعُ الناس، كما يكرمون الآب".

❁ في الآية ٢٤ أ، يأتي فعل "**آمنَ**": "من سمع كلامي وآمن بمن أرسلني، فله الحياة الأبدية". لنلاحظ الارتباط ذا المعنى الكبير بين الحياة وفعل "آمنَ".

❁ في الآية ٢٤ ب، يتعمق ذكر الحياة ليصبح "**حياة أبدية**". هذه الحياة الأبدية تشغل مكانة القلب من المونولوج كله: "من سمع كلامي وآمنَ بمن أرسلني، فله الحياة الأبدية، ولا يمثل لدى القضاء، بل انتقل من الموت إلى الحياة". فالارتباط بين سمعَ، وآمنَ، والحياة الأبدية، والقيامة، والانتقال من الموت إلى الحياة، يبدو لي ارتباطاً مهماً. وفي الآيات ٢٥-٢٩ نجد فكرة قيامة الأموات مفسَّرة.

❁ هناك كلمة مهمة جداً للإنجيل الرابع هي كلمة "**الساعة**". وقد استعملها يسوع للمرة الأولى في عرس قانا، حينما قال لأمه: "لم تأتِ ساعتي بعد!" (٢: ٤). وتكررت هذه الكلمة، بمعنى اواخري، في الآية ٢٨: "فتأتي ساعة فيها يسمع صوته جميع الذين هم في القبور (...) فيخرجون منها". ويتناول يسوع في الوقت نفسه موضوع الدينونة ويقول: "أما الذين عملوا الصالحات، فيقومون للحياة، وأما الذين عملوا السيئات، فيقومون للقضاء" (الآية ٢٩). ويعبّر يسوع، في "مونولوجه"، عن جميع المواضيع الأساسية في النص اليوحناني، وذلك، في نظام يبدو انه عاطفي أكثر منه عقلاني. ونشعر انه يتكلم من عمق خبرته، بصفته الكلمة المتجسد، مستعيراً الأفعال والأسماء التي تشير إلى ملء الرسالة التي عهد بها الآب إليه.

❁ في الآية ٣١، نجد كلمة أخرى ذات مدلول، هي: **الشهادة**. وكانت هذه الشهادة، كما رأينا في المقدمة، ترتبط بيوحنا المعمذان. وهنا يطبّقها يسوع على نفسه، وليس على الآب. ونرى ان هذا الموضوع يسير في ثلاثة اتجاهات: شهادة يوحنا المعمذان (٣٣-٣٥)، والشهادة التي يؤديها الآب للابن (الآية ٣٦-٣٨)، وشهادة الكتب المقدسة في شأن الابن (الآية ٣٩).

أما شهادة الآب فهي شهادة الأعمال: "أما أنا فلي شهادة أعظم من شهادة يوحنا: ان الأعمال التي وكلَ إليَّ الآب أن أُتمها، هذه الأعمال التي أعملها هي تشهد لي بأن الآب أرسلني. والآب الذي أرسلني هو شهدَ لي". (الآيتان ٣٦-٣٧).

هكذا، فان رسالة يسوع: العمل، الحب، الحياة الأبدية، الدينونة، الساعة، الشهادة، والعمل من جديد... تملأ بغزارة هذا القسم من الخطاب الذي ينتهي أخيراً بنبرة مأسوية: "وأنتم لا تريدون أن تُقبلوا إليَّ، فتكون لكم الحياة" (الآية ٤٠).

❁ الآيتان التاليتان (٤١-٤٢) تسلطان الأضواء على موضوع "**المجد**"، الذي سيتكرر في الفصول الأخرى. ومن ثم يأتي موضوع "**المحبة**" ولكن بشكل سلبي: "قد عرفتكم، فعرفت أنْ ليست فيكم محبة الله" (الآية ٤٢).

ويواصل يسوع حديثه بالإشارة إلى العلاقة التي تربط الابن بالآب. فأن لا يتلقى البشرُ الابنَ، ولا يقبلونه بالإيمان، فذلك يعني ان موسى سيشكوهم إلى الآب: "لو كنتم تؤمنون بموسى، لآمنتم بي، لأنه في شأني كتبَ. وإذا كنتم لا تؤمنون بكتبه، فكيف تؤمنون بكلامي" (الآيتان ٤٦-٤٧). إنها أقوال نارية قاسية جداً. وهكذا ينتهي المونولوج بإشارة إلى الطابع النبوي للكتب المقدسة.

لنتعلّم أن نقرأ هذا النص من جديد، للدخول إلى سر المسيح، في حقيقته، كما عُرضت علينا، ولكي تبقى هذه الحقيقة في قلوبنا.

٢. التأمل في النص

أتوق إلى الاحتفاظ في الأقل برسالتين من هذا النص الذي يتميز جداً بغناه وعمقه.

١. الرسالة الأولى، وقد أشرتُ إليها خلال "القراءة": هي رسالة **جدية الإيمان**، التي ترّن بقوة في هذا الفصل الخامس. ويبدو لي من المهم أن أوجزها.

لا يتكلم يوحنا عن الإيمان بصورة عامة، بل عن الإيمان بابن الله، بالكلمة الذي تجسد بتواضع، وجعل ذاته قريباً منّا، طافحاً بحنان مليء بالحضور، وهكذا يكشف لنا عن "**مجدّه الإلهي**". فيسوع، هذا الإنسان المرفوض والمضطهَد، يتمم آيات كلها مجد –مثل شفاء المقعد– وهو في الوقت نفسه يقدّم ذاته عبر آيات تبدو واهية، كونه مجرَّداً من السلطة المدنية والعسكرية، وحتى الدينية.

إن الكلمة المتجسد مساوٍ للآب، ويأتي برؤية جديدة عن الواقع: فهو يُظهر لنا أن كل انسان، بفضل حضوره، يستطيع أن يولد ثانية من عَلُ، ويطمح إلى ملء الحياة. وجدية الإيمان هذه هي دوماً موضوع جدال. ولقد ذكّرت السلطة الكنسية، في الوثيقة التي مطلعها "الرب يسوع"، بأننا، اليوم، ازاء محاولات ترمي إلى إضفاء طابع الابتذال على شخص يسوع، وإلى التقليل من شأنه، ربما بهدف جعل الحوار ما بين الأديان أكثر سهولة، أو لتمكين المفكرين من أن يقبلوه بدون أن يصطدموا بمعثرة إنسان يعلن نفسه مساوياً لله، ويتحدّى المفهوم الذي يرفض الاعتراف بإله يحب العالم إلى حدّ انه يتخذ جسداً في طبيعتنا البشرية!

٢. الرسالة الثانية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالأولى: **يسوع يعلن باصرار وحدته مع الآب**. فهو لا يتهرب من جدالات اليهود؛ ووفق الفصل الخامس، يوقّع على الحكم بالاعدام الذي يَطالُه، طالما يكرّر انه يعمل مثل أبيه. انه لا يدخل في النقاش حول السبت، بعكس ما نراه لدى الازائيين؛ وهو بالأكثر يزيد في الطين بلة إذ يقول: "لا يستطيع الابن أن يفعل شيئاً من عنده، بل لا يفعل إلا ما يرى الآب يفعله" (الآية ١٩)، وإنه مساوٍ لله.

فبهذه الوحدة مع الآب التي يعلنها يسوع بإصرار، يتعلق حضوره بيننا، ترافقه هبة محبة الله والحياة الأبدية. فالمونولوج لا يفتأ يذكّر بسر الآب الذي يحبنا، ويكشف لنا معنى التاريخ؛ ذلك ان رسالة يسوع تكمن في اتاحة الفرصة للبشر كي يكتشفوا المعنى الحقيقي لوجودهم.

أنْ يكون الكلمة المتجسد بيننا، بوجه بشري، فهذا أمر يمارس تأثيراً مدهشاً على قيمة كرامة كل إنسان، وكذلك على دعوة الكنيسة.

٣. نحو المشاهدة

والآن يسعنا أن نسير نحو المشاهدة بفضل سبيلَين للصلاة:

❁ ماذا يفكر الناس عن يسوع؟ وأنا، ماذا أفكر عنه.

يجد الناس صعوبة كبيرة في الاعتراف بإله يكون حقاً حاضراً في يسوع: كيف نساعدهم لكي ينجزوا قفزة نوعية في الإيمان؟

وما هي فكرتي الخاصة؟ لندع هذا السؤال يرّن في أعماقنا، واضعين أنفسنا في الصلاة أمام الرب.

❁ السبيل الثاني: هل النظرة التي احملها عن يسوع تغمرني رجاءً وسلاماً؟

إذا كان يسوع يُقدّم ذاته في حقيقته، فلكي يملأنا رجاءً وسلاماً، ولكي يدفعنا إلى إلقاء نظرة واثقة على أحداث العالم، لأنه حاضر فيها. انه قريب من الإنسان لا محالة، وجميع القوى الجهنمية لن تفلح في استئصاله من الأرض، لأنه اتّخذ إنسانيتنا بالتجسد، والموت، والقيامة والصعود. ففي يسوع، نعرف ان الله واحد منّا، واننا لن نهلك، لأنه أرادّ أن يحبنا بهذا الشكل.

فمشاهدة سر التجسد، والعزم على الإيمان بالمسيح، ابن الآب، سيفجّران في قلبنا مشاعر الرجاء والسلام والفرح والثقة.

" وانتم لا تريدون ان تُقبلوا اليَ فتكون لكم الحياة "

أعداء يسوع

في اطار الاسبوع الثاني من تمارين القديس اغناطيوس، اعرض عليكم تأملاً سيكون بمثابة حصيلة موحِّدة للفصول ٥ إلى ١٢؛ وسأعطيه عنواناً: "**أعداء يسوع**"، وهو بمثابة نوع من الموازنة مع التأمل الذي قمنا به في أصدقاء يسوع، حين أوضحنا الهدف الذي أراد يوحنا أن يقودنا إليه.

نستطيع أن نقدّم هؤلاء الأعداء بتوزيعهم على ثلاث فرق أو فئات.

تتضمن الفئة الأولى أولئك الذين يتّهمون يسوع بانه ينتهك السبت؛ وسأعود سريعاً إلى الفصل الخامس، ولكن من منظور مختلف ومتكامل.

الفئة الثانية مهمة جداً: انها مكوَّنة من أشخاص يتهمون يسوع بوضوح، بدافع الحسد و ضيق الفكر. وسأتناول بالأخص الفصل السابع.

وتتكون الفئة الثالثة من أولئك الذين يتهمهم يسوع بالرياء، وهم، بدورهم، يردّون عليه بتهمة، كما في الفصل الثامن.

وتضم الفئة الرابعة أخيراً أشخاصاً لهم تصرفات الفئات الأخرى ذاتها، ولكنهم، بالإضافة إليها، يريدون القضاء على يسوع: انهم لا يحتملونه ويبحثون عن سبيل إلى قتله.

١. فئات الأعداء الأربع

تهمة انتهاك حرمة السبت

في الفصل الخامس، هناك أمر يثير العجب؛ فاليهود، عوضاً عن أن يهتموا باداء الشكر لله على شفاء هذا المريض، وعوضاً عن تمجيده لرؤيتهم المريض معافى، فانهم يهاجمون يسوع بصورة عدوانية وهزيلة ويقولون له: لماذا صنعتَ الشفاء في يوم سبت؟

ونعلم ان هذه المهاجمة تجري على دفعتين: انهم يكيلون التوبيخ للمريض الذي لا يعرف كيف يتخلص من هذا المأ

زق، ولا يفلح في الخروج من هذه الدائرة الشكلية. ويجيب على الفور انه لا يعرف من الذي شفاه. ثم، في وقت ثانٍ، يهاجمون يسوع ويتهمونه بصراحة على انه ينتهك حرمة السبت.

هنا، أطرح سؤالاً على نفسي: كيف يمكن أن يطالب يسوع، بحريته تجاه السبت، بهذه القوة؟ كان في وسعه أن يشفي المريض في العشية او في اليوم اللاحق. فلمَ هذا الإصرار؟ لقد وجدنا سبباً لذلك حينما أجرينا تحليلاً لآيات هذه الرواية: انه يريد أن يدافع عن وضعه وحريته بصفته ابناً. فهو يجابه الظلمات، ليس على الصعيد الأخلاقي فحسب، بل على الصعيد اللاهوتي أيضاً: يجب أن يعرف الناس انه الابن، وانه يحيا مع الآب في شركة فريدة.

وإذا أكدّ يسوع على حريته تجاه السبت، فلسبب ثانٍ: انه يريد ان يدافع عن حرية كل إنسان وعن كرامته.

وأطرح على نفسي سؤالاً آخر: لماذا يتّهمه اليهود ولا يفهمون كلامه؟ من المحتمل أن يكون ذلك لسببين. قبل كل شيء، لأنهم ضحايا بعض التزمّت الشكلي: انهم يتشككون إذ يرون وصية السبت تُخترَق؛ ولكنهم لا ينذهلون ازاء عظمة الاعجوبة. لذا فانهم لا يريدون أن يسمعوا دوافع يسوع. إلا ان هذه الشكلية تخفي رفض قبول الله، كما هو، ورفض قبول حريته، وما فيه من الجديد دوماً، مع سلطانه

في الكشف عن ذاته أكثر مما كنا قادرين على فهمه. فنحن أحياناً نركّز انتباهنا على كلمة، وننسى أن علينا أن نكون مُصغين، بدون شروط، إلى الحرية التي يتخذها الله حينما يكشف عن ذاته. والسبب الثاني للتهمة يجعلنا نفكر في الاصولية الاسلامية التي تدافع دفاعاً مستميتاً عن وحدانية الله، مع رفض امكانية أية طريقة أخرى للتجلي الإلهي. فنحن، إذن، بازاء دوافع ايديولوجية تحول دون القبول بأن بوسع الله أن يكشف عن نفسه بطريقة مختلفة عمّا نعتقده.

فالمسألة المطروحة هي، إذن، مسألة الإيمان بصفته موقفاً أساسياً للإنسان لدى تلقّيه كلمة الله الذي يكشف عن ذاته.

التهمة بدافع الحسد والانغلاق

تحيلنا الفئة الثانية من أعداء يسوع إلى مضمار واقعي يعكس بسيكولوجية كل الأزمنة: انهم أولئك الذين يتهمون بدافع الحسد.

"فآمن بهِ من الجمع خلق كثير وقالوا: "أَ يُجري المسيح من الآيات حين يأتي أكثر مما أجرى هذا الرجل؟ فسمع الفريسيون الجمعَ يتهامسون بذلك في شأنه، فأرسل عظماءَ الكهنة والفريسيون بعض الحرس ليمسكوه". (٧: ٣١-٣٢). يبدو من البديهي ان الحسد هو الذي يحرّكهم؛ ذلك لأن الناس يتبعونه ويعظمونه ويصغون إليه، وهذا يعني ان الرجل سيطردنا وينتزع منّا السلطة! الحسد، وما ينتج عنه من الخوف: هذا هو أصل شرور عديدة جداً في المجتمع وفي الكنيسة.

وفي الآيات ٤٤-٤٩، وفي اليوم الأخير من العيد الكبير، بعد أن سمع الناس أقوال يسوع وتساءلوا هلا يكون هو المسيح: "أراد بعضهم أن يمسكوه، ولكن لم يبسط إليه أحد يداً. ورجع الحرس إلى عظماء الكهنة والفريسيين. فقال لهم هؤلاء: لماذا لم تأتوا به؟ أجاب الحرس: ما تكلَّمَ إنسان قط مثل هذا الكلام. فأجابهم الفريسيون: أخُدعتم أنتم أيضاً؟ هل آمن به أحد من الرؤساء أو الفريسيين؟ أما هؤلاء الرعاع الذين لا يعرفون الشريعة، فهم ملعونون". لقد افترسهم الحسد: يسوع يعرف أكثر منّا، ويتكلم أحسن منّا، ويستغلّ الجموع!

إذ ذاك يتدخل نيقوديمس، كما رأينا: "أَوَتحكم شريعتنا على أحد، قبل أن يُستَمَعَ إليه ويُعرَف ما فعل؟" (الآية ٥١). إلا انهم يردون عليه: "أَوَأنت أيضاً من الجليل؟ ابحثْ ترَ أنه لا يقوم من الجليل نبي" (الآية ٥٢). انهم لا يعيرون أي انتباه إلى سؤاله الذي يعبّر ، مع ذلك عن المنطق: يجب على المرء أن يسمع ويفهم ويتقصّى قبلَ أن يصدر حكماً.

وازاء عمل الله في هذا الحدث، لا يكفّ الحسد والانغلاق عن تثبيت وجودهما. فالظلمات ليست شيئاً مبهماً؛ بل بالعكس، نحن بصدد حقيقة واقعية جداً، وحاضرة حضوراً قوياً في القلب الإنساني: ان هذا الرجل ينعم بنجاح أكبر منّا، فعلينا أن نقضي عليه.

انها القصة القديمة، قصة شاول ضد داود: إليَّ ينسبون ألفاً، وإلى داود عشرة آلاف! انها كذلك القصة التي فيها يفهم بيلاطس، في وقت ما، ان يسوع قد أُسلم إليه حسداً: "فأجابهم بيلاطس: أتريدون أن أطلق لكم ملك اليهود؟ لأنه كان يعلم أن عظماء الكهنة من حسدهم أسلموه" (مرقس ١٥: ٩-١٠). ان كلمة "الحسد" ترد مرات كثيرة في المزامير. فالحسد، وهو أصل الشرور كلها، يتغلغل، كما قلت أعلاه، حتى في الأوساط الكنسية. وقد كتب رينيه جيرارد عن طبيعة الحسد المنحرفة، وقال انه نتيجة المحاكاة غير المرتّبة؛ وهكذا قدَّم تفسيراً واسعاً لتاريخ الحضارات والثقافات وحتى الأناجيل. فكل واحد يحسد قريبه، ويرغب في ان يعمل ما يعمله الآخر، ويقتني ما يقتنيه الآخر؛ ومن هذا الرصيد السلبي تنشأ المدن والحضارات والديانات والذبائح إلى أن تتمخض عن موت البريء، يسوع، ضحية الحسد المقصودة.

انه لمن المفيد للكهنة أن يفكروا في الحسد "**الاكليريكي**". في هذا الشأن، وجدتُ حدساً مهماً في كتاب دونالد كوزنس، وقد ذكرته حينما تكلمت عن الصداقة. فبحسب هذا المؤلف، ينخر الحسد في البيئة الاكليريكية بسبب المغالاة المفرطة التي تعطى للنموذج الكنسي: فالكنيسة هي أم، والأسقف هو أب، والكهنة هم جميعاً اخوة. وهذا النموذج يعبّر دون شك عن قيم، ولكنه، في الوقت نفسه،

يتيح للقوى السلبية الغازية أن تثور؛ وكان فرويد قد اكتشفها فيما مضى بين أعضاء أسرة ذاتها. فحينما نتصور الكنيسة بحسب هذا النموذج لا غير، وليس كإشعاع للثالوث، فلا عجب أن تنشأ الخصومات وأشكال الحسد (لنتذكر ما جرى بين اخوة يوسف الذين كانوا حاقدين عليه لكونه المفضَّل عند أبيه يعقوب). والتحليل الذي يجريه "كوزنس" هو على قدر من الأهمية. ففيما يتعلق بي شخصياً، لم أشأ أبداً أن أشدّد على الدور الأبوي عند الأسقف؛ لا شك ان ثمة أبوّة، ولكن يجب أن تُعاش على ضوء كلمات يسوع: "لا تدعوا أحداً أباً لكم في الأرض، لأن لكم أباً واحداً هو الآب السماوي" (متى ٢٣: ٩). وإلا فإذا لعبنا دور الأب، وتوخَّينا أن نحتل مكانه واقعياً، فذلك يثير ولا شلك ردود فعل غير متوقّعة.

وكتبَ كوزنس: "ان قوى نفسانية تتضافر لتتحرك تحت مستوى الوعي، وتدفع الكهنة إلى تصرّفات ومواقف قد تضعف لديهم رغبتهم الواعية في خدمة شعب الله. وفي عداد هذه المواقف والتصرفات، علينا أن نحصي الاكليريكانية والنخبوية والتدرّجية في المناصب، والعقلية الشريعانية، والحسد والمنافسة. وما ان أصبح الكاهن سجين هذه القوى النفسانية، فإنه يميل بسهولة إلى إضفاء مزيد من الهوية على شخصيته الكهنوتية، ويتناسى بالنتيجة هويته بصفته معمَّذاً! لذا تدعو الضرورة إلى تقليل الهالة حول هوية الكاهن والحدّ من اجتياحها؛ إلا أن هذا قد يلاشي الطاقات التي لديه في اقامة علاقات نزيهة مع رجال ونساء. فشخصيته ككاهن تصبح بمثابة الصخرة التي عليها يؤسس هويته، والنبع الذي منه يستمد سنده. ذلك ان التوازن الدقيق بين هويته العماذية وهويته الكهنوتية قد يختل. وإذا ما اجتاز الخط، قد يحتمي في الاعتقاد الحلو — المرّ بأنه ليس مثل سائر الناس. فماذا يفسّر يا ترى هذه المواقف النخبوية، وهذا الحسد الذي يكاد يكون مبَطّناً تجاه اخوته الكهنة، والجمود الغريب الذي نجده عند العديد من الكهنة؟ وماذا سنرى لو ألقينا نظرة هادئة على القوى اللاواعية التي تصوغ وتؤثر في حياة الكثيرين من الكهنة وفي عالمهم الداخلي"[1].

(١) دونالد كوزنس: الوجه الجديد للكاهن، ص ٩٦-٩٧، دار بايارد ٢٠٠٢.

هذه الخواطر تساعدنا على الكشف عن الحرمانات، والمعانيات، والاحباطات، والانتظارات. انها تحيلنا إلى صورة لكنيسة ليست في صلة مباشرة مع يسوع، ومع الآب، ومع نعمة الروح القدس، بل هي، على النقيض من ذلك، في صلة بنماذج بشرية قد يكون فيها بعض الخير، ولكن قد تأتي منها أيضاً نتائج سلبية، وعوائق، وأهواء، وانحرافات.

وهكذا، فان هذه الصفحة من إنجيل يوحنا (الفصل السابع) ليست بعيدة عنّا، بل تحثنا على التساؤل عن سبب بعض أوقات الملل والحرمان والمرارة والاحباط. لاسيما إذا كانت هذه الأمور مستمرة، ويُحتمل أن تدوم طوال الحياة، فهذا يعني أن شيئاً ما ليس في موضعه في الرؤية الفكرية وفي رؤية الإيمان.

المتّهمون الذين يتّهمون

أما الفئة الثالثة من أعداء يسوع، فلديها أمر غريب: انها تتكون من أشخاص يتّهمهم يسوع، وهم، عوض أن تهزّهم توبيخاته، يهاجمونه حالاً.

"فقال لهم يسوع: لو كان الله أباكم لأَحْبَبْتُموني لأَنِّي من الله خَرجتُ وأَتيت. وما أَتَيتُ من نَفْسي بل هو الَّذي أَرسَلَني. لماذا لا تَفهَمونَ ما أَقول؟ لأَنَّكُم لا تُطيقونَ الاستماعَ إلى كلامي. أَنتُم أَولادُ أَبيكم إبليس، تُريدونَ إتمامَ شَهَواتِ أَبيكم. كانَ منذَ البَدءِ قَتَّالاً للنَّاس ولَم يَثبُتْ على الحَقّ لأَنَّ ليسَ فيه شَيءٌ منَ الحقّ. فَإذا تكَلَّمَ بالكذب تَكَلَّمَ بما عنده لأَنَّه كذَّابٌ وأَبو الكذب. أَمَّا أَنا فلأَنِّي أَقول الحَقّ لا تُؤمنون بي. مَن منكم يُثبتُ عَليَّ خَطيئة؟ فإذا كنتُ أقولُ الحَقّ فلماذا لا تُؤمنون بي؟ مَن كان من الله استَمَعَ إلى كلام الله. فإذا كنتم لا تَستَمِعونَ إليه فلأَنَّكُم لَستُم من الله". (٨: ٤٢-٤٧).

ان التُّهم ذات خطورة قصوى: فهي تأتي من الشعور الذي لدى يسوع بهويته، وبوحدته مع الآب، وبما يراه: ان الذين يسمعونه لا يريدون أن يفهموه؛ فهم، إذن، لا يسمعون إلى كلمة الله.

كان بوسع ردة الفعل أن تكون متواضعة: ولكن كيف، ومن أين، ومتى؟

فسّرْ لنا بالأكثر، بيّنْ لنا، ساعدنا لكي نفهم. إلا انهم في الحقيقة يشتمونه، ويتّهمونه بكونه ممسوساً: "ألسنا على صواب في قولنا إنك سامري وإن بك مسّاً من الشيطان؟" (الآية ٤٨). فأجابهم يسوع: "ليس بي مَسٌّ من الشَّيطان، ولكنّي أُكرِمُ أَبي وأنتم تُهينوني. أَنا لا أطلُبُ مجدي: فهناك من يطلبه ويحكُم. الحقَّ الحقَّ أقولُ لكم: مَن يَحفَظْ كلامي لا يَرَ الموت أبداً. قال له اليَهود: الآن عَرَفْنا أنَّ بكَ مَسّاً من الشَّيطان. مات إبراهيم ومات الأنبياء. وأنت تقول: مَن يَحفَظْ كَلامي لا يَذُق الموت أبداً. أأنتَ أعظم من أبينا إبراهيم الَّذي مات؟ وقد مات الأنبياء أيضاً. من تجعل نفسك؟" (الآيات ٤٩-٥٣).

ويتلاحق الهجوم والهجوم المضاد، بدون أن يصل الخطاب إلى شيء من العمق.

ما السبب الأساسي الذي من أجله يعارض يسوع خصومه ويثير احتقارهم وسخطهم؟ ذلك لأنهم منغلقون عن الحقيقة، ويرفضون الاستجواب خشية أن تنقلب قناعاتهم الشخصية. وهذا ما يشرح لماذا يلقى تعليمُ الكهنة مقاومات كثيرة: إنهم يحاولون أن يتكلموا، وأن يشرحوا، وأن يساعدوا الناس لكي ينموا في معرفة الله وكلامه، ولكنهم غالباً ما يجدون أبواب القلب والفكر مغلَقة، لأن الناس يرفضون أن يوسعوا آفاقهم، ويريدون أن يردّوا بالنقد والجدال.

أما يسوع، فهو لا يرفض الحوار حتى مع خصومه؛ انه يحاول دوماً الذهاب إلى أبعد من أحكامهم المسبقة.

الذين يريدون القضاء عليه

نلتقي هذه الفئة من الأعداء في الفصل الخامس، بعد الجدال المتعلق بالسبت، وفي الموضع الذي يشير فيه يوحنا إلى رغبتهم في القضاء على يسوع (الآية ١٨). وفي إنجيل مرقس أيضاً، في الفصل الثالث، أي في مطلع رسالة يسوع، نقرأ: "فخرج الفريسيون وتآمروا عليه لوقتهم مع الهيرودسيين ليهلكوه" (مرقس ٣: ٦).

في إنجيل يوحنا (٨: ٥٨-٥٩)، بلغ الجدال ذروته: "فقال لهم يسوع: الحق الحق أقول لكم. قبل أن يكون ابراهيم، أنا هو. فأخذوا حجارة ليرموه بها. فتوارى

يسوع وخرج من الهيكل". إن التصميم عى القضاء عليه يُصبح جازماً أكثر في ١٠: ٣٠-٣٣: "أنا والآب واحد. فأتى اليهود بحجارة ثانية ليرجموه. أجابهم يسوع: أريتكم كثيراً من الأعمال الحسنة من عند الآب، فلأي عمل منها ترجموني؟ أجابه اليهود: لا نرجمك للعمل الحسن، بل للتجديف، لأنك، وأنت إنسان، تجعل نفسك الله". ان تهمة التجديف هذه هي الدافع الأخير الذي دفع اليهود إلى إلقاء القبض على يسوع والحكم عليه.

ماذا يمكننا أن نستنتج من هذا الاستعراض الأول لأعداء يسوع (وهذا التحديد ليس سهلاً، لأن الفئات تتمازج وتتداخل)؟

يبدو لي ان عنصراً أساسياً يطفو على السطح: **ان ما يهمّ هي علاقة يسوع بأبيه**. ونجدنا ثانية في قلب الإعلان الذي ورد في المقدمة الشعرية: ان الآب كشف عن ذاته في يسوع، ويسوع يُظهر الآب. فمن لا يقبله ولا يريد أن يقبله، يتعارض معه بأشكال مختلفة: انه ينبذه، يهينه، يدخل في مجادلة معه.

انها الرسالة الكبيرة التي يحملها نص يوحنا. ولم يَسَعْ الإنجيلي سوى أن يكرّرها، لأنها تسكن في عمق قلبه وحياته.

في هذا الصدد، أذكر لكم كتيّباً لذيذاً وعبقرياً لريمون براون، المفسّر الكبير للإنجيل الرابع. ان محتوى هذا الكتيّب -وقد نُشر بعد موت المؤلف- هو بمثابة رياضة روحية يكون القديس يوحنا نفسه قد ألقى مواعظها! (وعنوانه هو في الواقع: "رياضة مع يوحنا الإنجيلي"). وإليكم مطلعها:

"حينما التقي أناساً آخرين كانوا قد تبعوا يسوع، (كانت خرافًا لم تنتمِ بعد إلى جماعتنا اليوحنانية، وستصبح بعد ذلك منّا)، اسمعهم يتكلمون غالبًا عن الزمن الذي فيه سيأتي ابن الإنسان من السماء ليدين العالم. حينئذ كم أود أن اصرخ بوجههم: أفلا تعلمون أنه قد نزل من السماء ليدين العالم؟ وكثيرون أيضًا هم أولئك الذين يحبون يسوع ويبشرون به، ويبدو أنهم يريدون الانطلاق من عماذه على يد يوحنا المعمذان في نهر الأردن، أو حتى من لحظة الحبل به؛ وكأن

شيئاً لم يكن من قبل! إنهم يجهلون الحياة المجيدة التي كانت له مع الآب السماوي، حتى من قبل إنشاء العالم. وإذا كان الناس لا يفهمون ذلك، فكيف يسعهم أن يفهموا الحدث الذي يقطع أنفاسنا، حين نعلم أن الله أحب العالم إلى هذا الحد؟ لطالما أكدوا ذلك وكرّروه: الله محبة! إلا ان طريقة معرفة هذا الإله- المحبة تكمن في ان الله أعطى ابنه، وأرسله إلى العالم لكي يمكث بيننا" .

ويجاهد يوحنا الإنجيلي قائلاً: "لا ينبغي أن تبدأوا من العماذ، ولا بميلاد يسوع، بل من أعلى. أنتم تبلغون آخر الأمر إلى يسوع ابن الآب، في حين أبدأ أنا بيسوع الابن".

لهذا أكدّتُ مراراً أن الإنجيل الرابع هو محور لحقيقة وحيدة أساسية: يسوع هو الابن، وبهذه الصفة، يجد ذاته مكتَنَفاً بالظلمات، وسيُقتل بسبب شهادته في كونه الابن.

العدو والعالم

ان أعداء يسوع الذين عدَّدناهم في هذا الجزء الأول، يبدون باهتين وبدون ملامح خاصة، إذ لا وجهَ لهم؛ وهذا، دون شك، قد أراده يوحنا لكي يجعلنا نشعر بانحطاط إنسانيتهم.

إلى هذه الفئات، أُضيفُ أيضاً: العدو والعالم. **فالعدو** لم يُدعَ قط بمثل هذه الصفة، بل يُشار إليه باسم ابليس ثلاث مرات: مرة بمثابة "الشيطان"، ومرة بمثابة "الشرير"، وثلاث مرات بمثابة سيد هذا العالم. أما **العالم**، فإن الإنجيلي يتكلم عنه بمختلف المعاني، واحياناً بنوع إيجابي ("لقد أحب الله العالم!")؛ ولكن للإشارة أيضاً إلى النظام الظالم، وإلى العنف المبرمج. فمنذ عبارة "والعالم لم يعرفه" (١: ١٠) حتى عبارة "ذاك الذي يرفع خطيئة العالم" (١: ٢٩)، والكلمة المريرة التي بها تُختم الصلاة المسماة "الصلاة الكهنوتية: "أيها الآب العادل (...) العالم لم يعرفك" (١٧: ٢٥)، موضوعان يتعارضان بشدة مع يسوع. ولكني فضّلت التوقف عند الخصوم الذين يرمزون قليلاً إلى الأعداء النشطين في قصة حياتنا اليومية.

٢. توبيخات يسوع

بعد أن فحصنا التوبيخات التي كالها ليسوع متّهموه، سيكون من المهم أن نفهم على مَ يلومهم يسوع من جهته، بالإضافة إلى الأمر الأساسي: لا يقبلون بأن يكون هو الابن، المساوي للآب.

هناك توبيخان مؤثران جداً بوسعهما ان يمسّانا عن قريب وأن يستجوبانا.

جاءَ التعبير عن الأول في الفصل الخامس (الآيات ٣٧-٣٩): "الآب الذي أرسلني هو يشهد لي. أنتم لم تصغوا إلى صوته قط، ولا رأيتم وجهه. وكلمته لا تثبت فيكم، لأنكم لا تؤمنون بمن أرسل. تتصفّحون الكتب، تظنّون أن لكم فيها الحياة الأبدية: فهي التي تشهد لي". هذه الكلمات الأخيرة تقلقنا بنوع خاص: انكم تقرأون الكتاب المقدس، ولكن الله لم تلتقوا به؛ تقرأون الكتاب المقدس ولكنكم تسيئون قراءته! هذه الكلمة تتوجّه إلينا: في وسعنا أن نعرف الأزمنة والعادات وعلم أصول الكلمات، والتاريخ، وعلم الآثار المتعلقة بالكتاب المقدس، ولكن من دون أن نكتشف وجه الآب، وبدون أن نتعرّف، في الأناجيل، إلى وجه يسوع الذي يُدفئ القلب.

أما التوبيخ الثاني، فقد ورد في الآية ٤٤: "كيف لكم أن تؤمنوا، وأنتم تتلقون المجد بعضكم من بعض، وأما المجد الذي يأتي من الله وحده، فلا تطلبون". يا لها من تهمة رهيبة! إنها تتوجه إلى الذين يعيشون في المديح المتبادل (أمدحك، وتمدحني!)، والذين يساندون بعضهم بعضاً في المجد الباطل. لنفكر في العالم الأكاديمي أو العلمي؛ فيسوع يرفع القناع عن ضعفنا البشري، وعن ميلنا إلى البحث عن المجد، ناسين أن المجد الحقيقي يأتي من الله وليس من الناس. والمدح الباطل، يَسِمُ أيضاً بطابعه العالم الاكليريكي: ذلك ان الكهنة، في خدمتهم، يلقون المديح في أعمالهم، ويختبرون النجاح، ويحظون بجماعة تستمع إليهم، ولكنهم يتعرضون أيضاً للرفض؛ فإذا كانوا فرحين، في الحالة الأولى، ويجتاحهم شعور بالرضى، فانهم

في الحالة الثانية، قد يجتاحهم الإحباط والتذمّر. من المؤكد انه من الأيسر على المرء أن يحظى بالتصفيق من أن يتعرض للصفير! بل الأجمل أن يكون المرء معرضاً للصفير، لأننا إذا أصبحنا عرضة لتهجمات شخص، فسيكون بوسعنا التعبير والكشف له عن قيمة.

مهما يكن من أمر، فإن البحث عن المجد في النشاطات الشخصية يلحق ضرراً عميقاً بالخدمة؛ وخلاصة "كتاب الآيات" تؤيد هذا القول، إذ فيه يكمن موجز عمل يسوع كله: "قال اشعيا هذا الكلام، لأنه رأى مجده، وتكلم في شأنه. غير ان عدداً كثيراً من الرؤساء أنفسهم آمنوا به، ولكنهم لم يجاهروا بإيمانهم، بسبب الفريسيين، لئلا يُفصَلوا عن المجمع، ففضّلوا المجد الآتي من الناس على المجد الآتي من الله" (١٢: ٤١-٤٣).

لا يقول النص ان البحث عن المجد البشري شر مطلق، ولكن حينما نحبه أكثر من محبتنا مجد الله، نتعرض لخطر عدم التعرف إلى الابن، ولا نرى فيه سرَّ الآب.

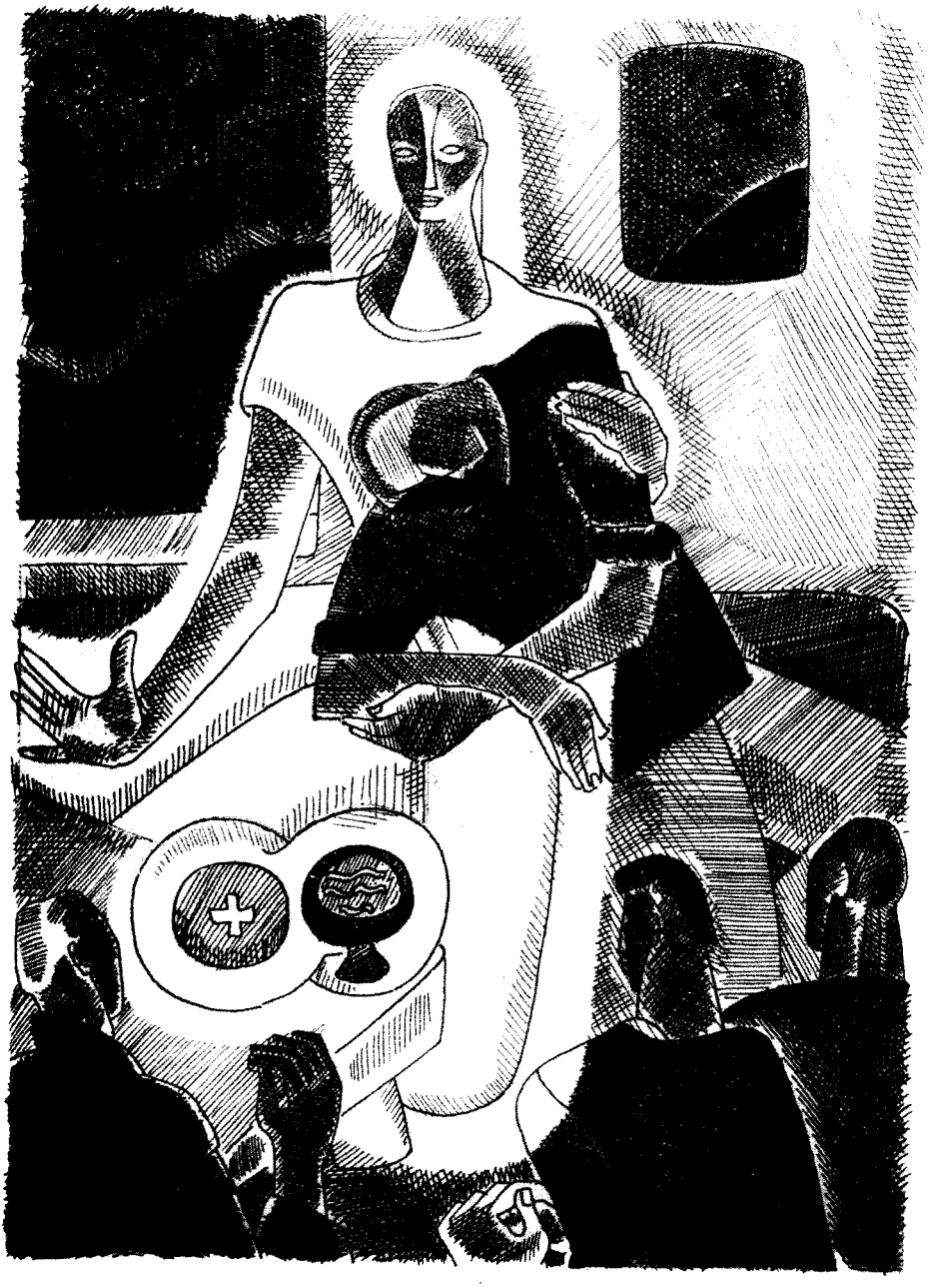

" وكان احد التلاميذ ، وهو الذي احبه يسوع ،
متّكئاً الى جانب يسوع "

يسوع يؤسس جماعة تلاميذه

(يوحنا ١٣: ١-٣٢)

قبل التطرق إلى التأمل الذي يُدخلنا إلى "كتاب الوحي" (الفصول ١٣-١٧)، أودّ أن أنظّم لائحة ببعض فئات، عامة ونظرية، تعارض يسوع، وهذا ما سيكمل الصفحات السابقة. وهكذا فان التأمل في الكلمة المتجسد الذي يكشف سرَّه، بصداقة عظيمة، سيسلّط المزيد من الأضواء على هذه الفئات.

إليكم خمس فئات عامة: الظلال، الظلمة، العبودية، الموت، الخطيئة. خمس ألفاظ تشير إلى مجمل القوى السلبية. وفي وسع كل منّا أن يحاول ترجمتها إلى مفهوم "وجودي"، مستنداً إلى نصوص الإنجيل الرابع التي تتناسب مع كل من هذه الفئات.

الظلال والظلمات، على سبيل المثال، تساعدنا لكي نحدّد موضوع التيه الشخصي، أو تيه مجتمع أضاع البوصلة، ولم تعد له مرجعيات أخرى. وان كلمة **الكذب** تطابق، عند يوحنا، موضوع عدم الأصالة لدى كل شخص (لماذا وكيف أحسّ اني غير أصيل؟)، وكذلك لدى مجتمع يلحق بالأصنام ويتعلق بقيم زائفة. فنحن نعرف عادة أن نكشف الأكاذيب الجماعية في الماضي، ونذكّر بأخطاء أبناء الكنيسة، ولكن يصعب علينا أن نميّز أكاذيب المجتمع الذي نعيش فيه.

ان كلمة "**العبودية**" يمكن أن تُترجم بالتبعية؛ التبعية المذنبة التي تنتسب إلى الحيلة تجاه الأزياء والآراء والمحرّكين المخادعين. فهناك دكتاتوريات مغلّفة بقناع،

في العالم الثقافي والاجتماعي والسياسي أو الاقتصادي؛ ويدور الكلام كثيراً حول نموذج من العولمة.

ثم يأتي، بالتأكيد، الموضوع اليوحناني، موضوع **الموت**، بصفته مشروع الشيطان على الإنسان، وهو يعاكس مباشرة الكلمة الذي هو حياة ومصدر حياة. لنفكر في الطرق العديدة لحذف الحياة البشرية؛ فمن الغريب أن نلاحظ، في بعض البلدان الأوربية، مدى انتشار طريقة الموت الرحيم، ذلك الموت العذب للأشخاص المسنّين أو المرضى أو المتألمين!

وفي أصل جميع هذه الأمور السلبية، تقوم **الخطيئة**، بصفتها حقيقة لاهوتية وكتابية يجهلها أو يتجاهلها عصرنا بسهولة. أما عند يوحنا، فالخطيئة هي رفض الحوار مع الله؛ وهي رفض صداقته المعروضة؛ وتقوم في رفض الإنسان العيش تحت خيمة الكلمة نفسها، هو الذي اتخذ بشريتنا؛ ولكل هذا، نتائج مدمِّرة للأفراد وللمجتمع.

أنْ نستشف خطيئة العالم هذه، فذلك من شأنه ان يثبط عزمنا بالطبع، وقد نصاب بالهلع، لولا ان الحمل رفع خطيئة العالم، ولولا اولئك الذين يحملون أيضاً، هذه الخطيئة، يوماً فيوماً، في الشركة معه، وذلك بتقدمة حياتهم، هم الذين، في صميم المجتمع، بمثابة حضور خلاّق. وهكذا فان المجتمع لا يغرق، لأن يسوع، من الآن، انتصر على خطيئة العالم، ولا يفتأ يرسل رجالاً ونساءً، لكي يعتنوا، باستمرار وشفافية، بمجتمع كاد يصيبُه الدمار بدونهم.

ان رؤية يوحنا تتيح لنا، بفضل تعميق النصوص، أن نقرأ ثانية وضع زماننا وطريقة عيشه.

صحيح ان الإنجيلي لا يتكلم حصراً عن المظالم والانحرافات الاجتماعية والجنسية؛ فهو، خلافاً للازائيين، لا يتناولها قط. انه يعرف وجودها، ولكنه يفضّل أن يمضي إلى الأصل العميق لكل تصرف، صالحاً كان أم طالحاً، ودائماً في نور الكلمة المتجسّد.

بعد هذه المقدمة، لندخل إلى القسم الثاني الكبير من الإنجيل الرابع. انه أجمل الأقسام وأكثرها جاذبية، وهو يتناسب مع الاسبوع الثالث من تمارين القديس اغناطيوس. فإذا كان الاسبوع الثاني قد قادنا إلى التأمل في يسوع، في اطار معارضة العالم، لكي نكتشف الظلمات الموجودة فيناً، ونفضل النور على الظلمات والحياة على الموت... فان الاسبوع الثالث يوحّدنا مع يسوع السائر إلى الموت حبًّا لنا.

ولكن قبل ذلك، سيكون من الضروري أن نجمع من الاقتراحات ما أثّر فينا، ونتذكر ذلك الحدس الروحي، أو ذاك النداء الداخلي، وتلك المبادرة الواقعية التي نودّ مواصلتها، حتى ولو ان ذلك يعني تخلّياً أو قراراً يتطلب تغييراً.

والآن لننكبّ على "كتاب الوحي". سنتوقف عند مقطع مستمدٍّ من الخطاب الذي ألقاه يسوع بعد العشاء الأخير، ويكاد يكون فيه المتكلم الوحيد. والموضوع المركزي هو موضوع عودته إلى الآب، عودة هي في الوقت نفسه مؤلمة ومجيدة. انه يكشف لتلاميذه عن معنى موته بصفته ينبوع حياة جديدة للجميع، وبدء نوع جديد من الحضور.

في هذا القسم تختفي الجدالات والنقاشات والتوبيخات القاسية التي نقلها لنا "كتاب الآيات". ويبدو الأفق أكثر صفاءً وهدوءاً، مكتسياً بنور لطيف، هو نور المكاشفات التي يقوم بها يسوع لأخصّائه.

يسوع يؤسّس جماعة تلاميذه

أعرض عليكم نصاً طويلاً بعض الشيء (الفصل ١٣: ١-٣٢). وفيه سأتبع أفكار ليون-دوفور الذي يقدّم أسباباً وجيهة عن الوحدة في هذا القسم الأول من الخطاب (هناك مفسرون يفضّلون أن يقسموه بنوع آخر). انه يعتبر المبادرة الرمزية لغسل الأرجل التي وُصفت وفُسّرت في الآيات ١-١٧، والإعلان عن الخيانة (الآيات ١٨-٣٠)، وأخيراً الخاتمة (الآيات ٣١-٣٢) نوعاً من المقدمة النثرية لما نسميه "كتاب الوحي" و"كتاب المجد".

نحن هنا أمام صفحة مكثّفة جداً، وغنية بالرموز والألغاز التي لن نتوصل أبداً

إلى حلّها تماماً. ولقد دُهشت بالعنوان الذي أعطاه ليون-دوفور لهذا المقطع: **يسوع يؤسس جماعة تلاميذه**؛ انه عنوان جديد! فهو يرى أن يسوع، بغسله أقدام تلاميذه، أعطى أخصاءه علامة تكون القاعدة الأساسية للحياة الجماعية. ويبدو لي أن هذا حدس رائع: جماعة تتكوّن حول الرب بفضل المبدأ الذي يوحّد **الخدمة المتبادلة**، وهكذا تولد الكنيسة بشريعة هي شريعة المحبة.

وسنرى أن هذه المبادرة الرمزية يمكن أن تُشرَح بأنواع عديدة. ويعتبرها المفسرون، بشكل عام، مثالاً للتواضع. ويتوسع بعضهم في معناها ويربطونها بالافخارستيا: ذلك ان يسوع، بغسله الأقدام، يظهر بنوع واقعي إلى أين تقودنا الافخارستيا.

ويرى مفسرون آخرون حدث الآلام والموت في حركة يسوع وهو يترع رداءه (الآية ٤). وهناك آخرون أيضاً، يرون فيها تذكيراً بتجسد ذاك الذي جعل نفسه عبد يهوه.

لنحاول أن ندخل في ألفة مع هذه الصفحة، بفضل "القراءة" التي ستوضح لنا بنيَتها الكلمات/المفاتيح والرموز. وسيدعونا "التأمل" إلى ان نتساءَل عن القيم الثابتة في النص، ليقودنا من ثم إلى ساعة "الصلاة الصامتة".

١. قراءة يوحنا ١٣: ١-٣٢

سنحدّد خمسة أزمنة واضحة، ثم سندرسها لكي نستخلص منها خاتمة. قبل كل شيء، تأتي **المقدمة الاحتفالية** للآية الأولى: وفيها يوضّح الزمان والظروف والمناسبة لكل ما سيُروى. انها بمثابة افتتاحية للقسم الثاني من الإنجيل الرابع. وثمة تكرار في الآية الثانية يُدخلنا إلى العشاء الأخير، ومن ثمة إلى غسل الأرجل وإلى خطابات ما بعد العشاء الأخير (والآيتان من حيث المبنى، في النص اليوناني، تعكسان فترة واحدة). وبالمقابل، فان الآية ٣ تستأنف المقدمة.

ثم تأتي الآيتان الرابعة والخامسة اللتان تصفان الحركة التي قام بها يسوع.

أما الزمان الثالث (الآيات ٦-١١) فيركز على **اعتراض بطرس** الذي لا يقبل ما يفعله المعلم؛ فهو لا يفهم ان قبوله تغسيل رجليه هو أمر أساسي وليس موضوع اختيار. وذلك ان يسوع نفسه، في الآيات ١٢-١٧، يفسّر حركته، ويعطي **معناها**، ويوضّح ما سيعني ذلك لكنيسته.

في الآيات ١٨-٣٠ يدور الحديث عن **الخائن**. هناك إشارة أولى، في الآيات ١٨-٢٠، إلى الذي يخون، وإلى الذي يستقبل. ثم يتبعها، في الآيات ٢١-٣٠، كشف صريح عن ذاك الذي سيُسلمه. ولدينا ههنا نقيض مطلق للمشهد السابق: فالكذب والخيانة هما نقيضا المحبة والخدمة. وليس من قبيل المصادفة أن يوضح الإنجيلي أن الوقت كان ليلاً (الآية ٣٠).

أخيراً تحمل الآيتان ٣١-٣٢ **الخاتمة** وتوحي **بالعبور**: فيسوع الذي تعرّض للخيانة، يُمجَّد في الواقع؛ وهكذا تبدأ ملامح مجده بالظهور عبر المعاملة المهينة التي كانت تنتظره.

والآن لنحلّل مختلف المراحل والخاتمة.

أزمنة النص الخمسة

١. ان المقدمة الاحتفالية توضح **زمان** الحدث؛ انه من جديد ذو صلة بالفصح: "قبل عيد الفصح، كان يسوع يعلم بأن قد أتت ساعة انتقاله عن هذا العالم إلى أبيه. وكان قد أحبَّ خاصته الذين في العالم، فبلغ به الحب لهم إلى أقصى حدوده" (الآية ١). لنلاحظ أن يوحنا لا يقول "خلال العيد"، مثل الازائيين حينما رووا عشاء الرب الأخير، الذي هو عشاء الفصح. أما هنا، فالعشاء يقع قبل الفصح، ولكنه موجَّه نحو الفصح الذي هو، حسب الإنجيل الرابع، يوم الصلب نفسه.

تذكّر الظروف المهيبة بالمقدمة الشعرية: "كان يسوع يعلم بأن قد أتت الساعة (...) بلغ به الحب لهم إلى أقصى حدوده". وكل ما سيُروى، حتى الآلام والموت والقيامة، يحياه يسوع بوعي تام؛ فهو يعلم ما ينتظره، ويعرف الطريق الذي

عليه أن يتبعه، وانها "الساعة" التي تكلم عنها في قانا، حين وجّه كلامه إلى مريم. انها ساعة العبور إلى الآب. لذا فهو يعبّر عن أعمق شعور يسكن في قلبه، أي عن حبه لنا، حتى النهاية. وهذا سيعود مع الكلمة الأخيرة التي نطق بها قبل أن يموت: "لقد تمّ كل شيء". ولم يكن في وسع المحبة أن تظهر بنوع أكبر!

حقاً، ان هذه الآية الأولى هي مدخل من أكثر المداخل احتفالية لما سيتبع. فعلى دفعتين يجري إلحاح على المحبة ("أحب خاصته...، فبلغ به الحب لهم إلى أقصى حدوده!"). وقد رأينا أن "كتاب الآيات" شددّ على فعل "الإيمان"، وعلى شروطه، ومراحله، ونموّه. اما الآن، فالتشديد هو على فعل "الحب".

وتوضّح الآية ظروفاً أخرى: "خلال عشاء"، بينما كانوا يأكلون. وعلى النقيض من العادات الجارية، يبدو أن غسل الأرجل جرى، ليس قبل الطعام، بل خلال الطعام؛ وقد يكون ذلك كي يندرج، بصورة فضلى، في شركة الحياة التي يُرمَز إليها بهذا الوقت من الألفة. وكأن يسوع يقول: ان تناول الطعام معاً يعني شركتنا العميقة... وتلك وصية؛ فاغسلوا، إذن، أرجل بعضكم بعض، وكونوا خداماً بعضكم لبعض. ولقد سبق التوضيح عن ما يجري:" ... ألقى ابليس في قلب يهوذا بن سمعان الاسخريوطي أن يسلمه". وهكذا، فان المحبة إلى أقصى الحدود، وأصل يسوع الآتي من عند الآب، وكيانه المتسم بسيادة الموقف، وحريته في بذل الذات، وحتى الخيانة: هذه الأمور كلها نجدها مكثّفة، بصورة خارقة، في المقدمة.

حقيقتان متناقضتان ومتعارضتان، النور والظلمات، وقد وُضعتا مباشرة، الواحدة ازاء الأخرى، في شخص يسوع وفي شخص يهوذا.

وتعود الآية الثالثة لتؤكد وتشدد على وعي يسوع: "وكان يسوع يعلم ان الآب جعلَ في يديه كل شيء، وانه خرج من الله، وإلى الله يمضي". ولأنه يمسك بيده كل شيء، فالمبادرة التي سيقوم بها ليست مجرد امثولة على الهامش، بل هي الكشف عن طريقة الله الخاصة في ممارسة سيادته.

وبقدر ما نقرأ ونعيد قراءة هذه الآيات الثلاث الأولى، بقدر ذلك نبلغ إلى الفهم بأننا أمام سر لا يوصَف: سر الثالوث الذي يكشف ذاته للعالم.

٢. توصف **الحركة** وصفاً احتفالياً، مع سبعة أفعال (الآيتان ٣ و٥). وكأني بهذا المشهد يُصوَّر تصويراً بطيئاً: يسوع يقوم، ويترع رداءه، ويتناول مئزراً ويشدّه حول خاصرتيه، ويصب ماء في حوض (مطهرة)؛ ويبدأ بغسل الأرجل وتنشيفها. وان العناية القصوى في كتابة هذا النص تشير إلى أن لكل حركة قيمة رمزية؛ فكل شيء يجري وكأنه ليتورجيا، ولو أن مختلف الأعمال الرمزية لا نجدها حاضرة على الفور في الشرح.

٣. الزمان الثالث (الآيات ٦-١١) يَدَعُنا نسمع **اعتراض بطرس**. وهكذا فان أهمية المبادرة تكتسب بروزاً أكبر: إما بفضل الإرادة الصالحة لدى المعترض (يرفض بدافع التواضع)، وإما بفضل جواب يسوع القاسي، حين أعلن انه من الضروري أن يدعه يغسل رجليه. فنحن، إذن، بصدد مبادرة خلاصية قبل كل شيء.

لنلاحظ تدخّلات بطرس الثلاثة وأجوبة الرب الثلاثة.

❁ يعبّر بطرس عن انذهاله: "أأنت، يا رب، تغسل قدميَّ؟" وهذا يذكّرنا بيوحنا المعمذان الذي، بحسب الازائيين، يسأل متعجباً: "أنا أحتاج إلى الاعتماذ عن يدك، أوَأنتَ تأتي إليَّ؟" (متى ٣: ١٤).

ويجيب يسوع: "ما أنا فاعل، أنت لا تعرفه الآن، ولكنك ستُدركه بعد حين". (الآية ٧). انه تأكيد قاطع، ولكنه لا يوضح سوى سلطة الرب وإرادته. ولا يُوضَّح إذا كان بطرس قد فهم. من المحتمل ان عبارة "بعد حين" تحيل إلى الشرح الذي سيُعطى بالموت والقيامة معاً: فلدى مشاهدة (تأمل) المصلوب والمنبعث، سيدرك الرسل حقاً معنى هذه المبادرة.

❁ بعد ذلك، يتحول بطرس من الانذهال إلى الرفض: "لن تغسل قدميَ أبداً!".

وكان جواب يسوع أكثر ثباتاً: "إذا لم أغسلك، فلا نصيب لك معي". ولماذا يبقى الرب على مثل هذه الصلابة، في حين أن الأمر يتوقف على مبادرة بسيطة؟: ذلك لأن هذه المبادرة تعني، بدون شك، أن يسوع يبذل حياته —انه يترك

رداءه، كما سيترك جسده- وإذا لا نقبل بأن يبذل ابنُ الله، الكلمة الأزلي المتجسد، حياته لأجلنا، فإننا لن نخلص.

فحين يرفض بطرس أن تُغسَل قدماه، فهو بذلك يرفض أن يدع الرب يُحبه، ويرفض أن يموت المعلم لأجله ويكون مخلّصاً له. انه بالعكس يفكر أن يموت هو عوضاً عنه، ويخلّص يسوع!

❁ في جوابه الثالث، يمضي بطرس إلى الأقصى المضاد: "يا رب، لا قدميَّ فقط، بل يديَّ ورأسي أيضاً". ويردّ عليه يسوع بجواب فيه شيء من اللغز: "من استحمَّ لا يحتاج إلى غسل، فهو طاهر". وقد ورد في ترجمات أخرى: "لا يحتاج إلا إلى غسل قدميه". ويظن المفسرون انها ليست الترجمة الأصيلة، بل هي اضافة متأخرة. مهما يكن من أمر، فان المبادرة ضرورية، حتى إذا كان التلاميذ أطهاراً. ولكن "لا كلهم!" (الآية ١٠ب). وهذه إشارة أولى إلى الخائن.

وتتيح لنا آيات الحدث أن نتكهن بمدى عمق معنى مبادرة غسل الأقدام، حتى وان اقتضى بعض الوقت لفهمها والتحقق من أنها أمر محتَّم لا عودة فيه. فلا يكفي أن يكونوا أطهاراً بفضل سماعهم الكلمة (راجع يوحنا ١٥: ٣)، بل يجب أيضاً أن يدعوا المجال كي يصبحوا موضوع حب حتى العمق لينعموا بالخلاص.

٤. في القسم الرابع من الفصل (الآيات ١٢ إلى ١٧)، يسوع **يُفهمهم** معنى عمله. ويفعل ذلك بهدوء، وببطء؛ ويعيد الإنجيلي عكسياً كلاً من هذه المبادرات: فبعد أن غسل يسوع الأقدام، يستعيد رداءه ويجلس ثانية إلى المائدة. ثم يقول: "أتفهمون ما صنعتُ إليكم؟ أنتم تدعونني المعلّم والرَّب، وأصبتم في ما تقولون، فهكذا أنا. فإذا كنت أنا الرب والمعلّم قد غسلتُ أقدامكم، فيجب عليكم أنتم أيضاً أن يغسل بعضكم أقدام بعض. فقد جعلتُ لكم من نفسي قدوةً لتصنعوا أنتم أيضاً ما صنعتُ إليكم. الحقَّ الحقَّ أقولُ لكم: ما كان الخادمُ أعظم من سيِّده ولا كان الرَّسولُ أعظم من مُرسِله. أمَّا وقد علمتُم هذا فطوبى لكم إذا عملتُم به". الآيات ١٢-١٧).

لنضع أنفسنا في مدرسته، ونتعلم منه أن نفعل مثلما فعل: هل نَشعر بأننا خدام ومرسَلون؟ إذن، لنقتَد بمثاله. فان الخدمة الأخوية المتواضعة التي نحن مدعوون للقيام بها بعضنا لبعض، تشكّل أساس الشركة مع يسوع وفي ما بيننا. "عليكم أنتم أيضاً أن يغسل بعضُكم أقدام بعض": لقد سردتُ أحياناً هذه الكلمات حينما وجدت نفسي أمام حالات خلاف وعدم تفاهم داخل جماعة مسيحية، أو حتى بين الكهنة. انه نداء إلى عدم الاتّهام المتبادل، إلى عدم كيل التهم لهذا أو ذاك، وانما أن نعيد، ببساطة متواضعة، مبادرة الخدمة هذه. اننا غالباً ما نتعامل مع أشخاص مزعجين ومشاكسين وحتى أشرار؛ ومع ذلك، فان القاعدة الجماعية حدّية جداً، وتطلب منّا أن يغسل بعضنا أقدام بعض.

نحن بأمس الحاجة إلى أن يمنحنا الرب حبّه بكل ملئه. فانه إذا كان من الصعب والمذّل أساساً، أن نكرّر مادياً حركة يسوع، غير انه من الأصعب، بأولى حجة، أن نحياها في المضمار العلائقي، فنغفر ونحب، ونؤوّل بنوع إيجابي كلمات القريب ومواقفه وحركاته. على أي حال، بهذه الطريقة وحدها يمكن أن تنشأ وتنمو جماعة التلاميذ، وبالتالي الجماعة المسيحية.

ان هذا التعليم هو من الأهمية بمكان بحيث يختم يسوع وحيَ غسل الأقدام بتطويبة، قائلاً: "أما وقد علمتم هذا، فطوبى لكم إذا عملتم به" (الآية ١٧). من البديهي أن المعرفة ضرورية، وإلا ليس بوسع القوة الأدبية ولا حتى بوسع النعمة ان تتيح لنا أن نحيا هذا التعليم، بحسب روح. إلا أن الطوبى الحقيقية تتعلق **بالممارسة** التي تقتضي تجاوز الذات في المغفرة المتبادلة، والتي تتيح لنا أن نتذوق الفرح الإنجيلي المتعلق بالتطويبة.

وينتقل بي الفكر إلى كل جماعتنا. أفكر في الجماعات الرهبانية، الرجالية والنسائية، حيث تظهر توترات ومعارضات حالما تُنسى كلمة يسوع. فالجماعات مدعوة هي أيضاً إلى البدء، كل يوم، من جديد، في استلهام الشريعة الأساسية، شريعة الشركة الكنسية. فلا يكفي العيش معاً، بتحمّل حضور الآخر، لأن الطوبى الحقيقية التي يوحي بها بمعنى غسل الأقدام، نجدها في آية على لسان المزمِّر: "ما أطيب وما أحلى أن يقيم الاخوة معاً" (مزمور ١٣٣: ١).

٥. الآيات ١٨ إلى ٣٠ تتعلق بخيانة يهوذا. من المثير للعجب ولا شك أن يتخذ وصف الخيانة هذا الاسهاب، وأن يندرج حدث شنيع مثل هذا في صميم كلمات مفعمة بالمحبة. ولقد حدّد دانتي موقع يهوذا في أعمق مكان من جهنم، في فم الشيطان نفسه. إلا أن يسوع يتكلم عنه بطريقة لائقة جداً؛ ويقدمه يوحنا وكأنه ينتمي إلى مسيرة الرب شطر صليبه المجيد. انه يفعل ذلك ولا شك ليُفهمنا ان بوسعنا، نحن جميعاً، أن نخون صداقة يسوع ومحبته، وأن نسقط في خطيئة يهوذا. انه لمن الخير أن نتذكر هذا الأمر، مع علمنا أن حمل الله يحمل خطايانا. وقد يكون هذا هو السبب الذي من أجله يُطلب منا أن نفكر طويلاً في الخيانة، وقد عُبّر عنها بطريقة تدريجية.

❁ أولاً، بطريقة محتجَبة، في الآيات (١٨-٢٠): "فأنا أعرف الذين اخترتُهم، ولكن لا بدّ أن يتم ما كُتب، أن الآكلَ خبزي رفع عليَّ عقبه". هذا التذكير بالكتاب المقدس الذي يجب أن يتم، يقلّل من المعثرة بعض الشيء: ذلك ان التصميم الإلهي قد استشف الخيانة، فلا يمكن، إذن، أن نفكر في إخفاق يسوع. ولا نعتبر أن ما قاله هباء وكأنه لم يكن. فلا شيء في كنيسة الرب، مهما كان خطيراً ورهيباً، إلا ويتوافق مع تصميم.. إلا ويُغلب بتصميم الله الإيجابي. والآية ١٩ تؤكد لنا ذلك: "منذ الآن أكلمكم بالأمر، قبل حدوثه، حتى إذا حدث تؤمنون بأني أنا هو".

الآيتان ٢١ و٢٢ تنيران هذا الحدث بتوضيح رائع: "واضطربت نفس يسوع"؛ فكما جرى الأمر أمام قبر لعازر، صديقه المتوفى، يجري الآن، ولكن بشكل أكثر حدة، لأن يهوذا مات روحياً: "الحق الحق أقول لكم –فالأمر يتوقف، إذن، على وحي– ان واحداً منكم سيُسلمني". لنتصوّر المشهد: ينظر التلاميذ بعضهم إلى بعض حائرين هلعين: ماذا سيحدث؟ هل يمكن أن تكون كل هذه المسيرة مع المعلم بدون معنى؟ وهوذا يسوع بالعكس يعلن عن الخيانة لكي يمنحهم اليقين بأن لكل شيء معنى: ونجدنا تجاه محبته لنا التي تتألق بشعاع أبهى أمام هذا الواقع، وهو أن واحداً من خاصته سيخونه.

❁ ورغبة منه في التأكيد على هذه المحبة، فقد استخدم فضولية بطرس ذاتها حين طلب من التلميذ الذي كان يسوع يحبه: "سلْه على من يتكلم؟" فمال التلميذ دون تكلّف على صدر يسوع وقال: "يا رب، من هو؟" (...) "هو الذي أناوله اللقمة التي أغمسها" (الآيات ٢٤-٢٦). ذلك ان غمس اللقمة وتقديمها، في الكتاب المقدس، هي علامة العهد والكياسة واللطف والضيافة، وهي من شأن صاحب البيت وحدَه. وهكذا تصبح مبادرة يسوع هذه محاولة للتغلب على الحقد بالمحبة، وعلى الظلمات بالنور.

❁ ان الآية ٢٧ ب، كل مرة نسمعها، تدعنا حيارى، إذ يبدو يسوع وكأنه يريد أن يخفي خيانة يهوذا، موجّهاً إليه الكلام ومحرّضاً اياه: "افعل ما أنت فاعل وعجّلْ"! ويؤوّل التلاميذ هذه الكلمات تأويلاً إيجابياً، إذ خيل إليهم أن يهوذا دُعي للقيام بالمشتريات اللازمة للعيد. وهكذا فان الكلمة المتجسد يريد، بلطفه، أن يتواصل الحديث بهدوء، وان يكمل الخائن مهمته الشنيعة والشيطانية، بدون أن تعثر الجماعة بذلك كثيراً. "فتناول (يهوذا) اللقمة إذاً وخرج من وقته، وكان قد "أظلَمَ الليل" (الآية ٣٠). وهكذا فان الظلمات بدت وكأنها كسبت المعركة: فهي ترفض المحبة والنور.

٦. **والخاتمة** التي جاءَت في الآيتين ٣١ و٣٢ هي، في آن واحد، جميلة جداً وسرية: "الآن مُجّد ابن الإنسان، ومُجّد الله فيه. وإذا كان الله قد مُجّد فيه فسيمجّده الله في ذاته، وبعد قليل يمجّده". ذلك ان يسوع هو على وعي تام بالأمر: فالموت هو المجد، وهو الساعة التي فيها سيتألق مجد الله، مجد الآب ومجد الابن.

وحسناً اقترح ليون دوفور ومفسرون آخرون أن تُعتَبر هاتان الآيتان، بالأولى، خاتمة لكل المقطع، مما أن تكونا بداية لما يتبع. ان مجد الله هو، في الواقع، محبته العزلاء التي تعطي ذاتها حتى للذي يسلّمه، محبّة ستقوده إلى الصليب حيث يجعل وجه الله الحقيقي متألقاً. انها محبة تظهر في صميم أوضاع مأسوية وهدّامة للتاريخ البشري، لأن هذه الخيانة التي كان الكلمة المتجسد ضحيتها، ترمز إلى كل الخيانات والأعمال الوحشية. فكل ما في العالم متّصل بالحقد، (ولا سيما الحقد المجاني الذي

ينصبُّ حتى على الذين يعملون الخير)، نجده موجَزاً في الرواية التي نقلت لنا فعلة يهوذا.

ان هذه الآيات من الفصل الثالث عشر التي حاولنا تحليلها، تقطع أنفاسنا، إذ انها تقودنا إلى مرتفعات لا نكاد نقوى فيها على التنفّس؛ ومع ذلك علينا أن نلج إلى سر يسوع، ابن الله، ونحن على وعي بالآفاق اللامتناهية التي تنفتح لنا.

٢. رسائل يحملها النص إلينا

أريد أن أشدد سريعاً على أربع رسائل يمكننا استخلاصها حينما نعيد قراءة هذا النص.

١. الرسالة الأولى، وقد جاءَ التعبير عنها بوضوح في المقدمة: **يسوع يسير نحو موته بصورة واعية وملوكية**. فموته ليس حدثاً طارئاً، وهو لا يشكل مفاجأة له؛ وانما بالعكس، يكشف عن هويته العميقة، لأنه يعود إلى تصميم محبة الله.

لذلك، فان الأفعال السبعة التي تصف مبادرته (الآيات ٤ و٥) لا تقول لنا كيف يتهيأ لغسل الأرجل فحسب، بل أيضاً كيف يتهيأ لإعطاء حياته، بمحبة. وسبق لي أن أشرت إلى ذلك بصدد الفصل العاشر: "الراعي الصالح يتخلى عن حياته لأجل خرافه" —ويكرر ذلك ثلاث مرات: "... فلي أن أبذلها ولي أن أنالها ثانية" (يوحنا ١٠: ١١ و١٨ب).

فيسوع، خلال آلامه، يبدو سيد الوقف؛ وهو، بنعمة الروح، يجعلنا مشاركين في هذه السيادة، لكي نصبح قادرين على قهر الشر الذي يبدو وكأنه يكتنفنا ويسحقنا.

٢. الرسالة الثانية: بروح المطابقة مع مثاله، تضحي حياتنا اليومية، ولا سيما حياتنا الجماعية، **خدمة المحبة والغفران**. نحن موضوع محبة الرب، ويجب ان

يصبح اخوتنا موضوع محبتنا؛ ولما كنا قد نلنا غفرانه، فلكي نغفر نحن أيضاً. وهذا هو أيضاً معنى الافخارستيا: انها تغذّينا من محبة الله، وتدفعنا إلى خدمة المحبة والغفران.

في إنجيل يوحنا، الفصل ١٣ لا يرد ذكر صريح للذبيحة الافخارستية، ولكن التشديد هو باتجاه المعنى الأخلاقي.

٣. وهذه رسالة أخرى أكثر سمواً نكاد نخشى أن نفصح عنها. فيسوع، بمبادرته، **يشركنا بقدر من طبيعة الله نفسها**، لأنه بهاء مجد الآب. فلم يكتفِ الله أنه تنازل وتجسّد بحبّ فها هو يخدم بتواضع، بل جعل قدرته الكلية واللامتناهية تتجلى بأفضل نوع: فهي تصبح مجداً، وتألقاً خارقاً، حينما تتنازل لتخدم وتبذل الحياة.

لقد أمضينا قروناً عديدة، وتغلبنا على الكثير من الصعوبات لكي نفهم صورة اله هو في خدمة الإنسان. انه لمن الأسهل أن نفكر في **اله القوات** الذي يخرج من الحروب منتصراً؛ وهو الذي استغثنا به خلال نضالاتنا -ومن المحتمل ان تفاديها لم يكن ممكناً- ضد الاسلام، ضد الأتراك، لكي ننجو من الاستعباد. ومع ذلك، فان الإنجيل، في ذروته، يعلّمنا أن الله يكشف عن ذاته بطريقة متميزة، في محبة متواضعة لا حدَّ لها... محبة تتحمل الألم، وتبلغُ حتى الموت.

من الصعب أن نفهم ماذا يعني هذا الأمر لبعض الثقافات وبعض المجتمعات. وعلى أي حال، يجب ان يمكّننا هذا النداء من أن نؤوّل ملابسات مجتمع ما وثقافة ما.

فهذا النص من الفصل ١٣ يوضح، إذن، مقدمة الإنجيل: الكلمة تجسّد ورأينا مجدَه، بصفته انعكاس مجد الله. وان الكشف عن وجه الله الحقيقي يُدخلنا في سر الثالوث، وهو سر العطاء المتبادل، والذي يمكن ترجمته بتعابير: الخدمة السخية والرقيقة والتريهة التي نؤديها لجميع اخوتنا.

٤. وتقول لنا الرسالة الأخيرة: **ان يسوع يبادر إلى الخائن باعطائه لقمة خبز** (علامة للصداقة والمشاركة). **انه يجابه الخيانة بتجرّد ومحبة سامية**؛ وهو يُمجَّد إذ يحمل خطيئة العالم (وكان عمل يهوذا الشنيع رمزاً لها).

لا تستطيع خطيئة العالم أن تمنع مبادرة المعلم، أو أن تجعلها غير فعّالة وباطلة، بل بالعكس تجعلها نيّرة بالتمام: فان ذاك الذي يحبنا بدون قياس، بينما نحن ننكره، هو الحمل المنتصر الذي تحدث عنه سفر الرؤيا.

٣. نحو المشاهدة

أقترح أخيراً بعض سبل للصلاة، لوقت الصلاة الصامتة، صلاة المشاهدة.

❁ يمكننا أن نحيا من جديد هذا النص الذي يروي لنا غسل الأقدام، **بتمثّلنا ببطرس** بنوع خاص، طالبين من يسوع: "يا رب، أأنت تغسل لي قدميَّ؟ وفي هذا الصدد، أودّ أن أسرد جملة رائعة من الوصية الروحية التي تركها لنا جيوفاني مويولي: أنا على وشك الالتقاء بديّاني، وأشعر بشيء من الخوف. إلا ان ثمة شيئاً يُطمئنني ويشجعني: ان الذي سيدينني هو ذاك نفسه الذي غسل قدميَّ. ومويولي، بقوله هذا، في ساعة موته الوشيك، يُفهمنا إلى أي مدى كان قد استوعب معنى مبادرة يسوع.

❁ وهذه طريقة أخرى للدخول إلى المشاهدة: ان نتساءَل عن ولائنا لكلام يسوع: "إذا كنتُ أنا الرب والمعلم قد غسلت أقدامكم، فيجب عليكم أنتم أيضاً أن يغسل بعضكم أقدام بعض" (الآية ١٤).

فلمن أؤدي أنا الآن أو يمكنني أن أؤدي خدمة المحبة هذه، وخدمة الغفران، والاستقبال التريه؟ قد يكلفنا كثيراً هذا السؤال، إلا ان يسوع يدعونا إلى ان نعيشه في الشركة معه.

لنحاول أيضاً أن نذكر، أمام الرب، الحالات التي اختبرنا سرَّ فرح الله حين غفرنا فيها.

❁ ومن الرائع أن نصلي انطلاقاً من الآيات الأولى من نصنا، لكي **ندخل إلى وجدان يسوع**: يا رب، أنت تعلم أن ساعتك قد أتت، وان كل شيء بين يديك!

وانطلاقاً من وجدان يسوع هذا، يمكننا أن نتأمل كيف يراني هو، وكيف يرى العالم، وكيف يرى يهوذا وجماعتي، وكيف يجابه موته بصفته اعتلاناً للمجد.

❁ السبيل الرابع هو أن يضع المرء نفسه **عند قدمي يسوع**، وهو يعلم انه إنسان بوسعه أن يخون. فان ضعفنا كبير بحيث يستطيع أن يؤدي بنا إلى إنكار الرب، مثل بطرس، وإلى خيانته مثل يهوذا، وإلى التخلي عنه مثل الرسل. ومن هنا تنشأ مناجاة متواضعة وواثقة: يا رب، كبير هو ضعفي، وأنا أقرّ بذلك. ولكني متأكد من محبتك، وأسمع انك تكرّر، من أجلي، ومن أجل كل منّا، الكلمات التي وجهتَها إلى بطرس: "اني دعوتُ لك ألا تفقد إيمانَك!" (لوقا ٢٢: ٣٢).

" فخرج حاملاً صليبه الى المكان الذي يُقال له الجمجمة "

المسيح يُتمُّ عمله

(يوحنا ١٩: ١٧-٣٧)

بعد أن تأملنا في حدث يسوع وهو يؤسس جماعة تلاميذه، لنفحص نصاً من الكتاب المسمى "كتاب المجد" الذي يضم الفصول من ١٨ إلى ٢١. ويجب أن نقرأها بكاملها، ونتأمل فيها بصورة هادئة، لكي تمسّ قلبنا؛ كما علينا أن نتأمل كيف يقود الرب كل شيء إلى ملء اكتماله. وحينما نحيا، بنعمة الروح، الأحداث التي تُروى، سنخطو خطوة نحو نضج الإيمان والمحبة والرجاء. لنُعد، إذن، قراءة الآلام بصفتها اكتمال حياة يسوع الأرضية، وبمثابة مرآة تمكّننا من أن نكتشف الحياة المسيحية في ملئها.

للقراءة الربية، اخترتُ المشاهد الخمسة الأخيرة التي تختم رواية الآلام وتفسّر الصلب (١٩: ١٧-٣٧).

هناك أمر يؤثر فينا ويذهلنا: لا يُقدَّم الحدث إلا بكلمة واحدة —"صلبوه مع اثنين آخرين" (الآية ١٨)-؛ ولا نجد اية إشارة تتعلق بالمشاعر، وبالانفعالات، بالتحدّي أو الشفقة. نحن بازاء مجرد فعل واحد لوصف الحدث! ذلك لأن الإنجيلي، في الحقيقة، يريد أن يساعدنا للدخول إلى المعنى، بفضل سلسلة من المعطيات المتتابعة.

❁ المعطى الأول يتعلق خاصة بالكتابة التي وُضعت فوق الصليب: نقطة الوصول في الحدث (الآية ١٧ و١٨).

❁ المعطى الثاني هو اقتسام ثياب يسوع (الآيتان ٢٣-٢٤).

❁ المعطى الثالث هو مشهد الأم والتلميذ (الآيات ٢٥-٢٧).

❁ المعطى الرابع يروي العطش وانتهاء كل شيء (الآيات ٢٨-٣٠).

❁ المعطى الخامس والاخير، وهو الأطول والأكثر لغزية، يروي لنا طعنة الرمح (الآيات ٣١-٣٧).

ونجد بعضاً من هذه المشاهد أيضاً عند الإزائيين (مثلاً الكتابة على الصليب واقتسام الثياب)، ولكنهم لا يتوقفون عندها كثيراً. وبالعكس، يأتي كل مشهد، في الإنجيل الرابع، موصوفاً بعناية، واحداً فواحداً، ويُعطى لكل منها معنى دقيقاً: اكتمال، ملء حياة يسوع، الوحي الكامل للآب، مجد الابن الذي يُظهر مجدَ الآب.

يريد يوحنا أن يعلمنا كيف يرفع حملُ الله خطيئة العالم، ويقود العمل الذي وَكَلَه الآب إليه حتى نهايته.

لنقرأ، إذن، المشاهد حسب توصية الإنجيلي الخاصة. لنفتح قلوبنا للروح القدس كي يحرّك فينا أجوبة شخصية على حدث الصلب.

١. الكتابة فوق الصليب

"فأمسكوا يسوع. فخرج حاملاً صليبه إلى المكان الذي يُقال له مكان الجُمجُمة، ويُقال له بالعبرية جُلْجُثَة. فصلبوه فيه، وصلبوا معه آخرين، كل منهما في جهة، وبينهما يسوع". (الآيتان ١٩: ١٧-١٨).

سبق لي أن قلت بأن هذا العمل الشنيع عُبّر عنه بمجرد فعل واحد؛ وأُضيف توضيح بأن يسوع هو بين الاثنين الآخرين. وهذا غني بالمعنى: المكان المركزي هو مكان الشرف. ولكني أفضّل التوقف عند الكتابة، وقد وُصفت بتعابير أفخم من

وصف الصلب نفسه. "وكتب بيلاطس رقعة وجعلها على الصليب، وكان مكتوباً فيها: "يسوع الناصري ملك اليهود" (الآية ١٩).

قد يبدو ذلك أمراً ثانوياً، لا أهمية له -فالمعضلة الحقيقية هي أن يموت إنسان ظلماً على الصليب-، ومع ذلك فان له، في نظرة يوحنا، معنى خاصاً. فبيلاطس هو السلطة العليا في ذلك الزمان، على الصعيدين المدني والعسكري، وكان بوسعه أن يجري ما يعتبره عدلاً، حسب حكمه الشرعي الذي يتمتع بتخويل.

وهناك توضيح مهم: لقد جاءَت الكتابة باللغات العبرية واللاتينية واليونانية. فالعبرية هي الآرامية، لغة الكتاب المقدس؛ واللاتينية هي لغة السلطة الرومانية المحتلّة؛ أما اليونانية، فهي لغة المخاطبات الثقافية والتجارية. فماذا تعني هذه الكتابة؟

تقول هذه الكتابة أن يسوع الناصري، ملك اليهود، هو ملك البشرية برمّتها؛ وعلى الجميع أن يعرفوا ذلك. انه تصريح على مسامع العالم، بصفته عاماً واحتفالياً: "وهذه الرقعة قرأها كثير من اليهود، لأن المكان الذي صُلب فيه يسوع كان قريباً من المدينة" (الآية ٢٠).

إلا أن رؤساء الكهنة استاءُوا: فهم يرون في هذا النص اهانة للشعب الذي يعتبر نفسه مهاناً في شخص يسوع (انه ملكهم، وينتهي به الأمر على الصليب!). لكن بيلاطس الذي كان قد بدا على جانب كبير من الخوف والتأرجح والتردّد، هوذا يجيب، بعزم، أولئك الذين يحتجون: "ما كُتب قد كُتبَ!" (الآية ٢٢).

ويرى يوحنا، في العنوان الممنوح ليسوع، كلاماً نبوياً حقيقياً، وإعلاناً ملوكياً.

وكان بيلاطس، منذ الآية ٥، قد أعلن نوعاً من النبوءة، حينما قدَّم يسوع للجمهور: "هوذا الرجل!" الرجل الأصيل، لا بل البشرية في اكتمالها.

ويمكننا، في هذه الكتابة، أن نقرأ جوابَ الإيمان على السؤال الذي طرحه بيلاطس: "أأنت ملك اليهود؟" (١٨: ٣٣).

أظن أن الحقيقة العميقة التي تنطوي على هذا المشهد هي بالضبط الملوكية المشيحانية للكلمة المتجسد.

انه ملك، ذاك الذي كان نثنائيل قد أعلن في شأنه: "رابي، أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل" (١: ٤٩). فيسوع هو المسيح الذي كان إسرائيل ينتظره؛ وعلى الصليب، أظهر سيادته، حسب تفسير القديس يوستينس، وقد تبنّته الليتورجيا: الرب يملك بالصليب، واعترفت السلطة العليا المعاصرة بهذه السيادة.

وهكذا تبدو رسالة يوحنا مفارَقة. فحينما أقرأ روايات الآلام وأتأمل في هذه الآيات، أفكر دوماً في العذراء مريم التي سمعت الملاك يقول لها: "سيكون عظيماً وابن العلي يُدعى، ويوليه الرب الإله عرش أبيه داود، ويملك على بيت يعقوب أبد الدهور، ولن يكون لملكه نهاية" (لوقا ١: ٣١-٤٢). يا له من تعارض خارق بين أقوال الملاك هذه ونهاية حياة الرب! ومع ذلك فهو يملك بالصليب، حيث يكشف عن قدرة محبة الله اللامتناهية التي بوسعها أن تنتزع الحياة من الموت؛ ذلك ان ملكويته هي ملوكية تخلّص!

فالكتابة هي، إذن، كتابة النصر، ونحن مدعوون إلى فهم الصلب -وهو، بشرياً، إخفاق تام- كونه في الحقيقة، الاكتمال الظافر لمصير يسوع.

٢. اقتسام الثياب

يعطي يوحنا أهمية خاصة لمشهد اقتسام الثياب، وهو يرويه بدقة: "وأما الجنود، فبعدما صلبوا يسوع، أخذوا ثيابه، وجعلوها أربع حصص، لكل جندي حصة. وأخذوا القميص أيضاً" (الآية ٢٣). إن ما تنفرد به رواية التلميذ — الشاهد، بالمقارنة مع الازائيين، هو ما يتعلق بالقميص الذي كان "منسوجاً كله من أعلاه إلى أسفله". انه يريد التأكيد على مرحلتي الاقتسام، مفسّراً الآية ١٩ من المزمور ٢٢ حيث جاءَ: "يقتسمون ثيابي بينهم، وعلى لباسي يقترعون". كان من الممكن أن تُفهم هذه الآية، في حد ذاتها، -لا سيما في اللغة الأصلية- وكأنها تصف عملاً واحداً. ولكن الإنجيلي، وبتوضيح دقيق جداً، مستنداً ولا شك إلى تقليد تاريخي، ميّز

بين اقتسام الثياب، وبين الاقتراع على القميص، ومضيفاً شرحاً: لما كان القميص غير مخيط، فلم يكن من المعقول تمزيقه.

لهذه القصة المفصَّلة إلى هذا الحد، قيمة رمزية ولا شك؛ لكن يوحنا يترك لنا الفرصة لاكتشافها.

هناك معنى أول، وهو أن يسوع أعطانا حقاً كل شيء، ولم يحتفظ بشيء لنفسه، بل ضحَّى حتى بثيابه التي، نوعاً ما، تكرّم الجسد، إذ تستر عريَه. فلقد ارتضى بأن يظهر علناً وكأنه رجل لا قيمة له، يمكن للجميع أن يسحقوه.

ان آباء الكنيسة والمفسرين يظنون ان لهذا الإلحاح على القميص بدون خياطة معنى أعمق، ولكن تصعب رؤيته بنوع مقنع للجميع. ومن جهة أخرى، فان ما تمتاز به الآيات في الإنجيل الرابع هي انها ذات قيم متعددة؛ فهي تجعلنا نفكر في أحداث تاريخية كثيرة ممكنة، ولكننا لا نستطيع اثباتها. وهكذا يرمز القميص غير الممزق، في نظر البعض، إلى جسد يسوع الذي يبقى سالماً وينهض؛ فتكون تلك علامة تُخبر بالقيامة. وهناك مفسرون آخرون، منذ القرن الثالث، بدءاً بالقديس قبريانس، يرون في القميص صورة الكنيسة غير المنقسمة التي لا ينبغي للناس أن يشقّوها.

وبحسب هذا التأويل، نفهم اهتمام الكنيسة والبابا، مع تلك الرغبة في ان يُتيحوا للمسيرة المسكونية ان تحثّ الخطى، لكي يُستعاد ملء الشركة بين المذاهب المسيحية. وفي القميص، يمكننا أن نرى أيضاً تعلّقنا الحاسم بالمجمع الفاتيكاني الثاني الذي يحث على الوحدة في احترام الاختلافات، مع ثقتنا الكاملة برسالة "ليكونوا واحداً" للبابا يوحنا بولس الثاني الذي دفع العمل المسكوني من جديد، معتبراً ان لا رجعة فيه. ويمكننا أن نوسع بالأكثر معنى القميص غير الممزَّق، فنرى فيه دعوة إلى تجاوز العديد من التمزّقات التي تلحق أذى بحياتنا السيكولوجية، سواء بسبب الاخفاقات أو بسبب الإفراط في العمل والهموم. فالقميص الذي كان قطعة واحدة -وقد اقترع عليه الجنود كي يتركوه سليماً- يمكن أيضاً أن يرمز إلى النضج الإنساني والمسيحي الذي يحقق اقتراناً بين الوحدة والاستقامة. فعلينا جميعاً أن نناضل كل يوم

لئلا نُمزَّق بآلاف الأحداث التي تهزّ وحدتنا الداخلية، فنستعيدها في الصلاة بحوارات أخوية، في أجواء من الراحة والسكينة.

ان يوحنا يعهد إلى الكنيسة وإلى كل واحد منّا بالتفكير المليّ لنفهم الرموز المذكورة في روايته الأحداث. والكتاب المقدس، بما فيه اليوم من الحيوية والنشاط، يدفعنا إلى أن نقرأ في الكلمة المكتوبة أحداث الكنيسة واحتياجاتها ودعواتها، وهي في مسيرة حج في قلب التاريخ.

٣. أم يسوع

هذا المشهد الثالث خاص بالإنجيل الرابع: "هناك عند صليب يسوع، وقفت أمه، وأخت أمه مريم امرأة قَلُوبا، ومريم المجدلية. فرأى يسوع أمه وإلى جانبها التلميذ الحبيب إليه. فقال لأمه: أيتها المرأة، هذا ابنك، ثم قال للتلميذ: هذه أمك. ومنذ تلك الساعة استقبلها التلميذ في بيته". (الآيات ٢٥-٢٧).

لا يرد هذا المشهد لدى الازائيين. فهم يكتفون بذكر نساء عديدات كنّ "ينظرن من بعيد"، في حين يضعهن يوحنا "عند صليب يسوع"، بمعية الأم والتلميذ "إلى جانبها". إلا أن يوحنا لا يشرح معنى التفصيل الأخير: "ومنذ تلك الساعة، استقبلها التلميذ في بيته".

عرفَ هذا النص، في تاريخ الكنيسة، فترة غنية بالتفكير. فلا يدور الكلام عن الأم إلا في عرس قانا الجليل، وهذا ما حدا بالمفسرين إلى أن يقرنوا ما بين آية يسوع الأولى وحضور مريم عند الصليب. فإذا كانت الآية في قانا ترمز إلى العهد بين الله والناس، وإذا كانت الأم تمثّل شعب إسرائيل، فهي هنا توضَع في صلة مع ختم العهد، أي بداية الكنيسة الممثّلة بالتلميذ الذي كان يسوع يحبه.

ونستطيع أن نرى أولاً في هذه الرواية معنى واضحاً وتاريخياً: لا يريد يسوع أن تظل أمه وحيدة، بل يحرص أن يعيّن احداً يهتم بها. انها مبادرة حب وحنان رقيق.

ولكننا نعلم أن المفسرين والشرّاح وآباء الكنيسة، منذ البدء، وكذلك جميع الذين صلّوا انطلاقاً من هذا النص، قد سارعوا إلى اكتشاف معانٍ أخرى. وأودّ أن أذكر ثلاثة منها في الأقل:

فالمعنى الأول يتأمل في مريم بصفتها صورة الكنيسة أم جميع المؤمنين الذين يمثّلهم التلميذ الحبيب.

والمعنى الثاني يرتبط بمريم وبفرادتها بصفتها أم جميع المسيحيين.

أما المعنى الثالث، فيرى إسرائيل المؤمن في مريم –كما جرى مسبقاً في البشارة وفي عرس قانا– اسرائيل الذي يدخل إلى سر المسيح. وهكذا فان إسرائيل والتلميذ الذي يحبه يسوع يستقبل أحدهما الآخر تحت سقف واحد. فإسرائيل –ولديه كنز إيمانه– مع الانتظار والانفتاح، يبلغ إلى عالم الوحي، ولا يمكن لتقليده المقدس والتقليد الإنجيلي أن ينفصلا أبداً. ولدينا هنا طريقة رائعة للتأمل في الصلات الوثيقة بين العهدين. واليوم بنوع خاص، بسبب اللاسامية المستيقظة من جديد –التي تودّ لو توصلت إلى إلغاء الشعب العبري– وبسبب الأحداث المؤسفة التي تلحق الأذى بسر إسرائيل، ملوِّثة اياه بدم اخوته، تستطيع مريم أن تمدّنا بمساعدتها المشجِّعة. فلنتعلم أن نسمع النداء إلى الصلاة الذي يوجهه إلينا هذا المشهد، لكي يكتمل السر في ملء الأزمنة، كما يقول القديس بولس.

لا شك ان الحوار بين اليهود والمسيحيين دقيق وصعب في الوقت نفسه؛ إلا أن هناك خطوات صغيرة تتم. فمثلاً في جامعة أورشليم العبرية (وهي مقر توجهات علمية منفتحة، مع ارتباطها بالتقليد الإسرائيلي) افتتح حديثاً منبر للمسيحية! انه حدث ذو أهمية محدودة، ولكنه يندرج في خط المعنى الثالث.

وبدون الذهاب إلى ابعد في دراسة هذه الرمزية، لنتأمل في مريم بصفتها شعب إسرائيل الذي أعطى الحياة ليسوع واتحد بمصير الكنيسة الأولى في شخص يوحنا.

٤ . الاكتمال

يضعنا الحدث الرابع، بصورة أكثر وضوحاً، أمام الاكتمال الذي تأملنا فيه منذ البداية. وكان الفعل قد لجأ إلى صيغ عديدة: "وبعد ذلك، كان يسوع يعلم أن كل شيء قد **انتهى**، فلكي **يتم** الكتاب، قال: "أنا عطشان" (الآية ٢٨). وهنا أيضاً يأتي التعبير عن ملء الوعي لدى الكلمة المتجسد، ولكن بصورة تقل احتفالية عن الفصل الثالث عشر، في مطلع "كتاب الوحي".

فالابن، إذن، يحيا ساعة موته وهو على وعي تام بأنه يكمل العمل الذي وَكَلَه إليه الآب، ويعود إلى الآب. والإنجيلي يتعمّد في ابراز هذا الواقع: يسوع يُسلم حياته بحرية. فهو يُتم الكتاب حتى في أدق تفاصيله –العطش- لكي يكون تصميم الله مصوناً بالتمام. وفي الواقع تتكلم مزامير عن عطش المريض أو البار: "جعلوا في طعامي علقماً، وفي عطشي خلاً" (مزمور ٦٩: ٢٢). ويوضح الازائيون بان يسوع أعطي في عطشه خلاً بواسطة اسفنجة، تذكيراً بهذا المزمور نفسه.

"وكان هناك إناءٌ مملوء خلا. فوضعوا اسفنجة مبتلّة بالخل على ساق زوفى، وأَدنَوها من فمه. فلما تناول يسوع الخل قال: تمّ كل شيء، ثم حنى رأسه وأسلم الروح". (الآيتان ٢٩-٣٠). وتبدو هذه الكلمة الأخيرة ملوكية: انها تعلن بأن يسوع قد قام بالرسالة التي تلقاها من الآب، بالتمام وبدون تحفظ.

لقد أسلم يسوع الروح إلى الآب وهو يعطي الروح للبشرية؛ ذلك لأن موته هو، منذ الآن، آية وشهادة حياة. ففي هذا الروح عينه نحيا، وبهذا الروح عينه نقرأ الآلام. وقوته تسند ضعفنا في ساعة الصلاة (راجع رومية ٨: ٢٦)، وهي تساعدنا لكي نفهم المعنى العميق من وراء الأحداث التي يرويها الإنجيلي. وهكذا فان وضع إنسان مصلوب يتضور عطشاً يصبح آية اكتمال، إذ يتحول الموت إلى إعلان لهبة الروح.

وهكذا نجدنا بازاء حدث غني جداً ومتماسك، ساعدنا في قراءتنا لنص يوحنا، وقادنا نحو اكتمال مسيرتنا، كمسيحيين وكهنة، باتجاه الدخول إلى سر المسيح.

٥. طعنة الرمح

لا يرد هذا المشهد إلا عند يوحنا، وهو يرويه بدقة مع جميع التفاصيل: "وكان ذلك اليوم يوم التهيئة، فسأل اليهود بيلاطس أن تُكسَر سوق المصلوبين وتُنزَل أجسادهم، لئلاَّ تبقى على الصليب يوم السبت، لأَن ذاك السبت يوم مكرَّم. فجاء الجنود فكسروا ساقي الأول والآخر اللذين صُلبا معَه. أما يسوع فلما وصلوا إليه ورأوه قد مات، لم يكسروا ساقيه، لكن واحداً من الجنود طعنه بحربة في جنبه، فخرج لوقته دمٌ وماء. والذي رأى شهد، وشهادته صحيحة، وذاك يعلم أَنَّه يقول الحقَّ لتُؤمنوا أنتُم أيضاً. فقد كان هذا ليتمَّ الكتاب: لن يُكسَرَ له عَظْم. وورد أيضاً في آيةٍ أخرى من الكتاب: سينظرون إلى مَن طَعَنوا". (الآيات ٣١-٣٧).

ان فتح الجنب توضيح ادلت به هذه الرواية، وهو خاص بشاهد الصلب. والمفهوم نفسه يتردد ثلاث مرات: "والذي رأى شهد، وشهادته صحيحة، وذاك يعلم أنه يقول الحق لتؤمنوا أنتم أيضاً" (الآية ٣٥). ويحرص الإنجيلي على الإشارة إلى أن الحدث يتّشح بأهمية قصوى، وان لم يكن من السهل شرحه، وذلك بالنظر إلى معانيه العميقة.

كل شيء ينطلق من وساوس اليهود: انهم يطلبون إلى بيلاطس أن تُكسر السوق. والجنود ينفّذون الأمر، ولكنهم لا يفعلون ذلك ليسوع، لأنه مات مبكراً. إذ ذاك طعنه واحد منهم بحربة في جنبه، وإذا بدم وماء يجريان منه. إلى هنا، لا يُعطى أي تأويل.

ولا يكاد هذا التأويل ينشأ، وإذا به يُقدَّم لنا بعد الشهادة على صدقية هذا الحدث، وذلك بفضل التذكير بمقطعين من الكتاب المقدس.

المقطع الأول مستلٌّ من سفر الخروج (١٢: ٤٦) حيث جاءَ: "وعظم لا يُكسَر"؛ ومن سفر العدد (٩: ١٢): "وعظماً لا يكسروا منه". هذا الأمر كان يتعلق بالحمل الفصحي، ونفهم ان الحمل الحقيقي والفصح الحقيقي هو يسوع، ذاك الذي يرفع خطيئة العالم، وهو خادم الله الذي قدَّم ذاته ضحية لخلاص جماعة كبيرة. فمن الحدث التاريخي ينشأ تفكير عميق بخصوص قدرة الصليب الفدائية.

والاستشهاد الثاني بالكتاب المقدس –"سينظرون إلى من طعنوا"– ليس سرداً دقيقاً، إذ إننا نقرأ في زكريا (١٢: ١٠): "سينظرون إليَّ بشأن الذي طعنوه". وان لهذا التفصيل في نظري معنى. لقد أسرع يوحنا إلى تسليط الضوء على جوهر هذا الحدث، دون أن يهتم كثيراً بالدقة في سرده؛ إلا أن الرسالة واضحة: فالمصلوب هو في المركز من انتباه العالم أجمع؛ انه قلب التاريخ! والجميع، من الآن، يلفتون انظارهم إليه، كما إلى ينبوع يتفجر منه ماء الحياة.

لنلاحظ شيئاً واحداً: ان الذين طعنوه لم يكونوا يهوداً، بل كانوا وثنيين وهم الرومان. انهم سيرفعون انظارهم إليه، ليس بصفته باراً مضطهداً قُتل ظلماً، بل بصفته ميتاً يعطي الحياة.

إلى هذا التأويل الأول أُضيفت تأويلات أخرى خلال تاريخ الكنيسة: من جنب يسوع وُلدت الكنيسة؛ وتدفقت الأسرار، ولا سيما العماذ والافخارستيا؛ وانبثق الروح والحياة (هناك عدد كبير من المخطوطات القديمة تقلب الترتيب فتضع الماء أولاً، ومن ثم الدم: وذلك لكي تشير بوضوح إلى أن الروح هو الحياة المنبثقة من الموت).

ويترك الإنجيلي الفرصة لقرائه، هذه المرة أيضاً، لكي يتعمقوا، بفضل الصلاة، في معنى الرموز، وهو يفترض أن الحياة الكنسية غنية جداً بالصور، وبالآفاق التي تنفتح، بحيث يصبح بمقدورها أن تعرف ملءَ سر يسوع معرفة جديدة دوماً.

ان هذه الصفحة تدعونا إلى عدم الاكتفاء بالقول: لقد فهمتُ! فنحن مدعوون دوماً إلى "مشاهدة الكلمة" المتجسد، ولا سيما قلبه المطعون، والتأمل في الظهور المجيد لمحبة الله في جرح الجنب هذا. انه خط التفسير الذي نما بصورة

خاصة في نحو منتصف الألف الثاني، انطلاقاً من القديس بوناونتورا، ومن ثم القديسة مرغريتا – مريم الاكوك؛ وهكذا نرى أن الكنيسة تعرف حقاً ان تستخلص من الرموز الكتابية ثروات جديدة.

فالإنجيل الرابع يعهد إلينا برواية آلام يسوع وصلبه وموته بصفتها نصاً يجب التأمل فيه عبر الصلاة؛ إنه نص يجب اكتشاف معناه الأكثر عمقاً، وهو يطلب منا أن نضع ابن الله الوحيد في صميم التاريخ البشري؛ هو الذي يكشف لنا عن مجد الآب في أحلك الساعات وفي أكثر أحداث الأرض ظلاماً، كما في وسط الاحتجاجات. وهكذا يعرض لنا يوحنا رؤية تجعلنا مشاهدين متحدين، ويحمله الشوق إلى ان يعلمنا بان بوسع إيمان بالغٍ أن يميّز –حتى في علامات الإخفاق– نور الكلمة المتجسد "الذي يشعّ في الظلمات".

امنحنا يا رب النعمة لنكتشف حضورك في أنوار حياتنا وظلماتها، في شهادتنا كما في مسيرتنا نحوك. أعطنا الفرح لكي نشاهدك اليوم، وغداً، ودائماً، في بهائك كمصلوب. نسألك هذا بشفاعة مريم أمك وأم الكنيسة، وشفاعة التلميذ الذي احببته.

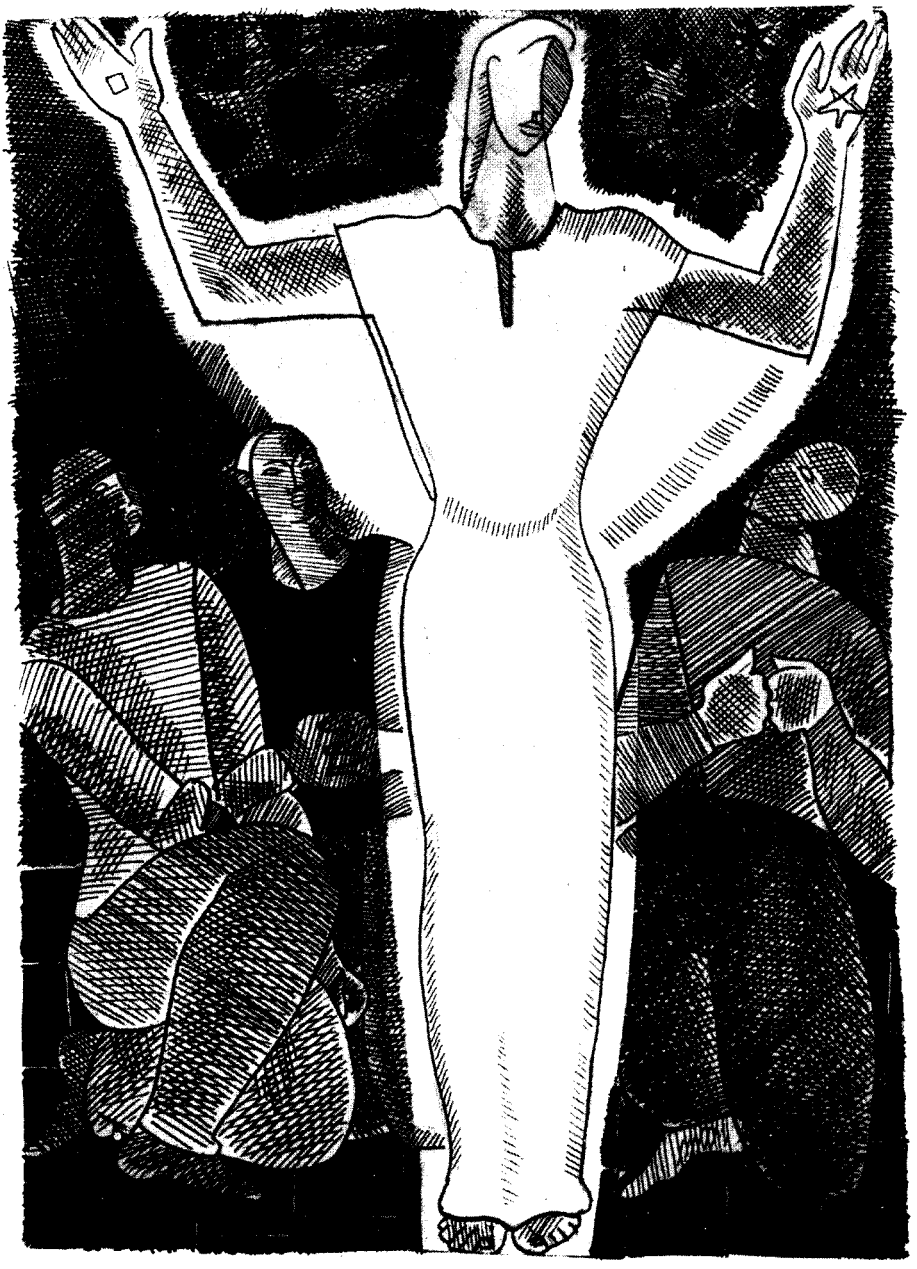

" جاء يسوع – والأبواب مغلقة – ووقف بينهم "

القائم من بين الأموات والإيمان الجاد

في هذا التأمل الأخير، يَتمركز بالطبع عدد كبير من النداءات بمقدار ما نكون قد قرأنا النصوص بانتباه، وفكرنا وأعدنا التفكير فيها وعدنا إليها وتعمقنا فيها. فلنتوجّه إلى الروح القدس الذي رافقنا منذ البدء، وواكب تأملاتنا؛ لنسأله أن يساعدنا كي نوحّد قلبنا، ونحقق توافقاً يسند مسيرتنا في المستقبل. لذا أودّ أن أقترح عليكم، أولاً، نظرة عامة على رواية القيامة؛ وبعدها، سنقوم بـ "القراءة الربية" في يوحنا ٢٠: ١-١٨؛ وسأعرض من ثم نوعاً من الحصيلة لمسيرتنا؛ وأخيراً، بمثابة خاتمة، سأعود إلى موضوع "جدّية الإيمان".

في وسعنا للحال، أن نطرح على أنفسنا سؤالاً: كيف وضع يوحنا تمجيد الابن في حدث الموت، وراح يروي أيضاً ظهورات القائم من الأموات؟ أما أنا شخصياً، فأتبنى جواب ليون-دوفور: كان يسوع، في خطابه الوداعي، قد سبق ولمّح لتلاميذه عن حالتهم الجديدة، بعد عودته إلى الآب؛ والآن، وقد وصل يسوع إلى نهاية مسيرته، فهو يريد أن يبيّن لهم كل ما حققه فصحه لأجلهم. وفي الواقع، تُكلّمنا النصوص عن التلاميذ وهم في مسيرة نحو الإيمان بالرب الذي يأتي إلى لقائهم.

١. روايات القيامة
(يوحنا ٢٠ و٢١)

ان مختلف الأحداث الواردة في الفصلين ٢٠ و٢١ من إنجيل يوحنا، قلّما ترتبط، وهي، إذا بدت متداخلة، فذلك ولا شك لأنها من مصادر مختلفة.

والترتيب الذي اختاره يوحنا لنقلها إلينا، ليس واضحاً لأول وهلة؛ إلا أنه متلهّف إلى أن يبيّن لنا **العبور من إيمان غير كامل، من إيمان ناشئ، إلى إيمان كامل.** فهو يقدم لنا قفزة نوعية: في لقاء يسوع ومريم المجدلية، بالقرب من القبر؛ وفي وجه التلميذ المفضَّل -وتحت ظله نلمح حضور بطرس-؛ وفي الظهور لفريق التلاميذ؛ وكذلك بالنسبة إلينا، حينما نسمع يسوع المنبعث يقول: "طوبى للذين يؤمنون ولم يروا" (يوحنا ٢٠: ٢٩ب).

والفصل ٢١ يعيد الحركة عينها: فهو يلحّ على العبور الذي يذهب من التعرّف على الحي إلى التعرّف على المهمة الرسولية.

ما هو المعنى العام الذي تتشح به هذه المشاهد، بالنسبة لنا، حينما نقرأها ونتأملها ونشاهدها؟ يبدو لي انها تهدف إلى جعل خبرة الكنيسة خبرة آنية. فيوحنا لا يريد فقط أن يروي ما جرى قبل ألفي سنة، بل يرمي أيضاً إلى حثنا على أن نرى يسوع حاضراً وحياً في كنيسة زماننا.

ويعني هذا الأمر، في الواقع، أن مواقف الشك والمقاومة والتعثر في الإيمان، والتي اتصف بها كل من مريم المجدلية وبطرس والتلاميذ وتوما والصيادون السبعة على البحيرة، هي مواقفنا نحن أيضاً. فالأمر يتعلق بصعوبتنا اليومية في الانفتاح لرسالة القائم، المنبعث حياً. لقد كان من الصعب على التلاميذ في البحيرة، أن يفهموا معنى إلقاء الشباك مرة أخرى وان يتعرّفوا إلى الرب.

ولكن هذا يعني أيضاً أنْ قد اجتاحنا أيضاً الفرح، والاندفاع، والإيمان، وانفتاح الآفاق، كما اجتاح مريم المجدلية وبطرس ويوحنا وتوما، ما أنْ عرفوا يسوع. وكذلك عرفنا فرح الاكتشاف، وخبرة الإيمان، واليقين بحضور الرب بيننا. في الحقيقة، ان روايات القيامة هذه تتيح لنا أن نقرأ حياتنا "اليوم".

ومن بين هذه الحالات الداخلية، أفكر، بنوع خاص، في الفرح الذي قدَّمناه بصفته أحد المفاتيح الأربعة للإنجيل الرابع. ذلك ان إنجيل يوحنا كله، يبدو وكأنه كُتب، انطلاقاً من خبرة فرح خارقة: "فرح التلاميذ لمشاهدتهم الرب" (٢٠: ٢٠). أنْ يروا الرب، وأنْ يلتقوه، وأن يعرفوا انه قائم، ذلك هو النور الذي يشعّ في رواية يوحنا، منذ المقدمة: "فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس" (١: ٤). وليس هذا طرحاً نظرياً، لأن الرسل نقلوا إلينا شهادة: هذه الحياة، لقد رأيناها بيننا، حياة هي نور. وهذا يعني أن المسيح المنبعث يغير رؤية العالم، إذ هو ينيرها.

ويكتبُ القديس بولس في رسالته الأولى إلى أهل تسالونيقي: "ولا نريد، أيها الأخوة، أن تجهلوا مصير الأموات، لئلا تحزنوا كسائر الناس الذين لا رجاء لهم. فأما ونحن نؤمن أن يسوع قد مات ثم قام، فكذلك سينقل الله بيسوع ومعه أولئك الذين ماتوا (١ تسالونيقي ٤: ١٣-١٤). فالإنجيل هو إنجيل الذين لهم الرجاء، والذين يؤمنون بيسوع-الحياة، حياة تصبح نوراً وفرحاً ومبعث معنى لكنيسة اليوم، وليس لرسل ذلك الزمان وحدَهم.

ونجد في العديد من صفحات نص يوحنا آثار هذا التعبير: "فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس" (١: ٤). وقد تكررت العبارة ثلاث مرات في قصة شفاء ابن قائد المئة –وقد تأملناه في كتاب الآيات- :"اذهب، ان ابنك حي" (٤: ٥٠- ٥١، ٥٣). فلقد جاءت أولاً على لسان يسوع، ومن ثم على لسان الخدام، وأخيراً كرّرها الأب نفسه "ابنك حي"! ابنك الذي وضعتَ فيه قلبك كله، هو حي؛ ذلك هو نوع من الموجز لمجمل الإنجيل الرابع. ومن المفيد أن نشير إلى استخدامات كلمة "الحياة" الستة والثلاثين، حتى نبلغ إلى الاستخدام الأخير حيث

نجدنا بازاء خاتمة أولى للمؤلّف كله: "وإنما كُتبت هذه الآيات، لتؤمنوا بأن يسوع هو المسيح ابن الله، ولتكون لكم إذا آمنتم الحياة باسمه" (٢٠: ٣١). ان إنجيل يوحنا هو إنجيل الحياة، إنجيل يسوع القائم من بين الأموات، والحاضر بيننا لكي يحيينا. وهذه الحياة التي يُدخلنا إليها الإيمان باسمه، تجد لها تعبيراً واقعياً بخبرة اللقاء بالرب الحي.

٢. قراءة يوحنا ٢٠: ١-١٨

لقد حاولنا أن نفهم المعنى الإجمالي ونكتشف الدينامية التي تربط ما بين الفصلين. انهما يقدمان معاً القيامة، ويعطيان تقريراً لعمل الإنجيلي كله. والآن أقترح قراءة يوحنا ٢٠: ١-١٨، لكي نفهم مسيرة مريم المجدلية، ومن بعض نواح أخرى، مسيرة التلميذ المفضَّل.

١. يُذكر لقاء المرأة مع القائم، أولاً، في الآيتين الأولى والثانية؛ ومن ثم يُشرح باسهاب في الآيات ١١-١٨. وما يهمني هو أن أسلط الأضواء على مراحل هذه الحركة المتجهة نحو ملء فعل "الإيمان" عبر الفرح. بدأت مريم المجدلية بتأويل وضع القبر الخالي تأويلاً متسرعاً ومحجَّماً: "وفي يوم الأحد جاءَت مريم المجدلية إلى القبر عند الفجر، والظلام لم يزل مخيّماً —وكان الظلام مخيماً على قلبها أيضاً- فرأت الحجر قد أزيل عن القبر. فأسرعت وجاءَت إلى سمعان بطرس والتلميذ الآخر الذي أحبه يسوع، وقالت لهما: أخذوا الربَّ من القبر، ولا نعلم أين وضعوه". (الآيتان ١-٢). والتأويل الذي تعطيه هو، في الوقت نفسه، على جانب من التحجيم والتسرع؛ وهو تأويل يطبعه الشك. فهي لا تفترض امكانية ان يكون المسيح قد قام.

ولكن، إذا نظرنا إلى قلبها، نستشف أنها ليست غير مؤمنة، كما يُخيّل إلينا: ففيها يتحرك شيء آخر، **نوع من المحبة ينقصها البلوغ**. انها تحب معلمها حباً جماً، ولكنها تريد امتلاكه؛ فهي لا تقبل بحرية الله المطلقة، وتتشبّث تشبّثاً عنيداً بحضور

يسوع، كما عرفته! انها تودّ أن ينشط من جديد هذا الشكل من الحضور؛ وهي تكرّر للملائكة تعبير الارتياب نفسه فيما يتعلق بإمكانية القيامة: "أخذوا ربي ولا أدري أين وضعوه" (الآية ١٣). ومرة أخرى، حينما التفتت إلى يسوع الذي ظنته البستاني: "سيدي، إذا كنتَ أنت قد ذهبتَ به، فقلْ لي أين وضعتَه، وأنا آخذه". (الآية ١٥ب).

نحن بازاء امرأة سجينة لرؤية ثابتة عن يسوع. وعلى حين غرة، وأمام هذه الصعوبات الكبيرة التي حالت دون تعرفها إلى الرب المنبعث، إذا به يظهر، ودوما بالموقف نفسه المليء بالحنان والشفقة والقربى الأمينة. وما ان دعاها باسمها "مريم"، وإذا به يجعل مجده يُشع؛ وأصبح في وسعها أن تتعرف عليه. ومن ثم، راح بلطف يصلح رغبة التملك لدى مريم المجدلية، ويفتح قلبها، ويعهد إليها برسالة نفيسة: "لا تمسكيني، إني لم أصعد بعد إلى أبي، بل اذهبي إلى اخوتي" (الآية ١٧أ).

هذا المشهد هو نموذج لمسيرة كل واحد منّا، لا بل لمسيرتنا في الكنيسة.

أي قاسم مشترك بيننا وبين هذه المرأة؟ ان ما يمنعنا دوماً من أن نرى القائم حاضراً بيننا وفي الكنيسة: هو شيء من الصلابة! فنظل عالقين بطريقة خاصة لفهم سر يسوع أو سر الملكوت ولإدراك بشأن ما يقوم عليه نجاح الكنيسة ونجاح رسالتنا. فلَكَم تساءَلنا: ولكن أين هو الرب القائم؟ إلى أين أخذوه؟

في الحقيقة، يسوع حيٌّ، وهو يمنحنا حرية الروح. انه في الأسرار، وفي الكلمة، وفي الجماعة وفي التقليد الرسولي. وتظل تجلياته روحية لا تحصى، حرة ومفاجئة؛ ونتعرف إليه بمقدار ما نتحرر تجاه ذاتنا، بنعمة الروح وبالكلمة التي يهمس بها القائم في قلبنا حين يدعونا باسمنا.

ان الرواية الإنجيلية تتعلق بتقدمنا نحو التعرّف إلى الرب، في صميم حياتنا اليومية: انه يدعونا إلى رؤيته بفضل إيمان حقيقي، وإلى التأمل به (مشاهدته) وهو يعمل في كل وضع من أوضاع الحياة.

٢. تُظهر لنا الآيات ٣ إلى ١٠ موقف التلميذ المفضَّل، وفي ظله، موقف بطرس: "فخرج بطرس والتلميذ الآخر وذهبا إلى القبر يسرعان السير معاً. ولكن التلميذ الآخر سبق بطرس، فوصل قبله إلى القبر" (الآيتان ٣ و٤). كلاهما يستحقان الاعجاب، لإنهما يسرعان، ولأنهما على استعداد لاكتناه أقل علامة. يسرعان، وكأننا نشهد سباقاً للسرعة! وهذا يدل على مدى رغبتهما في الإدراك وفي الاجابة على علامات المنبعث. إنهما يريان القبر خالياً، واللفائف موضوعة على الأرض، والكفن ملفوفاً على حدة في موضع آخر. وهذا التلميذ الذي كان يسوع يحبه -وهو أكثر الاثنين حدساً- يرقى للحال إلى الإيمان: "رأى وآمن" (الآية ٨)؛ انه يستشف بأن ربَّه لا يمكنه أن يبقى سجين الموت. ولكن كان يجب عليه أن يؤمن، بدون الحاجة إلى الذهاب إلى القبر، بل بالاستناد فقط إلى الكتاب المقدس وإلى كلمة المعلم: "ذلك بأنهما لم يكونا قد فهما ما ورد في الكتاب من أنه يجب أن يقوم من بين الأموات" (الآية ٩). ولكن مهما يكن من أمر، فان "التلميذ الآخر" أنجز خطوة كبيرة، في حين ظلّ بطرس متردداً؛ ويقول لنا لوقا ان بطرس "انصرف إلى بيته متعجباً مما جرى" (لوقا ٢٤: ١٢). فبطرس ويوحنا هما نحن الذين يكتنفنا القلق، لأننا نحب يسوع، فنركض حتى انقطاع النفَس أحياناً، ونضطرب ونشعر اننا ننوء تحت ثقل ما يجب علينا انجازه. وغالباً ما، في هذا السباق المضني، ننسى الأساسي: أن نؤمن بالقائم الحاضر، **ههنا والآن**. فالمهم هو أن نلمح علاماته، وننغمس في عالم الإيمان الحقيقي الذي يتيح لنا أن نعيش أشغال كل يوم بتعب أقل، وبفرح وهدوء أكبر. وهكذا، فان نص يوحنا ٢٠: ١-١٨ يتكلم، إذن، عنا وعن الكنيسة وعن صعوباتنا، وفوق كل شيء، عن الفرح. انه فرح يوسع أعيننا إذ يرينا ان القيامة تنير وجودنا كله.

علينا أن نصبو إلى نضج لا يكون مضافاً البتة، وانما هو هدف نصبو إليه بنعمة الروح القدس. ويكون الإيمان بالغاً حينما نكون في الحقيقة **رجالاً ونساءً يؤمنون بالقيامة**: أناس يسكنهم فرح عميق، فلا يتذمرون دوماً، ويعرفون أن يقاوموا مشاعر الحرمان التي تترصدهم دوماً. وتصبح ثمرة النضج المسيحي تشجيعاً

للآخرين، ومصدر تعزية وانتعاش للذين نلتقيهم. وهي تدفعنا إلى إنارة الآفاق والتعامل السليم مع الموت. ان النضج المسيحي لا يعتريه الهلع، ولا ينطوي على ذاته، ولا يسدّ أذنيه عن سماع الكوارث، ولكنه يحيا على مثال الشباب الثلاثة في أتون النار (راجع دانيال ٣: ٢٤ وما يتعبها) وهم ينشدون ويسبحون ويباركون الله.

٣. بمثابة خاتمة

ولما بلغنا إلى هذا الحد، لنوجز ما حاولنا أن نحياه، عبر استعراضنا إنجيل يوحنا. وسأفعل ذلك عبر سرد فقرات من رسالة يوحنا بولس الثاني الرسولية: "إطلالة الألف الجديد":

"لا ندخل في ملء مشاهدة وجه الرب، بقوانا وحدها، بل بافساح المجال للنعمة كي تأخذ بيدنا. فبوسع خبرة الصمت والصلاة وحدَها ان تُقدّم الإطار المناسب الذي فيه تنضج وتنمو معرفة هذا السر، المعرفة الأكثر صدقاً وأمانة وتناغماً. ان التعبير عن هذا السر يبلغ أَوَجَهُ في الإعلان الاحتفالي للإنجيلي يوحنا: "والكلمة صار بشراً، فسكن بيننا، فرأينا مجدَه، مجداً من لدن الآب لابن وحيد ملؤه النعمة والحق". (يوحنا ١: ١٤) (الرسالة/العدد ٢٠).

والعدد ٢٨ من هذه الرسالة يؤيد طريقتنا في فهم معنى ظهورات القائم بصفتها نقطة الوصول: "نحو المسيح القائم تشخص الكنيسة بأنظارها من الآن. وهي تفعل ذلك باتّباع آثار بطرس الذي سكب الدموع بعد إنكاره، وواصل طريقه معلناً حبه للمسيح (...). وبعد أَلفَي سنة تعيش الكنيسة هذه الأحداث من جديد، وكأنها جرت اليوم. ففي وجه المسيح، تتأمل الكنيسة، العروس، كنزها وفرحها: "ما أعذب ذكر يسوع، ينبوع الفرح الحقيقي للقلب!" والكنيسة، بعد ان تكون قد انتعشت بهذه الخبرة، تستأنف اليوم طريقها لتعلن المسيح للعالم، في مطلع الألف الثالث".

والمقطع الأخير من هذه الوثيقة يتناول جدّية الإيمان التي على المسيحيين والكهنة الراسخين فيه، أن يعيشوها بواقعية هادئة: "اليوم، علينا أن نجابه بشجاعة وضعاً سيكون دوماً أكثر تنوعاً وأكثر استحواذاً، في سياق العولمة وتلك الفسيفساء الجديدة والمتغيّرة لشعوب وثقافات، طبعت هذا الوضع". ففي مثل هذا الوضع، "لا يسع الذي التقى المسيح حقاً أن يحتفظ به لنفسه، بل عليه أن يعلنه" (العدد ٤٠)[1].

وهكذا فان نعمة الروح القدس تشجّعنا لكي نشاهد (نتأمل) وجه الكلمة المتجسد، وجه ابن الآب الوحيد، الذي يحيا في الشركة مع الآب، لكي ينقل منه للآخرين نورَه وحياته وحقيقته!

٤. الإيمان الجادّ

إلى هذا الموضوع أعود للفكرة الختامية. انه موضوع ماثل في كتابات يوحنا كلها، ويصفه يوحنا في الفصل العشرين من إنجيله (الآيتان ٣٠-٣١). انه نص سبق أن سردته مرات عديدة: "وأتى يسوع أمام التلاميذ بآيات أخرى كثيرة لم تُكتب في هذا الكتاب، وإنما كُتبت هذه لتؤمنوا بأن يسوع هو المسيح ابن الله، ولتكون لكم إذا آمنتم الحياة باسمه!" فيوحنا يريد أن ينقل إلينا خبرته العجيبة ويشركنا فيها. ومع علمه بقوة الظلمات، فهو يعرف أن النصر يكمن في الحياة التي يعيشها الإنسان باسم يسوع.

حين نستعيد التأملات التي أدخلتنا تدريجياً إلى سر الكلمة المتجسد، نفهم أن الإيمان، إذا ما أخذ على محمل الجد، يرتكز قبل كل شيء على المسألة التالية: هل تؤمن باله يقدّم ذاته بتواضع، وبرأفة وحنان، اله مصلوب؟

وازاء عدم الإيمان المتزايد الذي يحاصرنا —ونلاحظ ذلك بألم- لا يمكن أن يكون الجواب: لنحسِّنْ كتب التعليم المسيحي، لننظم أنفسنا تنظيماً أفضل، ولنصلّ

(١) مجلة الوثائق الكاثوليكية: ٢١ كانون الثاني ٢٠٠٢، العدد ٢٢٤٠، ص ٧٥، ٧٨.

أكثر. علينا أن نضع الاصبع على ما في الإيمان من جدّية، ونساعد الآخرين كي يتعرفوا على إله يعبّر عن ذاته في الوهن وتواضع الجسد، ويتلقّوه؛ إله يقترب، بنوع رقيق ولطيف، من الأشخاص، إله يُظهر قدرته ضد الظلمات وشفقته أمام الضعف البشري؛ إله يتألق بالرغم من ضعف المصلوب. فانْ نؤمن بمثل هذا الإله، فلذلك نتائج انتروبولوجية كبيرة توضحها الأناجيل. ومثل هذا الإيمان الجادّ هو بمثابة المائية الواقعية واليومية التي تدفعنا إلى الدخول في أعماق يسوع، بصفة أبناء الآب، بالقوة ذاتها وبالسكينة التي شهد لها، في كل لحظة، وفي كل ظروف حياته الأرضية.

ومع أننا مكتَنَفون بالعلمنة واللامبالاة والكفر، فان وضعنا هو أقل مأسوية من وضع جماعة يوحنا: انها لم تكن سوى نور خافت وسط ظلمات هائلة، ومع ذلك كانت تعيش من إيمان عميق. وإذا كنا مطيعين للروح، فان نعمة اليوم تجعلنا نجد نور الجماعات المسيحية الأولى التي وُلدت من حدث يسوع، وستساعدنا لكي نقرأ في العهد الجديد تلك الثروات الخارقة الكامنة في تفاؤل يُعاش في ظروف صعبة ومظلمة.

اني لعلى يقين من ذلك: فبوسع مجد الله أن يتجلى فينا، اليوم أكثر من الأمس، ويجعلنا نكتشف ما ينطوي من عناية الهية على المصائب التي نجتاز بها؛ ذلك لأن قدرة الكلمة تتيح لنا أن نؤوّلها، بفضل المصادر والتاريخ والتقاليد الغزيرة التي في حوزتنا، مقارنة مع ما كان في حوزة جماعات العهد الجديد الفقيرة والبسيطة.

الفهرس

كلمة الناشر ٧
مقدمة المترجم ٩
مقدمة المؤلف ١١
-كي تاتي الرياضة بثمار ١٣
-ما الهدف من الرياضة؟ ١٣
كيف نتأمل الانجيل ١٧
-اربعة مفاتيح للقراءة ١٧
-انجيل الاكتمال ١٧
-انجيل الملء ٢٠
-انجيل الايمان الجاد ٢١
-انجيل الفرح ٢٣
-اسئلة للتأمل في الصلاة ٢٤
المقدمة الشعرية ٢٩
١. قراءة يوحنا ١: ١-١٨ ٣١
-التركيبة ٣١
-الكلمات المفاتيح ٣٥
-تلاقيات كتابية ٣٦
٢. نداءات توجهها المقدمة الشعرية ٣٧
٣. نحو المشاهدة ٤٢
في حضن الآب ٤٥
-الابن الوحيد الذي في حضن الآب ٤٦
-معرفة وجه يسوع الحقيقي ٤٨
المقدمة النثرية ٥٥
١. قراءة يوحنا ١: ١٩-٣٤ ٥٦

-التركيبة ٥٦
-الكلمات المفاتيح ٥٧
-مقارنات مع الازائيين ٥٨
٢. التأمل في المقطع ٥٨
٣. المبدأ والأساس ٦٥
إلى أين يقودنا القديس يوحنا ٦٩
١. الصداقة في الانجيل الرابع ٧٠
٢. اصدقاء يسوع ٧٢
٣. الصداقة مع يسوع تنعكس على المحبة الاخوية وعلى الصداقات البشرية ٧٦
الفوضى في الهيكل ٨١
١. قراءة يوحنا ٢: ١٣-٢٥ ٨٣
-بنية النص ٨٤
-خاتمة الفصل الثاني ٨٧
-الكلمات المفاتيح ٨٨
٢. التأمل في النص ٨٨
٣. اقتراحات للصلاة ٩١
تحفظات فريسي ٩٥
١. قراءة يوحنا ٣: ١-٢١ ٩٥
٢. التأمل في النص ٩٨
-شخصية نيقوديمس ٩٩
-شخصية يسوع ١٠٢
٣. في سبيل الصلاة ١٠٤
سر يسوع، ابن الآب ١٠٧
-الكتب الثلاثة ١٠٧
-ميزات انجيل يوحنا ١٠٩
١. قراءة يوحنا ٥ ١١١
-الآية والجدال ١١٢
-مونولوج يسوع ١١٤

٢. التأمل في النص ١١٧
٣. نحو المشاهدة ١١٨
أعداء يسوع ١٢١
١. فئات الاعداء الاربع ١٢٢
-التهمة بدافع الحسد والانغلاق ١٢٣
-المتّهَمون الذين يتّهِمون ١٢٦
-الذين يريدون القضاء عليه ١٢٧
-العدو والعالم ١٢٩
٢. توبيخات يسوع ١٢٩
يسوع يؤسس جماعة تلاميذه ١٣٣
-يسوع يؤسس جماعة تلاميذه ١٣٥
١. قراءة يوحنا ١٣: ١-٣٢ ١٣٦
-ازمنة النص الخمسة ١٣٧
٢. رسائل يحملها النص الينا ١٤٤
٣. نحو المشاهدة ١٤٥
المسيح يتم عمله ١٤٩
١. الكتابة فوق الصليب ١٥٠
٢. اقتسام الثياب ١٥٢
٣. ام يسوع ١٥٤
٤. الاكتمال ١٥٦
٥. طعنة الرمح ١٥٧
القائم من بين الأموات والإيمان الجاد ١٦١
١. روايات القيامة ١٦٢
٢. قراءة يوحنا ٢٠: ١-١٨ ١٦٤
٣. بمثابة خاتمة ١٦٧
٤. الايمان الجاد ١٦٨
الفهرس ١٧١

سلسلة أبحاث كتابية

ظهر منها:

١. قراءة مجددة للعهد الجديد	تأليف: الأب بيوس عفاص	٥٤٠ص/١٩٩٩	٤٠٠٠د
٢. يسوع الذي من الناصرة/	تأليف: الأب م. اميل بوامار	٢٣٤ص/٢٠٠٢	١٠٠٠د
بقلم مرقس الانجيلي	تعريب: الأب بيوس عفاص		
٣. قراءة في العهد القديم/ج١			
قبل الجلاء		٢٤ص/٢٠٠٣	١٥٠٠د
٤. قراءة في العهد القديم/ج٢			
من الجلاء إلى يسوع		٢٧٢ص/٢٠٠٤	٢٠٠٠د
٥.قراءة في العهد الجديد/ج١			
الاناجيل الاربعة		٢٥٦ص/٢٠٠٤	٢٠٠٠د
٦. قراءة في العهد الجديد/ج٢			
أعمال الرسل، الرسائل، الرؤيا		٢٥٦ص/٢٠٠٤	٢٠٠٠د

الأجزاء الأربعة من تأليف أربعة اختصاصيين وتعريب الاب بيوس عفاص، وتشكل مدخلاً متكاملاً الى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. (مع العلبة: ١٠٠٠٠ د) –الجزءان من "قراءة في العهد الجديد" بسعر خاص: ٣٠٠٠د فقط

٧. الكنيسة التي وثناها عن الرسل	تأليف: الأب ريموند براون		
	تعريب: م. جرجس القس موسى	٢٠٨ص/٢٠٠٥	٢٠٠٠د
٨. لوقا–الأعمال/	تأليف: دونالد يوئيل		
وعد التاريخ	تعريب: الأب البير ابونا	٢٠٠ص/٢٠٠٦	٢٠٠٠د
٩/١٠. روايات الآلام والقيامة	تأليف: أ.بيير بنوا الدومنيكي		
بحسب الانجيليين الاربعة	تعريب: الأب بيوس عفاص	٣٣٦ص/٢٠٠٦	٣٥٠٠د
١١. يسوع الذي هو المسيح	تأليف: الأب برنار راي		
	تعريب: م. جرجس القس موسى	١٣٦ص/٢٠٠٧	٢٠٠٠د
١٢. من أجل ايمان جاد/	تأليف: ك. كارلو م. مارتيني		
الايمان بحسب القديس يوحنا	تعريب: الأب البير ابونا	١٧٦ص/٢٠٠٨	٢٥٠٠د

سيظهر:

– الانجيل بحسب القديس متى	تأليف: كلود تاسّان	ت: أ. بيوس عفاص
– مذكرات مريم، فتاة الناصرة	تأليف: جاكلين سافيرا	ت: م. جرجس القس موسى
– الانجيل بحسب القديس يوحنا	تأليف: آلان مرشدور	ت: أ. بيوس عفاص

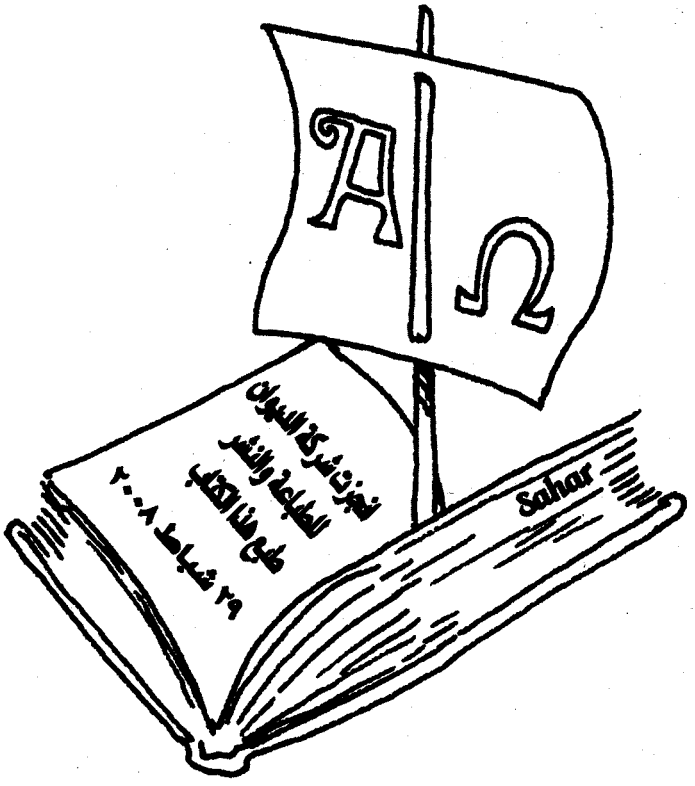

أنجزت شركة السيوان
للطباعة والنشر
طبع هذا الكتاب
٢٩ شباط ٢٠٠٨
Sahar

اصدارات

دار بيبليا للنشر

ملفات الكتاب المقدس

مجلة بيبلية متخصصة مصورة ظهرت بالفرنسية، عام ١٩٨٤، بعنوان (Les Dossiers de la Bible) عن الخدمة البيبلية "انجيل وحياة"، بقلم اختصاصيين في علوم الكتاب المقدس عرفوا ان يضعوا علمهم في متناول الجمهور. وعمد مركز الدراسات الكتابية في الموصل عام ٢٠٠٠ إلى تعريبها واخراجها ونشرها بوتيرة أربعة اعداد في السنة.

ظهر منها على مدى ثماني سنوات ٣٠ عدداً في شتى المواضيع والاسفار البيبلية من العهدين القديم والجديد، وقد افتتحت عامها التاسع بالعدد ٣١ بعنوان "لا فقراء بعد اليوم"، بحلة جديدة واخراج رائع.

تتوفر نسخ من اعدادها الماضية. (سعر النسخة لعام ٢٠٠٨: ١٢٥٠ ديناراً فقط).

سلسلة ابحاث كتابية

مجموعة كتب بيبلية رصينة، مؤلفة أو مُعربة، تجعل كلمة الله سهلة المنال وعذبة المذاق، وتسهم في ترسيخ الوحدة المسيحية في قلب الكنائس التي تقرأ الكتاب المقدس لتتغذى منه وتشهد له...

سلسلة انطلقت عام ١٩٩٩ بوتيرة كتاب او كتابين في السنة لتمكن القراء من الدخول إلى عالم الكتاب المقدس، وفق منهج علمي رصين وتوجه راعوي جاد.

ظهر منها ١٢ كتاباً باخراج رائع وطباعة انيقة، وكلها متوفرة وباسعار مدعومة.

مختارات الفكر المسيحي

ابتسمت لدار بيبليا للنشر فكرة اصدار "مختارات" من سنوات مجلة "الفكر المسيحي" -وقد سبق ان ظهر "تاريخ الكنيسة الشرقية" (١٩٧٣) ومن ثم "همسات أبو فادي" (١٩٨٥) و"أبت، هذه مشكلتي" (٢٠٠٤)- وعمدت إلى مواصلة نشر المختارات، بداءاً بـ "اسئلة واجوبة" (٢٠٠٦)، و"افتتاحيات رئيسي التحرير" (٢٠٠٧) و"همسات أبو فادي"/ج٢ (٢٠٠٧) وانتهاء بباب "من وحي الانجيل" (٢٠٠٨).

منشورات مركز الدراسات الكتابية

عمد م.د.ك.، منذ اواخر التسعينات، إلى تكثير دوريات وكتب بيبلية رصينة، فكانت "جريدة بيبليا" (٥٤ عدداً) ومن ثم مجلة بيبليا" (٣٤ عدداً على مدى ٩ سنوات) و"سلسلة دراسات في الكتاب المقدس" (٣٧ جزءاً). واتسعت دائرة النشر، بطريقة الاستنساخ، إلى العديد من الكتب في المجالات اللاهوتية والكتابية والروحية والاجتماعية والتربوية والتاريخية... يربو عددها على مئة كتاب -وكلها باسعار مدعومة.

تطلب كافة الاصدارات والمنشورات من مكتبة بيبليا (الموصل) ومن مكتبات الكنائس

سلسلة أبحاث كتابية/١٢

من أجل إيمان جاد

ترجمة الأب ألبير أبونا

... ولا تكن غير مؤمن بل مؤمنا

طوبى للذين يؤمنون ولم يروا

لقد شاءه مؤلفه "تأملات" في الانجيل الرابع، بدءاً بمقدمته اللاهوتية العميقة، بوجهيها الشعري والنثري، في مجد "الكلمة" الذي كان منذ البدء، والذي، في ملء الزمن، صار "بشراً سكن بيننا"، وصولاً الى مجد القائم من بين الاموات، مروراً بمشاهد مختارة من انجيل يوحنا. فاذا برّز الكتاب وجه يسوع الناصري في عمق انسانيته، الا انه كشف بالتالي عن كونه كلمة الله المتجسد الذي، وهو في حضن الآب، أرانا وجه إله كله حب وقرب وحميمية.

الا ان الهدف العميق الذي توخاه مارتيني، هو انه دعانا الى ايمان جاد يستند على خبرة ايمان الانجيلي وجماعته -ومن هنا كان عنوانه الفرعي "الإيمان بحسب القديس يوحنا"- ايمان يجعلنا نأخذ كلمات يسوع على محمل الجد، لنحيا منها ونتغذى بها ونشهد لها...

أليس جوهر انجيل يوحنا برمته يكمن في ان نؤمن ونحب؟! فالى ايمان جاد من وزن ايمان الجماعة اليوحنانية يدعونا الانجيلي الرابع... والى مثل هذا الايمان يدلنا مارتيني عبر تأملاته في هذا الانجيل.

من كلمة الناشر

يطلب من مكتبة بيبليا-كنيسة مار توما
الموصل-العراق
سعر النسخة: ٢٠٠٠ دينار

شركة الديوان للطباعة والنشر
بغداد-العراق

٢٠٠٨